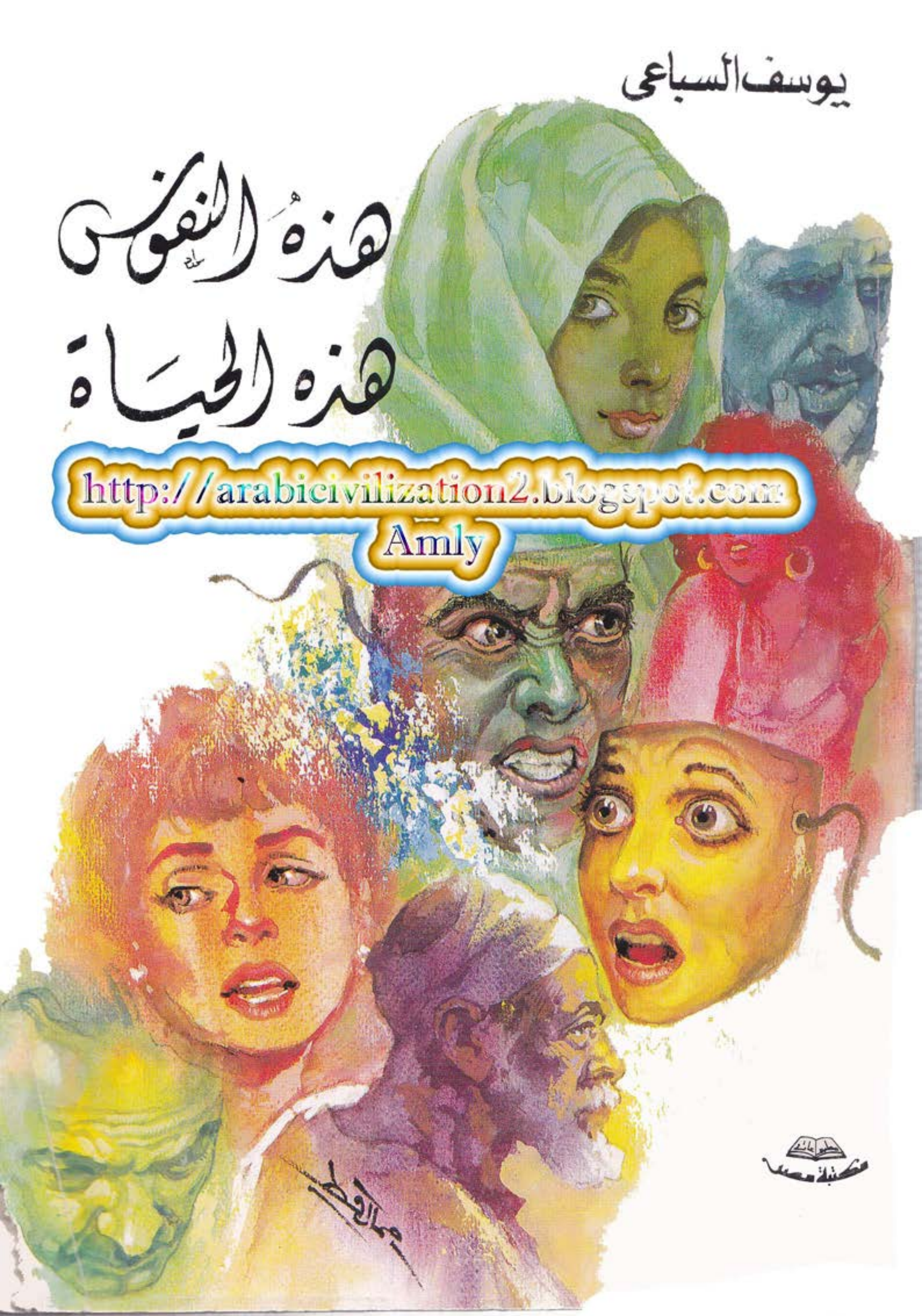


يوسف السباعي
هذه النفوس
هذه الحياة
http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly



هذه النفوس هذه الحياة

يوسف السباعى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

الإهـــداء

الى النفس المثلى .

الى النفس التى تبدو كسراب خلب لا أستطيع الوصول اليه .

الى النفس الجميلة .. الطيبة ..الهادئة ..الحنون ..

الكريمة .. الرحيمة .

الى النفس التى أبغى لديها حبا بلا أنانية .

الى النفس التى تقبل أن تمنحنى دون أن تأخذ منى .

الى النفس التى بحثت عنها فى هذه الأرض عبثا :

أهدى كتابى هذا

لوكان لها وجود .

يوسف السباعى

مُقَـــدّمَة

هذه النفوس !!

ما أشد غموضها ، وأبعد غورها ، وأكثر تعقيدها .

ان النفس البشرية .. معضلة معقدة ، لا مقياس لها ولا ميزان ، انها اناء ينضح بالخير مرة ، وبالشر مرات .

ترى من أى طينة خلقت ؟ . ومن أى مادة ركبت ؟ .

انها خليط من المتناقضات لا يمكن تمييز مركباته : اللهم الا مركب واحد .. يغلب عليها كلها .. ويبرز فيها واضحا جليا .. هو مركب : الأنانية .

انى لأنظر الى النفوس من حولى .. فأجدها نفوسا جملية حنونا .. لا تبدو منها بادرة سوء ، ولا تنب عنها نابية شر .. ما دامت لا تتعارض لها مصلحة ، ولا تتشارك فى مغنم .. فاذا ما تعارضت المصالح .. جرّت النفوس بالحقد والشر والعدوان .

ان النفسُ البشرية لا تحب الخير الا اذا كان فى صالحها . انها تكره الظلم ما دامت مظلومة .. ولا تقبل الجور اذا ما وقع عليها .. فاذا ما أضحى الأمر بيدها .. استساغت الظلم .. وأحبت الجور .

ان شعار النفوس هو نفسى أولا .. أو نفسى فقط .

ان خير ما نعامل به النفوس ، هو أن نفترض فيها السوء ، ونتوقع منها الشر والعدوان .. فاذا مالقينا منها حسنه وصادفنا فيها خيرا ، اعتبرناه منها مكرمة ومنحة .. واذا أصابنا منها سيئة .. لم نفزع ولم نفاجأ .. وقلنا : تلك هى طبيعتها ، وذلك هو ما جبلت عليه .

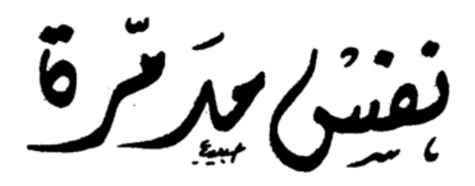
اذا أحسنًا .. فيجب أن نتوقع ردّ الإحسان بالإساءة ، واذا أحببنا فيجب أن ننتظر البغض والقطيعة .. واذا نجحنا أو أصابنا خير فيجب أن نتوقع الحسد حتى ممن لا يضيره نجاحنا ، ولا يوجعه ما نلنا من خير .

حقا ما رزىء ابن آدم بشر من نفسه .

اللهم ارحم هذه النفوس .. من هذه النفوس .

يوسف السباعى





انك قد فعلت من أجلها كل شىء .. ولكنها كانت فتاة مدمرة . فانتهى بها الأمر بأن دمرت نفسها وحطمت حياتها

جلس : الطبيب النفسانى ، يناقش صديقه ، الطبيب الجراح ، فى أمر المريضة الراقدة :

– لست أدرى ماذا يبعثها على الانتحار .

– قد تكون المسألة .. مسألة حب .. أو املاق .. ان مآسى الحياة كثيرة .

– لا .. لا .. لا أظن المسألة شيئا من هذا .. بل يبدو لى أنها ترزح تحت عبء نفسانى ثقيل .. عبء من تأنيب الضمير .. فلقد سمعتها فى هذيانها تنكر أنها لم تقتل أحدا .. وأنها ليست مسئولة عن موتها .. ويبدو لى كأن هناك شبحا يطاردها ويلاحقها .. وينغص عليها حياتها .

وأطرق الطبيب النفسانى برأسه مفكرا .. ثم قال بعد برهة وهو ينهض واقفا :

- حسنا .. دعنى أراها .

واتجه الإثنان الى غرفة المريضة التى رقدت فى فراشها ، وقد ضمدت رأسها بالأربطة ، وبدت مستغرقة فى نومها .. ومرت فترة قصيرة ، والإثنان يرقبانها ، وفجأة عصفت بها الحمى ، وانتابتها نوبة من الهذيان ، وصاحت فى صوت ملوءه المرارة :

- أنا لم أفعل بها شيئا .. انها هى التى قتلت نفسها .. أقسم لكم .

ومرت فترة سكون .. ثم عاودت المريضة هذيانها قائلة :

- انها لن تتركنا .. ان شبحها القائم سيحول بيننا دائما .. لافائدة .. لقد قالت : انها لن تخلى لنا الجو .

وصمتت المريضة ، وحاول الطبيب تهدئتها ، وربت عليها برفق .

ومرة أخرى صاحت المريضة ، وقد همت بالجلوس فى فراشها :

- لا تذهب .. انى أريدك .. انى احبك .. ولكنى أخشاها .. لقد قالت : انها لن تتركنا .. انى لم أقتلها .. أقسم لكم .

ثم ارتمت المريضة فى فراشها متعبة ، وعادت الى سباتها .



وفى اليوم التالى .. جلس الطبيب النفسانى بجوار المريضة .. التى بدت فى حالة يقظة متعبة مكدودة ، وأخذ يحدثها برقة وحنو ، ويسألها قائلا :

- حدثينى عما يضايقك .

- لاشىء .

- لا .. لا .. انى أعلم أن هناك عبئا ينقض ظهرك ، حدثينى عنه .

- ليس هناك شىء .

- بل هناك أشياء .. ما الذى جعلك تقدمين على الانتحار ؟

- أنا لم أنتحر .. لقد صدمتنى العربة صدفة وأنا أعبر الطريق .

- انى واثق أنك قذفتى بنفسك أمامها عامدة .

وهزت المريضة رأسها بالنفى .
ومرت فترة صمت قطعها الطبيب بقوله فجأة :

- يبدو لى أن ضميرك يؤنبك ، لأنك تسببت فى موت انسان ..

وفزعت المريضة وصاحت فى عنف :

- أبدا .. أقسم أننى لم أتسبب فى موتها . انها هى التى قتلت نفسها .

وحاول الطبيب تهدئتها ، وسألها فى رفق :

- من هى ؟

- وهزت المريضة رأسها فى عناد واصرار :

- لا أحد .

- لا تخشين شيئا .. انى أريد معاونتك .. اذا يبدو لى أنك ترزحين عبء من الأوهام الكاذبة .. حدثينى عن نفسك حتى أساعدك فى تبديد تلك السحب التى تعتم سماء حياتك ، وتتركك تتخبطين فى ظلمة حالكة .

وهكذا أخذ الطبيب فى استدراجها فى رفق .. مرة بعد أخرى .. وهى تحاول التخلص والانكار .. حتى فاجأها بقوله :

– انك تحبين انسانا عزيزا لديك .. وتريدينه .. ولكنك تخشين من انسان آخر .. أو شبح .. أو أى شىء وهمى .

وصمتت المريضة ، ثم انطلقت منها زفرة حارة ، وقالت :

– أجل .. انى أريده .. كما لم أرد شيئا فى هذه الحياة .. ولكن لا فائدة .

– ولم لا فائدة .. حدثينى .. ارو لى قصتك .. فمن يدرى .. قد أستطيع أن أفعل لك شيئا .

وبدأت المريضة فى سرد قصتها قائلة :

– كنت أشتغل بالتمريض فى أحد المستشفيات عندما أنبأنى أحد الأطباء ذات يوم .. أن أحد الكبراء سأله عن ممرضه يستطيع أن يضع فيها ثقته ، لتقوم بتمريض ابنته .. والعناية بأمرها .. وقال لى الطبيب : انه لم يستطيع أن يضع ثقته فى سواى .. وأنه قد وجدنى خير من أصلح لهذه المهمة . فشكرته على حسن ظنه .. وأعطانى العنوان والموعد الذى أذهب فيه للقاء ربة الدار .

وذهبت الى الدار .. فوجدتها قصرا منيفا يقوم فى احدى الضواحى تحيطه حديقة مترامية الأطراف .. مزدهرة يانعة .. ولقيتنى ربة الدار فصعدت فى الحال الى الطابق الأعلى .. وجلسنا فى صالة رحبة ، وسألتنى بضعة أسئلة تافهة ، ثم أدارت وجهها ، وأشارت الى باب مغلق فى نهاية الصالة ، وقالت :

– هذه حجرة ابنتى .

وصمتت السيدة برهة .. تجهم فيها وجهها ، وعلته سحابة داكنة من حزن عميق ، وأردفت قائلة :

- انها مريضة منذ ما يقرب من العام .. لقد أصيبت فى حادثة انقلاب سيارة . ولا أظنها ستستطيع السير بعد ذلك .. بل لا أظنها ستغادر الفراش قط .

وأحسست فى نفسى مبلغ ألمها من ذلك القول الذى فاهت به ، وغلب عطفى عليها ذلك البغض الذى أحسسته نحوها - لأول وهلة - عندما طالعتنى منها مظاهر العجرفة والكبرياء التى تلازم أمثالها من أهل الجاه والسلطان .

وأطرقت المرأة برأسها ، وشرد بها الذهن ، وسمعتها تتمتم كأنما تحدث نفسها :

- لقد كان هو السبب فيما حدث .. فهو الذى كان يقود السيارة عندما انقلبت بهما .

وأطلقت من صدرها زفرة حارة ، وأردفت تقول فى صوت محزن :

- مسكين .. لشد ما قاسى هو الآخر .. لقد حطمت الصدمة أعصابى ، وهدت قواه .. لقد كانا خطيبين ، وما زالا خطيبين حتى الآن ، وهو يكنّ لها الحب .. فما نقص شغفه بها قيد أنملة .

ورفعت بصرها الى ، وسمعتها تتساءل فى حدة :

- ولم ينتقص ؟ انها مازالت جميلة كما هى ، وهى مخلوقة رائعة .. كل ما بها نموذجى ، فما رأيت فتاة أشد منها شجاعة ، ولا أعز نفسا ، ولست أشك أنها ستثير اعجابك عندما ترينها .

وبدأت السيدة تشرح لى كل ما يطلبونه منى ، وجلست أصغى اليها .. فلم أجد فى كل ما قلته أمرا عسيرا .. بل كانت المهمة سهلة

هينة ، وأخذت تزودنى ببعض النصائح ، ثم نهضت وقادتنى الى غرفة الفتاة المريضة .

وضغطت السيدة على مقبض الباب ، ثم دفعته أمامها ، ودلفت واياها الى الحجرة .. ولا أظننى سأنسى قط ذلك الأثر الذى تركته الحجرة فى نفسى عندما وقع بصرى عليها لأول مرة .

كانت حجرة رائعة .. كأنها حجرة ملكة أو أميرة .. وقد توسطها فراش متسع مذهب الأطراف .. بطنت جوانبه بالستان الأزرق .. وبدت بقية الأثاث فخمة أنيقة .. وفرشت على الأرض سجادة عجمية تغوص فيها الأقدام .. يتردد الإنسان طويلا قبل أن يخطو عليها .. فهى تحفة فنية .. وعلى الحائط قد علقت أبدع اللوحات الزيتية .. وفي وسط هذه الحجرة التى تفوح فى جوها رائحة الثراء ، والجاه ، والأرستقراطية رقدت الفتاة المريضة .. ناحلة الجسد دقيقة الملامح .. بوجهها كثير من شحوب ، وكثير من ضعف واستسلام .. ولكنه رغم ذلك فاتن ساحر خلاب .. يملأ الناظر اليه بمزيج من الشعور بالشفقة ، والعطف ، والحب ، والإعجاب .

ووقفت بباب الحجرة ، وما أظننى أحسست قط بضآلتى وفقرى كما أحسست فى تلك اللحظة ، وانتابنى ذلك الشعور الذى ينتاب قزما يسير بجوار عملاق .

وكانت الفتاة تجلس فى فراشها متكئة على وسادة سميكة ، وقد جلس أمامها على طرف الفراش رجل لم أر منه سوى ظهره . وبدا لى عريض الكتفين .. متين البنيان .

وتحدثت الأم .. فأنبأت الفتاة بأننى الممرضة التى وقع عليها الاختيار .. وابتسمت الفتاة ، وأشارت برأسها محيية ، ووجهت الحديث الى الرجل الجالس أمامها قائلة :

- دورك فى اللعب .. لقد حركت الحصان .

ولم أشك من قولها .. انهما كانا يلعبان الشطرنج .. رغم أن جسد الرجل قد حجب عنى الرقعة .

ولم يلعب الرجل ، وبدأ ساكنا ، كأنه ينتظر أن أذهب لتحيته ، أو لرؤية وجهه .. وأثار فى الرجل شعورا بالعطف والرثاء ، ورأيت الخواطر تعدو فى رأسى كلمح البرق .. انه لا شك يعرف أنى أعرف أنه هو السبب فى الكارثة التى حلت بالمسكينة ، وقد يظن أننى لعنته وأبغضه ، وهو يتوقع أنى متشوقة الى رؤيته .

وبدا لى ظهره على ضوء هذه الخواطر ، وكأنه رغم متانته ، وعرض منكبيه محنيا متهدلا ينوء بعبء ينقضه ويقوضه .. أو هذا على الأقل ما هيأته لى أفكارى وخواطرى .. التى لم تستغرق سوى ثوان معدودات .. وسادت فترة صمت ، ولبثت جامدة فى مكانى ، ووجد الرجل أنى لم أتقدم لتحيته ، أو لرؤية وجهه .. فعاود اللعب دون أن يلتفت الىّ .. وبعد لحظة قصيرة انسحبت والأم من الحجرة ، وأغلقنا الباب خلفنا .

★ ★ ★

واستقر بى المقام بعد ذلك فى الدار .. ولم تكن وظيفتى تمريض الفتاة فحسب ، بل كنت لها وصيفة ، وصديقة ، وسميرة .. ومرت بى الأيام فبدأت أتعود على عملى الجديد .. وكان الأجر الذى يدفع لى أجرا مغريا ، تهون من أجله الصعاب ، لو كانت هناك صعاب .

وبمرور الأيام بدأت تتكشف الأمور ، وبدأت أرى لها صورة جلية واضحة .. لقد تبين لى أمر عجيب .. كانت الفتاة المريضة فى رقدتها الملائكية .. تسيطر على كل من فى الدار .. فلقد مضى أكثر من عام على مأساتها الأليمة ، ومع ذلك فقد كانت كأنها حدثت بالأمس .. ولست أشك فى أنه ليس هناك أقدر من الزمن على تخفيف وقع المآسى ، وعلى تضميد جروح النفوس وشفائها ببلسم النسيان .. ولست أشك كذلك فى أن العام يعتبر فترة من الزمن لا بأس بها فى عمر الإنسان .. ولكنى رغم ذلك وجدت الفتاة العجيبة قد استطاعت أن تحارب الزمن ، وتقهر منه عاما فيمضى بها وكأنه مامضى .. أجل .. لقد نجحت فى أن تحتفظ لمأساتها بحدتها وروعتها ، وتأثيرها المضنى على كل من حولها .

لقد نجحت الفتاة فى أن تجدد لأبويها لوعتهم عليها .. يوما بعد يوم .

لقد كانت تكره أن يعتادا رقدتها .. وأن تصبح فى مصابها منسية .. فيؤلف المصاب .. ويمر بها الزمن .. فاذا بها مصابة ، وغير مصابة ، وتصبح نكبتها أمرا طبيعيا .. لاتستحق عليه بكاء ، ولا رثاء .

أما بالنسبة لخطيبها .. والرجل الذى كان سببا فى كل ما أصابها.. فقد كان كل همها أن تنتزع منه أكثر ما تستطيع من دلائل الحب ، وآيات الوفاء .

ان القوة سلاح يستعمل فى أن ينتزع الانسان كل ما يريد ، ولكن الضعف قد يكون فى بعض الأحيان أقوى من القوة ... وكانت الفتاة تدرك ذلك ، وكان لها من ضعفها سلاح شديد المضاء .

ولذَّ لى أن أرقب طريقتها مع الرجل .. طريقة القتال بسلاح الضعف ، وكان الرجل يتجنبنى فى بادىء الأمر .. فقد كان يحس لى خصومة ناتجة من ظنه أننى أبغضه لمعرفتى أنه كان السبب فى كارثة الفتاة .

ولكن سرعان ما تغلبت على خصومته .. لأن شعورى الحقيقى نحوه كان عطفا وشفقة .. وكنت أرى من ارهاف حسه ، ورقة مشاعره ، ما يجعلنى أحس مبلغ دقة مركزه ، وحرج موقفه بالنسبة لأهل الدار .

فتعمدت أن أكون معه مرحة بشوشة ، حتى أزيل بعض ما علق بنفسه من ضيق وحرج .. ولم أكن أقصد بمرحى وبشاشتى أكثر من هذا .. ولكنى أستطيع أن أدرك الآن كيف كانت حركاتى البريئة تبدو لتلك العينين الزرقاوين اللتين ترقبان من بين الوسائد .. ولا تفعلان شيئا سوى التطلع والترقب .

وكان يزورها كل يوم .. لا تخلو يداه من شىء يحمله لها : حلوى أو كتب ، أو أية هدية أخرى ، وعندما كانت تحس وقع أقدامه نحو الغرفة .. كنت أراها تكسو نفسها مظهرا مؤثرا من مظاهر الضعف والاستكانة ، وأجد صوتها قد تهدج ، وانطفأ بريق عينيها .. ويقبل هو منتصب القامة ، مرفوع الهامة .. كأنما ينوى أن يهبها شيئا من قوته ، ومن أمله .. فيصدمه منها ذلك المظهر المحزون البائس .. الذى يبدد أمله ، ويدمر قوته ، ويشده معها الى قرارة الحزن واليأس والندم .. وهكذا كانت مع بقية أهل الدار الذين حاولوا عبثا أن ينتشلونها من وهدة الحزن واليأس .. أما معى فكان الحال يختلف تمام الاختلاف .. كانت مخلوقة أخرى .. حادة الطبع .. سريعة للغضب .. مرة الانتقاد ، ولم

تكن تحاول أن تتصنع تلك الاستكانة والضعف .

كانت معى على سجيتها .. حتى لقد كان يدهشنى أن يغتر الآخرون بمظهرها الخداع .

وفى ذات ليلة ، وأنا أوشك أن أغادر حجرتها لأخذ قسطى من الراحة ، حضر الرجل ، وكان يحمل فى يده بضع اسطوانات غنائية .

وعندما اتجهت الى الباب طلب منى الانتظار ، وأنبأنى أنه أحضر ضمن الأسطوانات التى أحضرها أسطوانة : (فى الليل) التى قلت بالأمس اننى أهوى سماعها .. ونظرت اليها .. وكانت منذ لحظة قصيرة على خير حال .. فاذا بى أراها ، وقد تلاحقت أنفاسها ، واضطجعت على الوسائد ، وأغمضت عينيها ، وضغطت بكفها على قلبها ، وبدت كأنها مضناة منهكة .. وأسرعت اليها ، وأمسكت بيدها فوجدت نبضها سريعا وغير منتظم .

وكنت أعرف أنها مخادعة .. مخاتلة ، ولكن كنت أعرف أيضا أنها تكره أن أبقى معهما لأستمع الى الأغنيات .. وتركت يدها برفق ، ونظرت اليه دون أن أحاول أن أجعل شيئا مما فى صدرى يبدو على وجهى ، وقلت له ببساطة .

يخيل الىَّ أن حالتها الليلة لا تساعدها على سماع الاسطوانات .

والتقت أبصارنا .. فوجدته قد غرق فى يأسه ، وبدت فى عينيه نظرة الانهيار والإخفاق .

وتكلمت هى .. فأنبأته أنها متعبة ، وأنها تفضل أن يجلس جانبها .. فيحدثها عما فعل فى خلال يومه .. ثم صمتت لحظة وأردفت فى ضعف .

- لا أظنك تدرك نعمة قدرة الإنسان على أن يخرج ، ويسير ، ويفعل ما يريد .. هذه نعمة لا يحس بها الا المحروم منها .

ولم ينبس الرجل ببنت شفة .. بل اتجه اليها ببطء ، وجلس أمامها على طرف الفراش .. وتسللت أنا من الحجرة فى سكون .

وكانت أفعالها هذه تغضبنى أحيانا .. وتبعث فى نفسى العطف عليها والرثاء لها أحيانا أخرى .. وكنت أعتقد أن ما بها ناتج عن صغر سنها ، وأنها نشأت مدللة مرفهة .. لم تحنكها التجارب .. ولم تتعلم فلسفة الحياة شيئا .. فهى لا تستطيع أن تتحمل مصابها الا اذا شاركها الآخرون فى حمله وأحسوا من هذه المشاركة نفس الآلام التى تحاول هى أن تغرق نفسها فيها .

وبدا لى أن الطريقة التى تتبعها ستودى بها الى التهلكة .. وقررت أن أحاول مساعدتها وارشادها .. وكانت تضع فى حجرتها ستة صور أخذت لها قبل الحادثة .. ففى ذات يوم أمسكت باحدى الصور التى كانت موضوعة على منضدة بجوار الفراش وكانت صورة تمثلها على شاطىء البحر ، وقد بدت رائعة الجمال بديعة التكوين ، وقلت لها فى رفق :

لماذا تضعين كل تلك الصور فى حجرتك .. انها تذكرك دائما بكل ما حدث ، وتنكأ جراح نفسك ...

ورأيتها تحدجنى وتقول حانقة :

- أنت امرأة قاسية .

- أنا لم أقصد أن أكون قاسية ، انى أرغب فى مساعدتك وفى انتشالك من الظلمات التى تغرقين بها نفسك .. انى أعرف أناسا أصابهم شر مما أصابك ، ولكنهم لم يتركوا نفوسهم تهوى فى قرارة اليأس كما فعلت ..

بل تعلقوا بحبال الأمل حتى صعدوا بها الى النور .. واستطاعوا أن ينعموا بالحياة رغم ما حدث لهم .. ان أول ما يجب عليك عمله هو أن تنسى ما مضى .. وتحاولى أن تبنى حياتك من جديد .

ولم تجبنى الفتاة ، بل أشارت بيدها الىَّ كى أقترب .

ولمحت فى عينيها نظرات تفيض بالبغض والكراهية ، وأحسست منها بخوف شديد .. ولم يسعنى الا أن أقترب منها كما أشارت .. ووقفت ملاصقة لها .. وسمعتها تقول بصوت ملوّه القسوة والمرارة ، صوت قوى شديد .. لا يتوقعه المرء من مخلوقة فى مثل هذا الضعف والاستكانة :

- اننى لا أريد أن أبنى شيئا .. لقد انتهيت .. وأنا على استعداد للرحيل فى أى وقت .. ولكنى لا أريد أن أموت وحدى .. هل تسمعين ؟

ارتددت عنها مذعورة .. فما كنت أتوقع منها مثل ذلك القول .. وهمست فى صوت مبحوح :

- ماذا تعنين ؟

وهزت كتفيها وأطبقت أجفانها .. وبدا لى وجهها الشاحب جميلا فاتنا .. وسمعت شفتيها تتمتمان :

- لاشىء .. اذهبى الآن .. انى متعبة .

وتركتها وذهبت الى النافذة وأخذت أفكر فى الطريقة التى تحاول أن تحمل بها أبويها آلاما لا مبرر لتحميلها .. وتذكرت الرجل وأدركت أنها تنزل به عقابا نفسانيا صارما .

وساءلت نفسى .. هل تضمر له شرا من ذلك ؟

والتقيت بعد ذلك بالطبيب الذى كان يشرف على علاجها والذى كان سببا فى احضارى الى الدار .. فسألته : لماذا لا تحاول أن تخرج الفتاة من الحجرة ؟

وقلت اننا نستطيع أن نحملها الى الشرفة فتتمتع بالهواء الطلق ، وبالخضرة المحيطة ، وتغير منظر الحجرة الذى لا شك قد أصابها منه ملل وسآمة .

وهز الطبيب كتفه يائسا ، وأنبأنى أنه حاول ذلك عبثا .. فهى لاتريد أن تخرج نفسها من أحزانها .. انها من ذلك النوع من النساء البائسات اللاتى يشيدن صرح حياتهن على جمالهن .. وهذا الانهيار فى نفسها كان لابد أن يصيبها عاجلا أو آجلا .. فلو لم يسببه الحادث لسببته الشيخوخة .. انها من النساء اللائى يعشن على جمال المظهر .. أما جمال النفس ، وجمال القلب ، وجمال الروح ، فقد خلت منه .

وسألته فجأة :

- ألا تخشى أن تنتحر ؟

ولم يدهشه السؤال ، وهز رأسه ببطء وأجاب :

- لا أظنها تفعل .. على أية حال .. خير لنا أن نحذر فلا نضع بجوارها الأقراص المنومة .. أظنك تضعين كل الأدوية فى مكان بعيد ؟

- اننى أفعل .. ولكن يخيل لى أنها تخفى لديها قوة ستذهلنا جميعا .

ونظر الىَّ فى دهشة قائلا :

- ماذا تعنين ؟

- لست أعنى بالطبع أنها يمكنها أن تغادر الفراش وأن تسير . ولكنها ...

واستعصت علىَّ الألفاظ التى أستطيع أن أعبر بها عما أود قوله .. وترددت برهة ثم أطلقتها مرة واحدة فقت له :

- انها تكره خطيبها .

ونظر الىَّ الطبيب نظرة فاحصة ولم أشك فى أنه قد ظن أننى أهوى الرجل . فقد رأيت عينيه تنصحان بأن أحذر من نفسى .. ومنذ ذلك اليوم وقد احتفظت بهواجسى فى صدرى . وكنت أحس أن الفتاة تخفى شيئا .. فقد بدت دائمة القلق ، ولم أجسر بالطبع أن أستفسر منها حتى لا أثير غضبها .. حتى كان ذات يوم ، ولم يكن هناك فى الدار سوانا ، دق جرس الباب فنزلت لأفتح وكان الطارق خطيبها وصعدنا الدرج جنبا الى جنب واجتزنا الصالة متجهين الى حجرتها ، ولست أفكر ما قاله حينئذ .. مما بعثنا على الضحك ودلفنا الى الحجرة ونحن ما زلنا نضحك .

وقع بصرى عليها وقتذاك فراعنى امتقاع وجهها ، وأفزعتنى تلك الثورة العنيفة التى تصطخب فى نفسها .. ورأيتها ترمقنا بنظرة اتهام وتقول فى مرارة :

- اضحكا كما تشاءان .. انه شىء مضحك حقا .. أين ذهبت بالمفتاح .. ألا يكفينى ضيقا أن أرقد فى فراشى ليل نهار حتى تخفين مفتاح المكان الوحيد الذى أضع فيه حاجياتى . أجيبى .. أين المفتاح ؟

واقتربت منها ذاهلة .. وأحسست فى نفسى أنه لم يكن من الحكمة أن ندخل عليها هكذا ضاحكين .. وأن عملنا فى الواقع لم يخل من

قسوة ، رغم أنه كان عن غير قصد .. وأخذت أبحث عن المفتاح الذى كانت تسألنى عنه .. وكان مفتاحا صغيرا لدرج المنضدة الذى تضع فيه بعض حاجياتها الخاصة التى لم أحاول قط أن أدس أنفى فيها .. فلابد لكل امرىء من مكان يخفى فيه بعض أسراره .. أو ما يتخيل أنها أسراره .

وانهمكت فى البحث عنه لكى أعثر لها عليه . فقد كانت مغرقة نفسها فى ثورة غضب جامحة .. وأخيرا نظرت صدفة الى الدرج فرأيت المفتاح موضوعا فى ثقبه .. فسحبته منه وناولتها اياه .

وكنت أتوقع أن تبدى بعض الخجل والاعتذار .

ولكنها حدجتنى فى قسوة واندفعت تقول ثائرة :

– انكما تريدان التخلص منى .. انكما متفقان على القضاء علىّ .. ولكن لن تستطيعا فانى لن أخلى لكما الجو قط ..

وكانت التهمة قاسية مجنونة .

وقلت لنفسى ان الحمقاء تهرف بما لا تعى وهى فى ثورة غضب .. وكانت تجربتى معها قد علمتنى أن أتركها تندفع فى صياحها وغضبها حتى تهدأ من تلقاء نفسها .. ولم أحاول أن أستعمل معها الأقراص المنومة لتهدئة ثورتها فى هذا الوقت المبكر .. خشية أن تستيقظ فى منتصف الليل .

وكما توقعت .. سرعان ما ارتمت برأسها على الوسادة .. وأغمضت عينيها .. وسمعتها تقول وقد أكسبت قولها لهجة الاعتذار :

– اذهبا الآن .. أتركانى وحدى .. انى آسفة على كل ما قلت .

واتجه الرجل اليها وأمسك بيدها وقال فى رفق :

- أظن من الخير أن أذهب الليلة .

وفتحت عينيها بسرعة وقالت :

- لا ..لا تغادر الدار .. انتظر ..

وغادر الرجل الحجرة .. ووقفت بجوارها قلقة حائرة وحاولت أن أربت على يدها برفق ، ولكنها دفعت يدى عنها فى غضب قائلة :

- انه ينتظرك فى الصالة .. لم لا تذهبين ؟

وخيل الىَّ أنها تتعمد اثارتى ، فحاولت جهدى أن أظل هادئة .. وسمعتها تهمس فى مرارة ، واخترقت همساتها أذنى كأنها فحيح الأفاعى :

- تذكرى ماقلته .. انى لن أخلى لكما الجو قط .. انى لن أترككما .. تذكرى هذا عندما تضعان خططكما سويا .

وهنا شعرت أنى لم أعد أحتمل .. وأنى ان لم أغادر المكان فستتحطم نفسى ، وتتمزق أعصابى ، وأمسى هالكة .. وانطلقت من الحجرة يهتز جسدى من فرط البكاء .. وفى خارج الحجرة لمحت أمامى شبح الرجل من خلال سيل الدموع المنهمرة من عينى .. فاندفعت رأسا الى ذراعيه .. كما يندفع زورق شردته العاصفة الى أقرب مرفأ يلوح له .

ولم أكن فى حالة تساعدنى على ادارك ما فعلت .. ولا أظنه كان .

فقد كنا أشبه بطفلين مذعورين لفتهما حلكة دامسة فتعلق كلاهما بالآخر .وظللنا برهة لا نحس من حولنا شيئا ولا نسمع صوتا .. اللهم الا دقات قلبينا .

أجل .. لقد كنا فى حالة شرود أذهلنا عن كل شيء .. حتى عن وقع أقدام الأم وهى تصعد الدرج وتقترب منا رويدا رويدا ثم تقف بجوارنا ويصل الينا صوتها يقول فى سخرية مريرة :

- أخشى أن أكون قد أزعجتكما ...

ونزلت علينا كلماتها نزول المطارق والسياط ، ولا أظننى سأنسى قط ذلك السكون المفزع الذى شمل ثلاثتنا بعد ذلك ، وجعلنا نحملق فى بعضنا بعضا ، دون أن يجسر أحدنا على أن ينبس ببنت شفة .. والذى لم يقطعه سوى صياح الفتاة يعلو من داخل الحجرة :

- أماه .. أهذه أنت ياأماه . لقد تركانى وحيدة .

واندفعت الأم بغريزتها الى ابنتها أولا .. وبدا لى من نظرتها أنها ستطمئن على ابنتها ثم تعود لحسابنا .. وخطر لى أن أفر هاربة ، ولكننى لم أجسر ، وتبعتها الى الداخل ، وسمعت الفتاة تقول :

- لقد كانا يتهامسان فى الخارج .. انهما يتآمران علىَّ ، انهما يرغبان فى التخلص منى حتى يخلو لهما الجو .

وكان قولها مخيفا .. ولم أشك وقتذاك أننى من فرط ذعرى كان يبدو على مظهرى كأن قولها كان صحيحا .
وأحسست بعجز تام ازاء التهمة التى نسجتها الظروف حولى ..
وقال الرجل مخاطبا الأم :

- لقد كانت محطمة الأعصاب من أول الأمر .. ويبدو أن الأمور ....

ولكن الأم التفتت اليه وقاطعته فى غضب :

- أظن أن لديها ما يستدعى تحطيم الأعصاب ... خير لك أن تذهب الآن .

ونظر الىَّ ، ولم أكن أجسر على مواجهته ، فأطرقت وأحسست به يغادر الغرفة . ولكن الليلة الليلاء لم تكن قد انتهت بعد .

لقد أخذت أشغل نفسى باصلاح الفراش ، وكسوت وجهى مظهر الهدوء .. وقلت لنفسى انه من الخير أن أنتظر الى الصباح حتى تهدأ الأم ، فأوضح لها المسألة وأضع الأمور فى نصابها .

وذهبت الى الحمام لأحضر الأقراص المنومة وسمعت الفتاة تصيح بأمها :

- افصحى الأقراص جيدا يأماه . فانى أصبحت أخشاها .

ووقفت الأم بجوارى ، وأنا أخرج الأقراص وأريتها الزجاجة مبتسمة ، معتقدة أنها سترد ابتسامتى بمثلها وتعتذر عن هذيان ابنتها .. ولكن لم أر فى وجهها سوى نظرة صارمة قاسية .

وحملت الأقراص وكوبة ماء الى الفتاة .

وتناولت منى الأقراص ، وقبل أن تضعها فى فمها رأيتها تنظر الى مرحة ضاحكة .. مما جعلنى أسائل نفسى عما اذا كانت المسألة كلها لا تعدو أن تكون منها مزحة وفكاهة تحاول أن تسلى بها نفسها .

ولكن .. عندما عدت اليها فى الصباح ، وجدتها ميتة .

كيف ماتت .. انى أؤكد أنى لم أقتلها .. وأؤكد أن الأقراص المنومة التى أعطيتها لها لم يكن بها شيء .. ولم تكن كميتها أكثر ممن تعودت أن تتناولها كل ليلة والتى أوصى بها الطبيب .

وأؤكد كذلك أنها لم تنتحر .. فما كانت تملك أية وسيلة للإنتحار .. وما كانت تستطيع أن تغادر مكانها .

كيف ماتت اذا ؟ هل ماتت موتة طبيعية ؟ ! لا أظن .. فقد رأيت فى عين الطبيب .. وفى أعينهم جميعا ، أن فى الأمر شيئا .. وأنها ماتت متسممة ، فقد كان قلبها سليما .. ولم يكن هناك ما يخشى عليها منه ، فكيف حدث هذا .. أتراني قتلتها ؟ !! .

ان كل ما أستطيع ذكره هو همسها فى اصرار وقسوة :

(اننى لن أخلى لكما الجو .. اننى لن أترككما ؟ . وكان من الواضح أنها تتوقع أنها لو ماتت فان موتها سيبدو نتيجة لخطئى ولقد اضطررت بالفعل أن أجيب على عدة أسئلة حتى أثبت براءتى ، وأقنعهم أنى لست مسئولة عن تسممها .. وأنفى عن نفسى التهمة التى كانت تحلق فوق رأسى .

أما هل اقتنعت أمها بصدق قولى وبراءتى .. فهذا مالا أعلمه ، وان كنت أعتقد أنها موقنة بأننى تسببت فى وفاة ابنتها بطريقة ما .

أو لم ترانى فى أحضان خطيبها فى تلك الليلة ؟

ثم .. كيف تقتنع ببراءتى .. اذا كنت أنا نفسى .. أكاد أوقن أنى قاتلة ؟ ولقد غادرت الدار ، وحاولت أن أنسى المسألة برمتها وأن أعتبرها حلما مروعا . وقلت لنفسى ان الرجل قد خرج من حياتى نهائيا

كأن لم يكن ، ولكن بعد بضعة أيام زارني ذات ليلة فلقد سأل الطبيب عن عنواني فأعطاه له .

طرق الباب .. ففتحت له .. ووجدته يقف أمامي كأنه طفل قد ضل الطريق .

ولم أكن أعلم عنه الكثير ... هل له أبوان ؟ هل له أصدقاء ؟ وهل كان يقف في الحياة وحيدا .. كما بدا في وقفته أمام الباب ، ولم أنبس ببنت شفة ، وأدخلت وأغلقت الباب ودون أن أشعر ارتميت باكية في أحضانه ، وأحسست بشفتيه تتلمسان شفتي كما يتلمس المهجر الصادى قطرات تعيد اليه الحياة وترد الروح .

ولم تبد لي كأنها أول قبلة بل كان يخيل اليَّ أننا زوجان طال بينهما البعد ، ثم التقيا بعد طول فرقة ، ولم يقل أحدنا للآخر شيئا مما كان يعتمل في القلب ، ولكن أحس كل منا أن هناك جدارا معتما يقوم بين أحدنا والآخر . جدارا لن يهيىء لنا سعادة معا . أجل ! لقد كنا نحس أنها هناك . وكنت أسمع همستها طول الوقت : (انني لن أترككما) ولست أشك أنه كان يسمع نفس الهمسات .

ونظر اليَّ ولست أشك أنه قد قرأ في عيني رفض سؤاله الذي لم يفصح عنه ، فقد أعطاني ظهره وغادر البيت في سكون ويأس ، وأخذت أراقبه ، وهو يبتعد كأن شمس غاربة تهوى في أفق حياتي ، وتتركني في ظلمة معتمة .. وبدا لي ظهره ، كما رأيته أول مرة ، على متانته وعرض منكبيه محنيا متهدلا كأنما ينوء بعبء ينقضه ويقوضه .

اني أريده يا سيدي .. ولكني أخشاها فهي تطاردني في كل لحظة لتبين للناس أني قتلتها . هل قتلتها حقا يا سيدي .. أقسم لك أني لم أقتلها ، ولكن من يدرى .. اني خائفة .. اني بريئة .

وصمتت المريضة ، ولمح الطبيب فى وجهها ذلك الشيء الذى كان يثقل كاهل صاحبها وينقض ظهره .. لمح فيه اليأس المميت الذى خلفته الشمس الغاربة التى هوت فى أفق حياتها الى غير عودة .. وغربت الى غير شروق .. لمحت فى وجهها آثار الظلمة المعتمة والحلكة الدامسة . وأخذ الطبيب يهدىء روعها .. ويربت عليها برفق .. حتى راحت فى اغفاءة .



ولم يشك الطبيب فى أن الفتاة ترزح تحت عبء ثقيل من الشك القاتل واليأس المميت .

انها تحس أن المريضة قد راحت ضحيتها ، رغم أنها موقنة أنها قد فعلت من أجلها كل ما تستطيع .. ورغم أنها واثقة من أنها لم تفعل ما يسبب قتلها .. ولكنها حائرة لا تدرى كيف ماتت .

وهى تحب الرجل ، وتشعر أنه يبادلها الحب ، وأن كلاهما فى حاجة الى الآخر .. ولكنها مع ذلك تجد بينه وبينها سدا منيعا وستارا ثقيلا معتما من الخوف المجهول والتهديد المبهم .

أجل ان الفتاة ضحية الشك والخوف واليأس .

هى تظن نفسها قاتلة .. ثم توقن بأنها بريئة .. انها تريد الرجل وتخشى المرأة الميتة .. التى جزمت لها .. أنها لن تتركهما .. ولن تخلى لهما الجو .

ان نفسها مريضة بالإحساس بجرم غير كائن .. انها تتهم نفسها دون أن تستطيع أن تحكم بأنها بريئة أو مجرمة . ان علاجها لا شك كائن فى أمر واحد ، هو أن تعرف كيف ماتت المريضة المدمرة .

أجل ان الطبيب يجب أن يقتنع بأنها بريئة .. ثم يقنعها بعد ذلك بما اقتنع به .



وفى اليوم التالى استطاع أن يعرف الطبيب الذى كان يعالج المريضة وسمع منه القصة فلم تكن تختلف كثيرا عما سمعها أول مرة .. غير أنه أضاف اليها أنه واثق أن المريضة ماتت بالسم . وقد حار فى تعليل وصول السم اليها وان كان يكاد يجزم بأن الممرضة بريئة .

ومضت بضعة أيام تحسنت خلالها جراح المريضة ، ولكنها ظلت تهذى بأنها قاتلة ، وعزم الطبيب أن يصطحبها بنفسه لزيارة بيت الميته الذى كان وقتذاك خاليا مهجورا عسى أن يجد ما يساعده على استجلاء السر .

وتحت جنح الظلام تسلل واياها الى البيت وظل ينتقل من حجرة الى أخرى حتى وصل الى حجرة المريضة . فاذا هى تماما كما وصفتها ، وأصابها الاضطراب .. ولكنه سألها أن تتمالك وأن تصف له ماحدث بالضبط .

وجلست فى الفراش تعيد له ما حدث .

ولاحظ الطبيب درج المضدة الصغير .. فاذا به مازال مغلقا فحطم القفل وفحص ما به .

وأخيرا غادر البيت ، وسارت معه الى المستشفى متعبة .

ورقدت المريضة على فراشها وأمسك الطبيب يدها وأخذ يضغط

عليها وهو يحس بنفسه شعور الذى ينفخ فى رماد ليوقد منه نارا تتوقد ، وجمرا يتأجج .. وقال لها مخلصا :

- ياسيدتى .. هل هناك حقا ما تخشينه ؟ هل يمكن أن يكون تهديد الفتاة قد دفع نفسك شعورا كاذبا بالجرم ؟ ! قد لايكون هذا واضحا فى احساسك الظاهر ، ولكن لا شك أن عقلك الباطن يخشى أن يكون هناك ما يبعث على لومك لموت الفتاة .. ولكنى أؤكد لك .. مما قد سمعته منك .. انك قد فعلت كل ما يمكن لأجلها .. لقد كانت فتاة مدمرة ، ولقد انتهى بها الأمر بأن دمرت نفسها .. انى وجدت هذه الأقراص المنوّمة فى درجها الصغير .. فلا شك أنها كانت تنقص من الأقراص التى كنت تعطينها لها كل يوم قرصا تحتفظ به وتخبئه فى درجها ، ثم تناولتهم فى النهاية مرة واحدة لتقتل نفسها وترمى عليك التهمة .. ما ذنب هذا الرجل الذى تركتيه يضل ويهوى فى ظلمات الحياة .. هل لم تفكرى فى أنه قد حمل العبء ظلما وجورا ؟ .. أبدلا من أن تفكرى فى أن تنصفيه وتلقى عنه العبء تتركينه يرزح تحته وحيدا .. انه فى حاجة اليك .. ألم يكفه ما ناله من عقاب ؟ .. لا أظنك من الحمق بحيث تتركين الفتاة تتلف حياتك وحياته ، وتتيحين لها الفرصة حقا بأن تحول بينك وبينه .. لقد ثوت ، وثوت معها قدرتها على التدمير ، وعلى تحميل الناس اللوعة والأحزان ، فعودى اليه ، ولا تكونى حمقاء .

وجلست الفتاة فى مكانها ساكنة ، واتسعت عيناها محملقة فيه برهة ، ثم بدا له كأن هناك معركة فى صدرها ، ووجد نفسه أخيرا قد انتصر .. اذ تبددت من وجهها السحب ، وسقط من عليها العبء الذى أثقلها ، وبدا له كأن شمسها الغاربة قد أشرقت من جديد ، وكأنها تستقبل فجرا جديدا يحمل فى طياته النور ، والحب ، والأمل .

وأطرق الباب فجأة ، واطل منه وجه حزين يائس مهموم .. وهو وجه الرجل الضال المهجور .. وأخذ يتقدم فى صمت وسكون ، وأمسك بيدها فى رفق ، وقبلها هامسا :

- لقد علمت بما حدث .. هل تسمحين بأن أبقى معك حتى تشفى ؟

ونظرت اليه المريضة نظرة طويلة ملؤها الحب ، وأجابت :

- بل تبقى معى حتى نهاية العمر .. انى لم أعد أخشى شيئا .. فمن الحمق أن نجعل الأموات والأشباح يفسدون حياتنا .

وغادر الطبيب الحجرة فى صمت ، وقد بدت على وجهه فرحة الانتصار .

وبعد بضعة أيام غادرت المريضة المستشفى .. متأبطة ذراع صاحبها ، وقد شاعت فى وجهيهما علامات الأمل .





لقد سنحت الفرصة للفتى .. فحقق له القدر اخيرا أمنية نفسه .. ولقد أقسم الا يتركهـــــا تــــــفلت ..

اشقى : الناس فى هذه الحياة انسان تباينت فيه النفس والجسد .. ان الجسد مطية النفس .. تسوقه للوصول الى بغيتها ونيل مرادها وأمانيها .

واذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

أجل .. وان النفوس الكبار تنهك الأجساد الصغار .. النفوس الكبار ذات الأمانى الكبار .. التى لا يستقر لها قرار .. بل هى أبدا متحفزة متوثبة .. ولو كانت الأجساد قد خلقت لتلائم نفوس أصحابها ، وتفى بمطالبها .. لتضاءلت كمية الشقاء الذى ابتلى به أهل الأرض ، ولقلت نوائبهم ، وأضحوا أسعد حالا مما هم الآن .

وهكذا نجد فى الحياة أناسا جنى عليهم مظهرهم .. ومن هؤلاء

بطلِ قصتنا هذه الذى ما رأيت انسانا مثله تناقض باطنه مع ظاهره ، ونفسه مع شكله ، وروحه مع جسده .

لنبدأ بوصف صاحبنا من حيث الشكل .. ولنبحث عنه فنجده قابعا وراء الواجهة الزجاجية القائمة فى مدخل حانوت أبيه ؟ الحاج ابراهيم الحمصى ، الحلوانى الشامى بشارع عبد العزيز قرب ميدان العتبة .

فاذا توقفنا أمام الحانوت ، وتطلعنا بأبصارنا الى ما وراء الفاترينة .. أبصرنا وجهه يطالعنا من بين زجاجات الشربات ، وعلب المربى ، وصوانى البقلاوة ، والبسبوسة ، وكل واشكر ، وحروف اللافتة التى نقشت على زجاج الفاترينة ، وقد كتب بها : (وما توفيقى الا باللّه) .

ولا نكاد نجد هناك تناقضا كبيرا بين الوجه ، وبين بقية الأشياء المحيطة به : من صوانى ، وزجاجات ، وبرطمانات .. فهو من نفس العينة .. مستديرة أبيض .. ممتلىء متورد .. فى عينيه الملونتين شرود دائم وسرحان مستمر .. وفى حمرة خديه ، وأنفه ، وجبينه الضيق ، والشعر المتكاثف حوله .. دليل ناطق على الغباء ، والبلاهة ، وضيق العقل ، وقلة التصرف .. أما ذقنه الضيق الداخل المحفور عليه طابع الحسن ، ولغده المتدلى أسفله .. فيؤكدان التخاذل ، وضعف الإرادة ، والاستكانة .. وصاحبنا محمود الحمصى لا يزيد فى العمر على العشرين عاما .. وقد أدخله أبوه مدرسة الليسيه بالخرنفش .. ثم أخرجه منها فى النهاية رغبة منه فى أن يتدرب على ادارة الحانوت والعمل فيه .. حتى يخلفه (بعد عمر طويل) .

فاذا ما تجاوزنا وجه الفتى القابع خلف الفاترينة .. الى جسده السمين المترهل .. وجدنا فيه .. خير جسد .. يناسب الوجه الأبله الغبى .. الأحمر الأنف .. الضيق الجبين .

ويجلس محمود فى مكانه طيلة اليوم .. فاذا تحرك وجدناه فى مشيته خيرا من قعدته ، ووجدنا أطرافه كأنها ليست منه .. يطوح بها فى كل اتجاه عدا الاتجاه الذى يسير فيه .. وعلى ذلك .. فقد كان يجب ألا يكون هناك موضوع لذلك التناقض الذى ذكرته فى مبدأ القصة .. والذى قلت أنه قد جنى على صاحبنا وأورده موارد العطب .. وكان يجب أن يكون الفتى قانعا بشكله .. وان يفى جسده السمين المترهل بحاجة نفسه المتواضعة البسيطة .. نفس ابن الحلوانى .. الغريق .. فى القشدة ، والعسل ، والكريم شانتيه .

ولكن نفس صاحبنا كانت أصل الداء ، ومنبع العلة .. كانت نفسا مرهفة .. حساسة .. شاعرة .. فنانة .. نفسا بينها وبين الجسد السمين ، والوجه المتورد ، والأنف الأحمر ، وطابع الحسن .. هوة سحيقة من التناقض والتباين .. نفسا يلائمها غير هذا الجسد .. جسد رقيق نحيل ، ووجه حاد التقاطيع ، ونظرت متوقدة مشتعلة .

كانت نفس الفتى الفنان تنوء بحمل جسدها ، وكان أكثر ما يشغله وقتذاك ، ويسلب لبه .. رغبة جارفة فى العمل بالتمثيل المسرحى .. ولم يكن هناك شك فى أنه آخر من يصلح للتمثيل على وجه الأرض .. ومع ذلك فقد كان من العبث أن يخمد فى نفسه تلك الرغبة المتوقدة ، والحنين العجيب الى خشبة المسرح .. وكانت أجمل اوقاته تلك التى كان يقضيها فى مسرح الأزبكية مستغرقا بكليته فى مشاهدة التمثيليات .. وكان مثله الأعلى حينذاك أحد كبار الممثلين الذى كان يقوم بتمثيل الأدوار الأولى فى فرقة التمثيل المصرى التى كانت تعمل فى دار التمثيل العربى .

وحدث ذات ليلة عندما كانت تعرض احدى المسرحيات الشهيرة

أن جلس الفتى فى مقعده يرقب التمثيل مشدوها الى أن انتهى الممثل الكبير من تأدية دوره .. فاذا بالفتى يقفز من مقعده بجسده السمين وينهمك فى التصفيق والصياح والتلويح للممثل .. وأخذ جمهور المشاهدين ينظر الى الفتى المتحمس وضجوا بالضحك .. وأفاق الفتى لنفسه ، وأصابه خجل شديد ، وانكمش في مقعده .. ولكن الستار رفع بعد لحظة .. ووقف الممثل الكبير يشير للفتى بتحية خاصة .

وفعلت التحية في نفس صاحبنا فعل السحر .. وذهب الى البيت ، وقد ملأه الحماس ، وأفعمه الطرب .. كأنه قد أحرز نصرا مبينا .

كيف لا .. وقد خصه الممثل النابغة ، والبطل العبقرى .. بتحيته وحده .. دون سائر الجماهير .. ومرت بضعة أيام ، وقد اشتد به شرود الذهن ، وبدا كأنه يعانى صراعا خفيا ، وثورة مكبوتة .. أو كأنه مقدم علي أمر جلل ، ومسألة خطيرة .. حتى استقر به الرأى أخيرا على أن يطلق نفسه الحبيسة في جسده ، وأن يفك أسرها ، ويتركها حرة تفعل ما تشاء ، وليكن ما يكون .

وذهب الفتى فى المساء الى المسرح ، وقد نوى فى نفسه أمرا .. وجلس يرقب التمثيل حتى نهايته .. ولم يكد يسدل الستار حتى أخذ طريقة الى الباب الخلفى للمسرح .. حيث الإدارة ، وغرف الممثلين ، والممثلات .. ودلف من الباب بجسده الضخم السمين المترهل ، وأطرافه المتراخية ، وقد تملكته خشية ورهبة .. وتوقف فى المدخل الضيق الذى وضعت به أريكة متداعية ، وبضعة مقاعد قديمة .. ومكتب صغير جلس وراءه عجوز تدلى منظاره على أرنبة أنفه ، ووضع طربوشه فى مؤخرة رأسه .. وبدا منهمكا فى مراجعة أرقام مدرجة فى دفتر أمامه .

ووقف محمود أمام الرجل حائرا مترددا ، ثم تجرأ أخيرا وسأله فى رفق عما اذا كان يستطيع مقابلة الأستاذ ثروت .

ورفع الرجل رأسه . ونظر اليه من وراء عويناته نظرة فاحصة ، ثم سأله عما بدر منه .

ومضت برهة .. قبل أن يجيب الفتى فى صوت خجول متردد :

– أريد .. أريد أن أعمل بالتمثيل .. أريد أن ألتحق بالفرقة .

ولم يستطيع العجوز أن يخفى ابتسامة السخرية والدهشة التى علت وجهه ، وهز رأسه قائلا .. الأستاذ ثروت لا يستطيع مقابلة أحد .. فهو يستعد لحفلة السواريه .

– ولكنى لن أشغل من وقته أكثر من بضع دقائق .

ولم يجبه .. بل أطرق برأسه مستغرقا فى مراجعة الأرقام التى أمامه ، وأحس الفتى بمرارة الخيبة وألم الخذلان ، ولكنه كان قد صمم على الوصول الى غرضه وتحقيق أمانيه .. فترك العجوز ، وذهب الى الأريكة فاستقر عليها .. ووصلت قرقعة الأريكة المتداعية تحت الجسد الضخم السمين الى أذنى العجوز .. فرفع بصره ، ورمق الفتى بنظرة دهش متسائلة .

واحمر وجه الفتى خجلا ثم قال فى صوت خفيض :

– هل أستطيع أن أنتظره حتى ينتهى من حفلة السواريه ؟

وهز العجوز رأسه متعجبا ، وقال فى لهجة زاجرة :

– قلت لك أنه لن يستطيع مقابلة أحد .. لا الآن .. ولا بعد السواريه .

ونهض الفتى من الأريكة ، وتقدم الى الرجل متوسلا وهو يقول :

- ولكن ....

ولم يكمل الفتى حديثه .. بل وقفت الكلمات حائرة على شفتيه عندما أبصر ممثلة الفرقة الأولى .. تدخل فجأة من بال قريب وتقترب من العجوز قائلة :

- ياعم على هل أستطيع أن أجد معك خمسة جنيهات ؟ ولم يجبها عم على .. بل عاد يوجه القول الى محمود فى لهجة أشد :

- خير لك أن تنصرف .. فهو لن يقابلك .

وهزت الممثلة فاطمة محمود رأسها مستفسرة من العجوز عن جلية الأمر .. فهز رأسه ، وقال فى سخرية :

- يريد أن يلتحق بالفرقة ليعمل ممثلا .

ونظرت المرأة الى صاحبنا نظرة فاحصة ، ووقف هو أمامها كالتلميذ الأبله ، وقد أضحى وجهه كالجزرة .. ثم اقتربت منه ، وسألته فى رفق :

- أحقا تريد أن تعمل ممثلا ؟

وهز الفتى رأسه بالإيجاب .. فعادت تسأل :

- وماذا تعمل الآن ؟

- فى حانوت أبى .. الحاج حمصى الحلوانى .

- أنت ابن الحاج حمصى ؟ .. وتريد أن تترك أباك لتعمل بالتمثيل ؟ تريد أن تستبدل بالنعمة [illegible] ، وبالاستقرار تشردا ، وبالسعة ضيقا ، وبالراحة شقاء وعناء .. [illegible] وللتمثيل ، وبؤسه ، وذلته .. أو قد

خدعتك مظاهره البراقة الخداعة فظننت الممثل يعيش حياته كما يعيشها بالمسرح ؟ لا .. لا .. خذها منى نصيحة مجربة .. اياك والتمثيل .. انك تصلح لأى شىء عدا التمثيل .

ولم يسمع الفتى بقية حديثها الذى ملأه مرارة ويأسا فقد قطع حديثها صوت كان الفتى يعرفه خير معرفة .. يقول متسائلا :

- ما الأمر ؟ من هو هذا الذى يصلح لأى شىء عدا التمثيل ؟

ولم ينبس الفتى ببنت شفة .. بل اندفع الى صاحب الصوت وانحنى على يده يوسعها لثما .. لقد كان هو نفسه .. الممثل الكبير .. بدمه ولحمه .

ووقف محمود أمام الرجل العبقرى ، وتلاحقت أنفاسه وأنبأه فى صوت متقطع أنه جاء لمقابلته لأنه يريد أن يعمل بالتمثيل ، ولكنهم منعوه من ذلك ، وأنبأوه أنه لا يصلح للتمثيل .

وكتم الممثل الكبيرضحكة كادت تنطلق من صدره ، وأجاب :

- كيف يفعلون ذلك !! من هذا الغبى الذى قال انك لا تصلح للتمثيل ؟ .. دعنى أفحصك جيدا .. قف هناك بجوار الحائط .. ضع يدك فى خصرك .. انحن قليلا .. تمش أمامى .. أجل .. هكذا .. برافو .. ان لك مستقبلا عظيما .

ونظرت الممثلة اليه حانقة من هذا العبث بالفتى الأبله ، وقالت ناهرة :

- حرام عليك .. انك تجنى عليه بهزلك هذا .

وأجاب الممثل فى لهجة عناد واصرار :

– ليس هذا شأنك .. لا تصغ الى كلامها يابنى .. ان لك مستقبلا عظيما فى التمثيل .. انى على أتم استعداد لقبولك فى فرقتنا .

وليتصور أى انسان مبلغ وقع هذا القول فى نفس الفتى .. هذا القول الذى لم يقصد به الممثل الكبير سوى المزاح .

لقد أصبح الفتى منذ تلك الليلة .. موظفا فى فرقة التمثيل ، وترك الحانوت ، وهجر البيت ، وكاد أبوه يجن ، وخيل اليه أن الفتى الغر واقع تحت تأثير ممثلة الفرقة ، وأنه عاشق لها ، وأنه لم يلتحق بالفرقة الا من أجلها .. فذهب اليها ذات يوم وسألها أن ترحم الفتى وتكف عنه ، وحاول اغراؤها بالنقود .. فدهشت الممثلة وأنبأته بجلية الأمر ، وأنها كانت أول من حذره ولكنه لم يرتدع .

وعبثا حاول الرجل أن يعيد اليه ابنه ، وأن يثنيه عن عزمه .

ومرت الأيام بالفتى وهو يفعل كل شىء فى الفرقة .. عدا التمثيل .. لقد كان أشبه بخادم خاص للمثل الكبير .

وكان الفتى موضع سخرية من الجميع .. الا مخلوقا واحدا هو الذى يحس له بعطف شديد ، ويكره أن يراه يؤدى الأعمال التافهة الحقيرة ، ويحز فى نفسه أن يراه قد انزلق حتى صار مجرد خادم لإنسان يستحق أن يكون سيده .. ولم يكن هذا المخلوق سوى الممثلة الأولى بالفرقة .. فاطمة محمود . وكان الفتى يحس منها هذا العطف فيلجأ اليها ليبثها أحزانه عندما تفيض به الأحزان وليسألها متى يظهر على خشبة المسرح .. ولم يكن هناك انسان يشك فى أن الفتى .. لن يظهر على خشبة المسرح .. الا الفتى نفسه .. الذى أقسم ليحقق لنفسه أملها مهما طال بها الحرمان .

وسنحت الفرصة أخيرا .. فرصة عجيبة .. أتاحتها له الأقدار .. فأقدم على استغلالها غير عابىء بشىء .

كان ذلك ذات مساء والفرقة تمثل احدى الروايات التى يظهر فى نهايتها حريق .. ويقف الممثل يلقى خاتمة الرواية ، وقد أحاطه اللهب والدخان .. وتسدل الستار والممثل يلفظ آخر أنفاسه وسط الحريق .

وكان المخرج يظهر الحريق بأضواء حمراء ، تبدو من خلال النوافذ والابواب فى المناظر المشيدة على خشبة المسرح .. وبدخان يسرى منها فيتكاثف على المسرح .. ويبدو خلاله شبح الممثل وهو يلقى آخر أقواله .. واقتربت الرواية من نهايتها .. وبدا منظر الحريق .. وبدأ الممثل يلقى أقواله .. عندما أحس بحرارة تلفح وجهه .. وبداله ان هناك ألسنة لهيب تتراقص وراء المسرح .

وأدرك الممثل ان هناك حريقا حقيقيا ، واندفع وسط الدخان فارا من المسرح .. وساد الصمت برهة ، والجمهور لا يسمع صوتا .. ولكن لم تمض لحظة قصيرة حتى أبصر بشبح الممثل مرة أخرى وهو يتخبط بين الدخان ، وسمع صوت متهدج يلقى بخاتمة الرواية .. وفغرت الأفواه وحملقت الأعين .. فما شاهدوا فى حياتهم تمثيلا أقوى ، ولا أبدع مما يشاهدون .

ولم تكن دهشة الجمهور بأقل من دهشة الممثل نفسه الذى فر من الحريق ، ووقف متسمرا بأحد الأبواب عندما وصل اليه الصوت من المسرح وهو يلقى خاتمة الرواية . ومرت برهة والممثل ينصت مأخوذا مشدوها .. وفجأة بدت له الحقيقة فانطلق صوته مدويا :

أخرجوا هذا الأحمق ، أنجوا بأنفسكم ، ان الحريق حقيقى .

وذهل الجمهور .. ولم تمض برهة حتى اندفع الناس فى صخب وضجيج متكأكئين أمام الأبواب يبغون الهرب . واستمر الصوت على خشبة المسرح يلقى خاتمة الرواية . ولقد سنحت الفرصة للفتى .. فحقق القدر له أخيرا أمنية نفسه .. ولقد أقسم ألا يتركها تفلت .

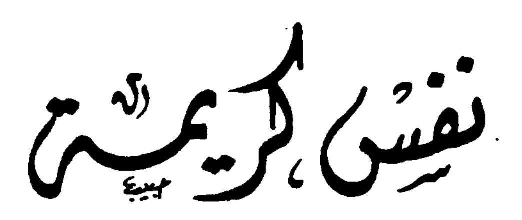
وانطلق الجميع هاربين من المسرح غير عابئين بالفتى الأحمق الذى يمثل بين اللهب والدخان .. لقد تركوه جميعا .. عدا قلب طالما حن اليه .. وأحاطه بعطفه وحنانه فاندفع فى اللحظة العصيبة يحاول أن يجره جرا الى خارج المسرح . وحوى المسرح المتلهب شبحين : محمود منهمكا فى التمثيل ، وفاطمة تدفعه بكل ما لديها من قوة لتنجيه من اللهب .

وبعد شهر من الحادث أصلح المسرح وعاد كل شيء فى الفرقة الى ما كان عليه .. ولم يتغير بها شيء سوى أنها نقصت فردين .. محمود ، وفاطمة فقد استقر جسدها المحترق فى قرافة الإمام .. وأما محمود فقد عاد جسده المترهل السمين الذى تبدو به آثار الحروق ليستقر وراء الوجهة الزجاجية بين صوانى البقلاوة والبسبوسة وزجاجات الشربات وبرطمانات المربى .

ان نظرته الشاردة الذاهلة قد بدا فيها حزن عميق ولوعة دفينة ، لقد حقق الفتى أمنية نفسه ولكنه فقد نصف نفسه بل كل نفسه .

ويحه .. انه ما ظن قط أنه يحبها الا بعد أن فقدها ..





لقد طهر الحب نفسى وعلمنى شيئا لم أكن أومن به .. وهو أن الإنسان قد يضحى من أجل غيره راضيا مسرورا .

لم يكن :لدى كثير شك فيما تنوى هدى هانم زوجة صديقى الدكتور عمر عبد الوهاب أن تسر الى به عندما طلبتني فى مكتبى صباحا ورجتنى أن أزورها فى أقرب فرصة ، لأنها فى حاجة شديدة لمقابلتى .

كانت تتحدث فى لهجة عصبية يشوبها حزن عميق ، وبدا لى أنها تبذل جهدا كبيرا حتى لا تندفع فى البكاء .. ولست أشك فى أنها قد بكت فعلا بمجرد أن وضعت سماعة التليفون .. فلقد كان فى صوتها ثورة مكبوتة وألم دفين .

وقصدت الى دارها ، وقد تملكنى مزيج من الحيرة والضيق .. فقد كنت أكره التدخل بين صاحبى وزوجته .. وكنت أعلم سلفا ما تنوى السيدة أن تقوله .. وأعرف تماما مصدر الداء وأصل العلة .. ولكنى متأكد أنها مستفحلة لا دواء لها ولا شفاء .

ما أعجب هذا الإنسان .. ان صاحبى رجل عاقل . كامل فى كل شىء .. لا عيب به ولا هنة .. رزين متئد .. متين الخلق ، قوى الإرادة .. ليس من ذلك النوع المتهافت على الملذات ، السهل الانحراف عن جادة الصواب .. السريع الانزلاق الى هاوية الخطيئة ، بل كان مثلا للزوج والأب ، محبا لزوجته ومحبا لبنيه ... يؤدى ما عليه من واجبات نحوهم .

كان الرجل ، كما قلت ، رجلا نموذجيا .. لا عيب به ولا خطيئة .. اللهم الا عيبا واحدا ، هو الذى كان يشينه .. ويثير من حوله اللغط والأقاويل ، وهو علاقته بتلك المرأة الخاطئة ذات الماضى الملوث المشين .

ولا شك أن قولى هذا سيقابل بالدهشة .. فيتهمنى الناس بالسخف ويقولون : ماذا تريد من زوج وأب أسوأ من أن يكون على علاقة بامرأة خاطئة .. وماذا تريد أن يكون به من الهنات والعيوب أكثر من هذا ؟ وكيف يكون انسان متصفا فى نظرك بكل المزايا والصفات التى سردتها .. ؟ ثم لا يستطيع أن يردع نفسه عن شر ما يرتكبه زوج وأب ؟

ولا أكذبكم .. فانى أنا نفسى لم يكن يحيرنى شىء كهذا السؤال .. لأنى أعرف صديقى خير المعرفة كما أعرف نفسى ، وأستطيع أن أقسم غير حانث أنه متين الخلق ، مستقيما فى كل ناحية .. اللهم الا تلك الناحية الخاصة بعلاقته بالمرأة الخاطئة .. فقد كانت ناحية محيرة .. غير مفهومة .

ولشد ما أعيانى البحث عن مبررات لها أو دوافع .. فالرجل لم يكن ضعيف النفس أو سريع الانزلاق ، ولو فرضنا أنه غير ذلك ، فلم

تكن المرأة نفسها مغرية ولا فتانة ، ولا كانت من الصبا والجمال .. بحيث يطيش من أجلها عقل ، أو تزل فى سبيلها نفس .. بل كانت أشبه شىء بعاهرة متقاعدة ، أو فاجرة تائبة .. أدبر عنها شيطان الصبا والسحر والفجور ، وخلف عنها نفسا مجهدة وجسدا منهكا مكدودا .. فماذا كان اذا يغرى صاحبى بها ويشده اليها ؟ والمثل يقول : (ان ركبت .. اركب جمل) .

ولقد أثارت علاقته بالمرأة الغبار حوله ، ولم يعد أمرها يخفى على أحد بل لاكتها الألسن ومضغتها الأفواه ، وهو لا يهتم ولا يتأثر .. كأن الأمر لا يعنيه ، أو كأنه لا يرتكب أمرا ادًا ولا فعلا نكرا .. أو كأن علاقته بالمرأة شيئا لا يشينه بل هو فرض واجب عليه !

ولست أشك أن رشاش الأقاويل قد أصاب مسامع زوجته وأن صرح الزوجية قد أصيب بتصديع شديد ، وأنْ الرجل - اذاأصر على هذه العلاقة - فلا شك أنه سيقوض بيته بيده .

وحاولت أكثر من مرة أن اتدخل فى الموضوع ، وأن أسوق النصح لصاحبى .. لا لأننى أرجح منه عقلا أو أوفر حكمة .. بل لأننى أرى المرأة لا تستحق أبدا أن يهدم من أجلها بيت ، ولا حتى (عشة) .

ولكن صاحبى لم يسمع النصح .. بل كان يصدنى برفق فى كل مرة أحاول أن أخاطبه فيها ويسوقنى الى موضوع آخر ، وفى ذات مرة أثقلت عليه فأنبأنى صراحة أنه لا يود منى ولا من أى انسان أن يتدخل فى هذا الموضوع بتاتا .. لأنه خاص به وحده ، وهو ليس بالطفل الصغير أو الشاب الطائش .. حتى أفهمه ما يجب عليه ومالا يجب .

ومن ذلك اليوم لم أحاول قط أن أطرق الموضوع ثانية ، حتى كان ذلك اليوم الذى طلبتنى فيه زوجته .. فلم أشك منذ أن سمعت صوتها الحزين ولهجتها المريرة فى حقيقة ما تنوى أن تقوله . لقد كانت تريد أن تستعين بى على هداية زوجها .

ولقيتها .. فوجدتها كما توقعت .. محطمة مهدمة .. بعينها حمرة بكاء وبوجهها شحوب وسهد ، وساقت الىَّ شكواها - التى أعرفها خير معرفة - فى صوت مرير ملىء بالألم .. وقالت لى انها لا تدرى ماذا تفعل ، فقد تحطمت كبرياؤها أمام الناس وذلت نفسها ، وشمت فيها الأصدقاء قبل الأعداء . ومن أجل من ؟ من أجل امرأة عاهر فى سن أمها .

وملأتنى الشفقة عليها والرثاء لها . واحسست بالحنق على صاحبى .. هذا المجنون الذى يحطم زوجته الفتية الجميلة ، من أجل تلك المرأة الذاوية الذابلة ، والذى يقوِّض سعادة بيته بلا سبب ولا مبرر .

وحاولت تهدئتها والتخفيف عنها ، ووعدتها - مخلصا - أنى لابد فاعل شيئا .. وطلبت منها أن تعتمد على اللّه وعلىّ . وصممت على أن أنزع الرجل من المرأة وأقطع ما بينهما بأية وسيلة .

وخلوت الى نفسى أدبر الأمر .. وأقدر الموقف .. وكنت أعرف أن من العبث أن أجد حلا من ناحية صاحبى فلم يبق أمامى الا أن أجد حلا عند المرأة نفسها .

وهكذا استقر عزمى على أن أذهب لزيارة - المرأة دون أن يعلم صاحبى - وأن أحاول أن أستغل فيه بقية من فضيلة أو أثرا للخير ..

فأشرح لها ذلك الألم الذى تسببه للزوجة التعسة ، والخراب الذى توشك أن تسوقه الى الدار الهادئة ، وأسترحمها ، وأستعطفها ان لم يكن من أجل الزوجة فمن أجل الرجل نفسه الذى ستدمر بيته وتقوض دعائم هناءته .

وكنت أعلم أن مهمتى لن تكون بالسهلة الهينة .. فمثل ذلك النوع من النساء أنانى متحجر لا يرحم ولا يتأثر ، ولا يفهم قيمة الحياة الزوجية .. ولا يقبل النصيحة ، ولكن قلت لنفسى لأجرب .. فمن يدرى .. ربما كان لديها بقية من احساس .. فترق وتعطف ، واذا لم أفلح فلأجرب معها وسيلة أخرى .. أغريها بالمال ، أو بأى شىء آخر من الغزل ، أو بالمديح .

وقصدت الى دارها صباح ذات يوم .. حتى أضمن أن يكون صاحبى فى عمله .. وطرقت الباب ، وقادتنى الخادم الى حجرة الاستقبال ، وبعد لحظات أقبلت علىّ المرأة مرحبة وكانت من نوع لطيف المعشر جذاب الحديث .. فسرعان ما ارتفعت الكلفة بيننا وأقبلنا نتحادث كصديقين حميمين .

تأملتها عن كثب فوجدت بها بقية من جمال زائل .. ينم عنه بياض البشرة ونقاؤها ، واتساع العينين وأثر من سحر قديم بهما .. ولكن تلك البقية من الجمال الزائل .. لم تكن مبررا قط لأن تجعل رجل يقع فى هواها ، ولقد كانت المرأة بتجاعيد وجهها وترهل جسدها ، تصلح لأن تكون أما .. لا رفيقة ولا خلية .

ومضت فترة ونحن نتحدث عن الجو وعن السياسة وعن الأفلام ، ولم تكن المرأة من السذاجة حتى تعتقد أنى زرتها للكلام فى هذه

التوافه .. فلم تكد الخادم تضع صينية القهوة وتنصرف حتى وجدتها تهز رأسها متسائلة وتقول :

- نعم ؟ ماالأمر ؟

وصمت برهة قبل أن أجيب ، وأخذت أجمع شتات أفكارى .. وشوارد ذهنى .. كأنى محام على وشك أن يبدأ دفاعه فى قضية كبرى ، ولقد كنت فى الواقع كذلك .. وان كانت قضيتى أشد تعقدا فلقد كان القاضى فيها هو الجانى . وكنت أحاول أن أقنعه بأن يفصل فى جناية نفسه .

وبدأت الحديث ، واسهبت فيه وأفضت .. وأخذت أتكلم فى لهجة مؤثرة مقنعة . فلقد كنت أتكلم من قلبى وبوحى مشاعرى التى أرهفتها الزوجة المسكينة .

ومضى الوقت وأنا مغرق فى الحديث .. والمرأة مطرقة برأسها .. وقد بدا عليها تأثر شديد ملأنى أملا فى أقناعها وزاد من قوة حجتى .. حتى أفرغت كل ما فى جعبتى من وسائل التأثير والإقناع .

وانتهيت من الحديث ومن الرجاء والتوسل والاستعطاف والاسترحام ، ومرت بنا بعد ذلك فترة صمت عميق أخذت أتأمل فيها المرأة وقد تشابكت يداها فى حجرها وأطرقت برأسها وأخذت تحملق بعينها فى شرود شديد .

وأخيرا رفعت الىّ بصرها فلمحت فى عينيها بريق دمع يوشك أن ينهمر ، ولكنها جاهدت حتى حبسته وبدأت تقول فى صوت هادىء :

- انى مقتنعة بكل ما قلت ، ولا أظن بى أقل رغبة فى أن أحطم سعادته أو أدمر هناءته ، وليس هناك ما يشقينى أكثر من شقائه أو شقاء

زوجته ، ولا شك أنى على استعداد لأن أفعل كل ما تشير علىَّ به بلا مناقشة .

ولقد أذهلنى قولها ، ورقص قلبى طربا ، فما كنت أتوقع لنفسى مثل هذا الانتصار السريع الحاسم ، وهممت بأن أسوق اليها ما تستحقه من آيات الشكر والتقدير والإكبار .. ولكنى وجدتها تردف قائلة :

- كل ما أرجوه منك هو أن تنصت الىَّ برهة كما أنصت اليك ، وأن تسمع منى قصة موجزة .. ثم أشر علىَّ بما تريد .. ومرنى بما تود أن أفعله .. فلن تجد منى سوى السمع والطاعة .

وساد بيننا الصمت فترة قصيرة ، واتكأت المرأة بظهرها على الأريكة التى تجلس عليها ، ورأيت بصرها قد سبح من النافذة الى الأفق البعيد وقالت :

- بدأت القصة منذ عشرين عاما ، وكنت وقتذاك فى أوج مجدى .. مكتملة الأنوثة ، فياضة السحر .. أعبث بالقلوب وبالجيوب .. كنت أكثر الراقصات عشاقا ، وأروجهن بضاعة ، وأوسعهن شهرة ، ذات جاه وسلطان ، فقد كان لى عشاق من كبار القوم .

وحدث ذات ليلة عقب أن انتهيت من الرقص فى المسرح الذى أعمل به أن طرق حجرتى فتى غر حديث لا يكاد يبلغ العشرين من عمره وتقدم الىَّ فى خجل بباقة أزهار وأسر الىَّ باعجابه فى حديث متلعثم .

ولم يشغل الفتى من رأسى وقتذاك الا ثوانى معدودات ، فقد كان واحدا من مئات سواه من أولئك الصبية الأحداث الذين يتلهفون علىَّ ويتشوقون الىَّ ، ولم أحاول أنا أن أضيع وقتى معهم .. فقد كانوا لا

يملكون سوى العواطف الملتهبة والمشاعر المتأججة ، قلوبهم ملأى وجيوبهم فارغة خاوية ، ولم تكن تهمنى القلوب وما حوت فى قليل ولا كثير .. بل كانت الجيوب هى كل بغيتى وقتذاك .. لقد كنت امرأة عملية .

ومرت الأيام والفتى الصغير يواظب على الحضور الى المسرح والتطلع الّى ، ويقدم الّى من آن لآخر .. باقة أزهاره المتواضعة .. وكلمات اعجابه الخجلة المتلعثمة ، ثابر على الحضور ، وظللت أنا على اهمالى له .. حتى بدأت أحس بالخجل من نفسى .. وبدأت أمنحه شيئا من العطف والاهتمام .

وتحدثت معه ذات مرة . فعلمت – كما كنت أتوقع – أنه مازال تلميذا ، وتبين لى مما رأيته من تصرفاته وحركاته أنه مولع بى كل الولع وأنه صبى عاشق ، ولقد أثار حبه ضحكى .. فماكنت أنا المرأة المحنكة المجربة .. التى تعبث بالقلوب الكبار .. أتصور أن أكون عشيقة تلميذ وأن أضيع وقتى فى (تغريده) .

ولكن الليالى ، ياسيدى ، كما يقولون .. تلدن كل عجيبة ، وما أظنها قد وضعت مولودا أعجب من حبى للفتى الصغير .

لقد أحببت الفتى .. لا لأنى وجدت به شيئا يحب بل لأنه أصر على حبى ، وظل يحبنى ويحبنى .. حتى وجدتنى لا أملك الا أن أحبه .

ولقد ضرب لى مثلا .. أن كل بغية فى هذه الحياة يمكن الوصول اليها .. بالمثابرة وبالصبر والإخلاص .. وأنه لابد (لمد من القرع للأبواب أن يلج) .

ولا شك أن الناس قد أدهشتهم وقتذاك أن أتخذ لى عشيقا من التلاميذ .. وأنى كنت موضع سخرية من صاحباتى وزميلاتى .. ولكنى

لم ألق بالا لأحد . واندفعت من الفتى فى حب جارف عنيف يغذيه من مشاعره المتأججة .. التى لم تعرف هذا النوع من الحب .

وسمع أهل الفتى بما انساق اليه ابنهم فثارت ثائرتهم .. وهاجموا وماجوا ، وهددوه بالطرد وبكل ما يخطر ببالهم من وسائل التهديد .. ولكن الفتى أصم أذنيه عن كل ما يقال له ، فلقد تيّمه الهوى . فلم يعد يرى في هذه الحياة سواى .

وكنت أنا أمرأة أنانية .. أو قل ان الهوى قد ضلنى كما أضله .. فلم أحاول أن أردعه .. ولا فكرت فيما يمكن أن يصيبه من ضرر .. بل تضاممت وتعاميت .. حتى كان ذات يوم فصلته المدرسة .. وطرده أهله ، وأقسم أبوه ايمانا مغلظة ألا يدخل بيته أبدا .. بعد أن يئس من اصلاح أمره وبعد أن سببه لهم - وهم القوم المحافظون - تلك الفضيحة الكبرى ، ووصمهم بوصمة العار .

وأقبل على مطأطىء الهامة .. مطرق الرأس .. وأنبأنى بما حدث .

وقال لى : ما من شيء سيثنيه عن حبه .. ولو تبرأ منه الناس جميعا ، وأنه سيحاول أن يكسب عيشه بعرق جبينه .. حتى لا يكون فى حاجة الى أهله .

ولقد بكيت يومذاك .. لأنى أحسست بمدى الجرم الذى ارتكبته باضاعتى مستقبل هذا الشاب ، وزاد من حزنى ذلك الإخلاص المفرط الذى تبينته فى نفسه والذى علمنى ان فى هذه الحياة أشياء غير الأنانية والمصلحة .

ولأول مرة خرجت عن أنانيتى .. وجعلت حبى للفتى يتغلب على حبى لنفسى ، فطلبت منه أن يعود لأهله ولمدرسته ولكنه لم يستمع الىَّ .

حاولت طرده .. وقسوت عليه وأعرضت عنه - وأنا كارهة لما أفعل ولكن بلا جدوى . فلقد جاء كل ذلك متأخرا .. وأنبأنى الفتى أننى لو هجرته فلن يعود لأهله ، بل سيهيم على وجهه أو يقتل نفسه .

وهكذا ترى أنى فعلت كل ما يجب أن تفعله أية امرأة عاقلة شريفة ، رغم أنى كنت أحب الفتى حبا جنونيا ، وأنه لم يكن هناك أقسى على نفسى من فرقته .

انى أمرأة من بنات الهوى ، ولا شك أنك لا تتوقع من بنات الهوى الا كل شر وفجر وخديعة .. ولست ألومك على ظنك هذا .. لأن ما نلقاه من صروف الزمن ، وقسوة المحن .. وما نصادفه من لؤم البشر وخستهم .. يجعل قلوبنا متحجرة ، ويجعلنا نكفر بكل ما يسمونه الخلق الفاضل .

ولم أكن أنا لأزيد عن واحدة منهن حتى أحببت !

ان الحب يفعل العجائب والمتناقضات ، ويأتى بخوارق المعجزات .. ومهما قيل لك عن فعل الحب فصدقه .. لأنى جربت فعله .

لقد طهر الحب نفسى .. وعلمنى شيئا لم أكن أصدقه وهو أن الإنسان قد يضحى من أجل غيره راضيا مسرورا .

تطور حبى للفتى فأضحى حبا ساميا طاهرا .. لقد أحسست أن الفتى ضحى من أجلى بكل شيء .. أنا الملوثة التى تتجر بالقلوب .. ووجدت أنه يعكس علىَّ من أضواء قلبه ما يجعلنى له مثلا أعلى ونموذجا بين النساء .

لقد تملكتنى وقتذاك رغبة واحدة .. هى أن أعيد الى الفتى مستقبله الذى أفقدته اياه ، وأن أجعله خير الرجال .

أجل ياسيدى .. لقد تطور حبى له فأصبح أشبه بحب أم لابنها .. لاتبغى من دنياها سوى رعايته ، والعناية به .

وكانت النقود متوفرة لدىَّ ... واستطعت بعد ذلك أن أقنعه بأن يقبل منى الصرف عليه ، على أن يعتبر كل ما أعطيه له دينا يسدده عندما يتخرج ويصبح رجلا ذا شأن .

ومرَّت الأيام والسنون .. وهو يجد فى دراسته .. ولم أبخل عليه بشىء حتى بعثته الى الخارج لإتمام دراسته .

وأخيرا عاد الىَّ .. عاد الى أنا .. لا الى أهله .. فلقد كان يرانى كل شىء له فى هذه الحياة .. عاد الىَّ كأكمل ما يكون الرجل .. ورغب أن يفى لى بدينه .. فسألنى الزواج .

ولقد أكبرت فيه اخلاصه ، ووجدت من مجرد سؤاله الزواج خير وفاء بالدين ، وخير اعتراف بالجميل .

ولكنى لم أكن فى حاجة الى الدَّين .. فقد كنت أعلم أن السداد سيكلفه غاليا .. وسيحمله عبئا لا طاقة له به .

وأى عبء أثقل من زواج عجوز ذات ماضى ملوث ؟

انه فى مقتبل العمر ، ومستهل الحياة .. وفى حاجة الى فتاة شريفة يافعة من عائلة طيبة ، تعينه فى الحياة ، وتشرفه أمام الناس .. وفى حاجة الى أولاد يزيدون بهجة حياته ، ويملأون داره متعة وحبورا .

وهكذا رفضت منه السداد . وقنعت منه بأنى أكون له مجرد أم .. فلقد كان ذلك لى خيرا وأبقى .

وتزوج بعد ذلك .. وأنجب أولادا .. ولم أحاول أن استرد منه شيئا من الدين .. سوى زيارات قصيرة .. أتمتع برؤيته فيها .. لأنى أحس أنه ابنى ، وأنه كل شيء لى فى هذه الحياة .. التى أعيش فيها وحيدة .

أترى هذه الزيارات القصيرة .. شيئا كثيرا علىّ ؟ وهل ترانى لا أستحق هذا القدر البسيط من الدين ؟

أشر علىَّ ياسيدى .. أنى على استعداد لأن أفعل كل ما تشير به .

ونظرت الىَّ المرأة تنتظر منى الجواب .. ولكننى أحسست بالدموع تخنقنى . ومضت لحظة صمت تمالكت فيها نفسى وأجبتها بصوت خفيض .. لاشيء .. لا أريد شيئا .. انى آسف جدا على كل ما قلت .



نفس هاوية

انى قد اصبحت انسانا عاجزا ،مسلوب الارادة لا يمكننى الصعود ثانية ، ويخيل الىَّ أنى سأقضى بقية حياتى مترديا فى الهاوية ..

ينص : قانون نيوتن للحركة على أن كل جسم يبقى على حالته الراهنة من سكون أو حركة منتظمة فى خط مستقيم حتى تؤثر فيه قوة تغير حالته .

ويخيل الىَّ أن هذا القانون ينطبق الى حد بعيد على النفوس كما ينطبق على الأجسام ، فالنفس البشرية تظل على حالتها فى هذه الحياة .. حتى تؤثر فيها قوة دافعة .. خافضة كانت أم رافعة ، فاما أن ترفعها الى الذروة أو تهوى بها الى الحضيض .

فلو شبهنا الحياة بمجرد مستقيم أملس السطح ، وشبهنا البشر بكرات تنزلق على هذه المجرى بقوة الدفعة الأولى التى دفعتها الى

هذه الحياة .. لوجدنا الكرات البشرية ستظل سائرة فى مجراها الطبيعى أو ما نسميه روتين الحياة سالكة أسهل الطرق التى تعينها على مداومة السير فتوصلها الى النهاية بلا جهد ولا مشقة .. حتى يصادفها ما سبق أن اسميناه بالقوة الدافعة .. فيبعث فيها جهدا خارقا ، وقدرة عجيبة .. تميزها عن غيرها من الكرات البشرية العادية التى لم تؤثر فيها قوى دافعة .. وترفعها الى مستوى يحتاج الوصول اليه الى جهد لا تهيئه الا القوى الدافعة .

وقد تكون القوة الدافعة ذات تأثير مضاد .. فقد تعترض الكرات البشرية قوة تبطىء من سيرها أو توقفها أو تخفضها الى أسفل بدلا من رفعها الى أعلى .. هذه القوة المثبطة أو الخافضة الهاوية .. لا تحتاج الى كثير جهد لكى تفعل فعلها . فالكرات البشرية أميل الى الإنزلاق .. أو قل ، ان عملية الهبوط عملية سهلة بطبيعتها .. أسهل كثيرا من الصعود والارتفاع . فالكرات البشرية كغيرها من الأجساد يؤثر عليها جذب دائم الى أسفل .. فليس أسهل عليها من أن تهوى الى الحضيض .

هذه مقدمة قد أكون أثقلت عليكم بها .. ولكن لم أر منها بدا قبل أن أروى قصتى .. قصة احدى الكرات البشرية التى تملكها القوى الدافعة .. الرافعة الخافضة .. فنزعتها من مجرى الحياة الهادىء الساكن ، وارتفعت بها ثم هبطت .. متأرجحة بين القمة والهاوية .. بين عنان السماء وأعماق الأرض .. حتى استقرت بها القوة الأخيرة فى النهاية .. الى أين .. ؟

اليكم القصة كما كتبها لى صاحبها ، وستعرفون فى نهايتها أين استقرت نفس صاحبها بعد أن دفعتها القوة الأخيرة .

سيدى العزيز :

أريد منك شيئا من الحلم والصبر تستعين بهما على قراءة قصتى ، فكل ما أخشاه هو أن يصيبك الملل فتلقيها جانبا قبل أن تتم قراءتها .. فانى لا أحس فى نفسى القدرة القصصية التى تمكننى من أن أجعل فيما سأرويه لك قصة تشوقك قرائتها .. ولأننى أخشى أن تدفعنى الذكرى الى الخوض فى تفاصيل قد تبدو فى نظرى هامة وفى نظرك تافهة ، وقد أرى بها غرابة ولا ترى بها أنت الا شيئا عاديا حدث لكل انسان .. وقد تمتعنى ذكراها وتثقل عليك قرائتها . شيئا من الحلم والصبر هو كل ما أريده منك .. أنا لا أريد منك عونا ولا نصحا .. فلا أظن هناك فائدة فى عون ولا نصح .. فأنا أدرى بما يمكن أن ينصح مثلك مثلى .. وأنا أدرى أن النصح فى مثل حالتى ليس أكثر من كلام يسهل قوله ويصعب سماعه ، ويستحيل العمل به . انى لم أقصد بكتابى اليك سوى أمرين : أولهما قد حققته فعلا بمجرد كتابتى اليك .. فلقد أحسست أنى ألقيت من كاهلى بعض ما أثقله .. وثانيهما هو أن تقرأ ما كتبت .. ولا تنصحنى ولا ترشدنى .. بل تلتمس لى العذر .. وتنبئنى أننى لم أكن أملك الا أن أنساق فيما أنسقت اليه ، وماذا نملك نحن البشر المساكين أمام قوى القدر الغاشمة ؟

ان قصتى يمكن تقسيمها الآن - أو حتى الآن - الى شطرين ماضى وحاضر .. أما الجزء الثالث الغير منظور ، وأعنى به المستقبل ، فما اظننى أستطيع التكهن به ، وان كنت فى قرارة نفسى أحس أنى لن أصادف فيه حسنة أو أرى بارقة .

لنبدأ بالشطر الماضى .. ولنعد القهقرى عشرين عاما خلت ..

ولنبحث عن بطل القصة - وهو أنا - لنجده فتى فى الثامنة عشر قد قبع فى حجرته فى حى روض الفرج يستذكر دروسه .

كنت وقتذاك طالبا فى مدرسة شبرا الثانوية .. وكنت مثلا للطالب العادى الذى لا يميزه شيء .. لا ذكاء ولا غباء ، ولا قبح ولا وسامة ، ولا خفة ولا ثقل .. لا شيء أبدا .. كأننى الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة .. كنت شخصا غير مميز ولا محسوس .. أحس بأننى ضائع فيمن حولى كأننى حبة فى أردب من القمح .

كنت أغبط هؤلاء الذين برعوا فى مختلف الألعاب الرياضية .. فأصبحوا بين غيرهم من الطلبة مشهورين مميزين .. ينظر اليهم كأنهم أبطال صناديد .. وكنت أتمنى أن أكون واحدا منهم ، ولقد حاولت بالفعل أن أزج بنفسى فى وسطهم وبذلت جهدى كى يأخذونى ضمن احدى فرق المدرسة الرياضية ولكنى منيت بفشل تام .. فلقد كنت شخصا خائبا لم يهبنى اللّه البراعة فى أى شيء أستطيع التفاخر به .

انى لأذكر كيف كانوا ينتقون فريق الكرة فى كل عام ، وكنت أتقدم حاسبا أنها فرصة العمر .. وأظل أعدو وراء الكرة وأجرى من أول الملعب لآخره حتى تبهر منى الأنفاس ويتصبب العرق .. دون أن تمس الكرة قدمى .. لست أدرى هل كان ذلك حظى أم كان خطأ الكرة ؟ أم هل كان هناك تنافر دائم بين قدمى وبينها ؟ لقد كنت ألعبها بكل عضو من أعضاء جسدى ، كتفى وركبتى وقصبة رجلى ومرفقى كل عضو الا قدمى ، وكان الأمر ينتهى بى دائما الى أن أطرد شر طردة ، وأخرج من الملعب وبنفسى حسرة مرارة .

وبعد أن يئست من أن أكون لاعب كرة .. حاولت أن أكون

لاعب هوكى .. فأصابنى نفس الفشل ، وبدأت أصرف النظر تماما عن النبوغ فى الناحية الرياضية ، وحاولت أن أجرب النبوغ فى ناحية أخرى لا تحتاج منى لذلك الجهد والبراعة التى تحتاجه كرة القدم أو غيرها من الألعاب .. حاولت أن أشترك فى الجمعية الأدبية أو فى تحرير المجلة أو فى جمعية الفنون الجميلة .. ولكنى بقيت نكرة كما أنا ، فلقد كانت تلك الأشياء تحتاج الى موهبة وقدرة .. وأنا كما قلت لك شخص خلا من كل موهبة ومن كل ميزة .

لم أستطيع أن أكون زعيما للمظاهرات لأنى لم أكن أملك الشخصية التى تؤهلنى لذلك .. ولم أستطع أن أكون الأول فى الدراسة .. لأن ذلك كان يتطلب اما ذكاء مفرطا .. أو مثابرة على الاستذكار .. وما كنت بالذكى أو المثابر على الدراسة والاستذكار .. فلقد كنت - ككل تلميذ عادى - كثير السرحان فى الدرس .. كارها للاستذكار فى البيت . وحتى فى الشر أو فى الخيبة لم أستطيع أن أكون مميزا . فلم تكن لى القدرة على أن أكون من النوع الشقى الشرير الذى يشتهر بكثرة معاركه مع المدرسين ، والذى يخشاه الجميع ، لأنى كنت أميل الى الاستسلام والاستكانة .. ولم أستطيع كذلك أن أكون شهيرا بالغباء والخيبة ، فقد كان القدر البسيط العادى الذى أتمتع به من الذكاء يقف حجر عثرة فى ذلك السبيل .

ولم يكن بد ، والأمر كذلك ، من الاستكانة للواقع .. والقناعة بالسير مع القطيع ، وان كان ذلك لم يمنع من أن أحاول امتاع نفسى بما يسمونه أحلام اليقظة ، ولست أشك فى أن هذه الطريقة قد أفادت فى تهيئة ارضاء مؤقت ، وان كنت لا أستطيع أن أنكر أن هذا التسكين والارضاء الذى هيأته أحلام اليقظة قد قضى على كل مطمع لى فى أن أكون بارزا وزادنى استسلاما واستكانة ورضاء بالسير فى الركب ..

كنت أرضى نفسى باعطائها بالوهم ما حرمته فى الواقع ، ولقد كانت طريقة مضحكة ، وان كنت لا أشك فى أنه ما من انسان الا ويتبعها .. كنت أجلس لمشاهدة مباراة فى كرة القدم .. فلا تكاد تمر برهة وأنا فى موقف المشاهد ، حتى أرانى قد وضعت نفسى فى مكان قلب الهجوم وأرى الكرة فى قدمى .. أتحكم فيها كما أشاء وأتقدم بها برهة محاورا بها من أمامى .. ثم أرمى بها رمية طويلة بقدمى اليسرى (أنا لا أعرف كيف أحرك الكرة بقدمى اليسرى خطوة واحدة) الى الجناح الأيمن .. ويتقدم بها الجناح الأيمن برهة أكون فى خلالها قد تسربت كالبرق (وأنا بطىء الحركة) الى مرمى الخصم .. ويرمى الجناح الكرة رمية (أوفر) فأقفز من بين يدى اللاعبين قفزة رائعة وأتلقى الكرة برأسى وأحولها بدفعة شديدة الى مرمى الخصم .. فتستقر فى أقصى الجانب السفلى ويرتمى حارس المرمى بسرعة ولكن الكرة تكون قد سبقته الى داخل المرمى .

وتضج الجماهير بالهتاف وتندفع الى داخل الملعب لتقبيلى وحملى على الأكتاف .. وأسير أنا بين اللاعبين فى خجل وتواضع كأنى لم أفعل شيئا . لا تضحك علىَّ ياسيدى .. فلقد كنت أمتع نفسى بتلك الطريقة .. هل تنكر أنت نفسك أنك تتبع هذه الطريقة باعطاء نفسك ما حرمته ؟

وصورة أخرى من أحلام اليقظة التى كانت تنشينى وقتذاك .

الطلبة متجمهرون فى فناء المدرسة .. يريدون الخروج فى مظاهرة والناظر قد أمر باغلاق الباب .. وأنا واقف بين مئات الطلبة فى ركن الفناء .. مسكين غلبان . أرقب ضجيجهم وهتافهم .. وأنتظر النتيجة وأنا لا أملك الا الرضوخ لما سيحدث ، متطلعا بعينى تارة الى زعماء الطلبة الذين ارتقوا بعض الأشجار ، وأخذوا يخطبون فى

حماس .. وتارة الى حجرة الناظر ، وتارة الى حجرة البواب ، وتارة الى البوابة الضخمة المغلقة .

ولا يطول الأمر بى حتى أرانى (أنا المسكين الغلبان) قد صحت في الطلبة بصوت جهورى آمرهم أن يكفوا عن الضجيج وينصتوا الىَّ .. وأعتلى أقرب شجرة ثم أبدأ فى الخطابة . وحدث عن خطابتى ولا حرج .. أين منى سحبان وسعد زغلول .. لقد فعلت فى الطلبة فعل الشرر فى الوقود ، وهبطت من على الشجرة واحتضنتها بين ذراعى وهززتها بضع هزات واقتلعتها من الأرض ثم تقدمت بها الى الباب الضخم فدفعته بها دفعة قوية تهاوى أمامها وتدفق الطلبة حولى مندفعين الى الخارج وقد حملونى على أعناقهم .

وهكذا ياسيدى لم أعدم قط الوسيلة التى ترفعنى حيث ينبغى أن أكون .. وان كنت بعدها أجدنى قد هبطت وتهاويت الى حيث أكون فعلا . ولم أكن فى الناحية العاطفية بخير من غيرها من النواحى فقد كنت من نوع انطوائى .. لا أنكر أننى قد أحببت بضع مرات ولكنه كان حبا من جانب واحد . حب مطوى مكبوت ، لم أجرؤ قط على أن أصرح به لأحد ولا حاولت حتى أن أمنى نفسى بأنه سيؤدى الى نتيجة .. فقد أضاعت حالتى المعنوية الهابطة كل ثقة فى نفسى وكل أمل فى أن أحظى بحب .. وكيف يحظى بالحب مخلوق قد خلا من كل مزية وفضل .. مخلوق عديم القيمة الا فى أحلام اليقظة التى لا يبصرها سواه ؟

ولم يصعب علىَّ أن أدخل الحب ضمن ما أمتع به من أحلام اليقظة .. فأجعل من نفسى فيها الى جانب كابتن كرة وزعيم طلبة .. دون جوان تترامى الفتيات على أقدامه .. من يستطيع منعى وأنا سلطان أحلام يقظتى .. المتحكم فيها ، المسيطر عليها ؟

ولم يكن هناك شك فى أن أحلام اليقظة هذه تستقطع من وقتى ما كان يجب أن أقضيه فى الإنصات الى الدرس أو فى الاستذكار .. وكانت نتيجة ذلك أننى كنت أنجح بشق الأنفس .. هذا عدا سنة ، أو سنتين . كانت نتيجتى فيها الرسوب ، ومع ذلك فما فكرت قط فى أن أصحو منها .. فلقد كانت - كما قلت - متعتى فى الحياة .

واستمررت هكذا أسير فى طريقى .. أو بتعبير أصح .. أتدحرج .. فقد كان سيرا بلا ارادة ولا قوة ، حتى وصلت الى السنة الخامسة الثانوية وأنا أرى نفسى مثالا للخيبة .

فى ذلك العام حدث لى ما يمكن تسميته بأول التواء فى حياتى .. ولست أدرى اذا كانت كلمة التواء تعبر عما أقصد .. ولكن أغلب ظنى أنك تستطيع فهم ما أقصده (بالويم) .. انى أقصد أول انحناء فى خط سيرى أو أول انقلاب فى تركيب نفسى .. ذلك التركيب الهادى المستسلم الذى يجعلنى أشبه بحمل وديع .

بدأ هذا التغيير ، أو الالتواء ، أو الإنحناء أو الإنقلاب أو سمه ماشئت بأن أصبت بحالة حب ولست أظن فى أن اصابة انسان ما بالحب أمرا غريبا ، بل الغريب هو ألا يصاب به انسان .. ولقد قلت لك أننى رغم كونى انسانا انطوائيا منكمشا الا أن ذلك لم يمنع من أننى أحببت بضع مرات .. وفى كل مرة كان يجمد الحب فى قلبى عندما تحيط به ثلوج اليأس ويتبدد من نفسى دون أن يترك أقل أثر .. ولكن اصابتى بالحب فى هذه المرة كانت شيئا جديدا بالنسبة الىّ .. فلقد كانت اصابة ايجابية .. اذا أمكن اعتبار الإصابات السابقة كلها اصابات سلبية .. ليس للطرف الآخر فيها أقل أثر ايجابى .

لا أريد أن أثقل عليك بسرد تفاصيل حب تلميذ .. فلست أشك فى

أنه شيء مليء بالتفاهة والهيافة ، كما لا أشك فى أنك لا بد قد أصبت بالحب وأنت فى تلك المرحلة من العمر .. وما زلت تعلق بذهنك الكثير من الذكريات التى حدثت لك فى هذا الحب التلاميذى . ولكنى سأحاول أن أركز شرحى فى الناحية التى أظن أن حالتى وقتذاك كانت تختلف فيها عن غيرها من حالات الحب المشابهة .. والتى نتج عنها ما حدث بعد ذلك من مضاعفات .

كانت تقطن على مقربة منا فى ذلك الوقت عائلة على شيء من الثراء الذى يمكن أن يدخلها فى طبقة أولاد الذوات .. وكانت فى العائلة فتاة جميلة مدللة .. جميلة الى درجة جعلتها تفوز فى احدى مسابقات الجمال التى أقيمت فى ذلك العام .. فلقبوها بملكة الجمال .. وتهافتت الصحف على نشر صورها وقتذاك .

وأظن أن هذا الوصف لها يكفى تماما لإقناعك .. كيف كان يمكن أن تقع مثل تلك الفتاة – بثرائها ودلالها وجمالها وغرورها – فى نفس متواضع مثلى .. لقد كنت أنظر اليها رغم أن دارها لاتبعد عن دارنا الا بضع مئات من الياردات كما ننظر الى كواكب هوليود ، اللاتى لا نملك لهن الا التمنى والإعجاب .. واللاتى لا يمكن أن يفكر أحدنا فى حبهن والا اعتبر مجنونا .

لقد كنت أحس أن بينى وبينها فراسخ من اليأس .. فلم أحاول أن أحبها حتى فى أحلام يقظتى .. التى لم يكن يتعذر علىَّ فيها أى شيء .. لقد كنت أحس أن حبها أكثر استحالة من اقتلاع الشجرة وفتح البوابة الضخمة والركوب على أعناق التلاميذ .

ملكة جمال .. ثرية .. مدللة .. تنشر الصحف صورها الى جوار صور الزعماء والأقطاب .. وتلميذ ثانوى نكرة مجهول .. قد خلا من

أقل المزايا وأبسط الأفضال .. فهو واللاشيء متساويان .. هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين أحدهما والآخر الا اذا كانت هناك علاقة بين ابليس والجنة ؟ ومع ذلك فقد حدثت العلاقة .. ولا شك هناك أنها قد كانت هي البادئة بها .. فقد كنت أجبن من أن أحاول مجرد التفكير في أن أنشيء علاقة معها .

لست أذكر الآن بالضبط كيف بدأ الأمر .. ولكنى أظن أننى رأيتها في الشرفة فابتسمت لى ، ولم أصدق وقتذاك أن الابتسامة موجهة الىَّ .. وتلفت حولى لأرى من تبتسم له فلم أجد في الطريق سواى وأصابني الخجل وتعثرت في طريقي وأمعنت في السير لا ألوى على شيء .

وتكرر الأمر بضع مرات .. وأحسست بثلوج اليأس المتراكمة في نفسى تذوب رويدا رويدا تحت أشعة بسماتها الساطعة الدافئة .. وأنا انسان ياسيدى .. وأى انسان مهما تواضع قدره وتضاءلت قيمته لا يعدم بعض مركبات الغرور الراسبة في قرارة نفسه .. والتى تبرز في بعض الأحيان فتخدع الإنسان في قدره .. وتهيىء له أن بعض المزايا الخافية حتى عن نفسه .

أجل ياسيدى لقد أخذت نظرات الفتاة المتربعة على عرش الجمال توهمنى أننى لابد بى شيء اجهله .. وأن هذا الشيء الذى يميزنى قد أحست به الفتاة فدفعها الى أن تقبل علىَّ وتخصنى بابتساماتها ونظراتها . وكان هذا أمرا جديدا علىَّ ما تعودته من قبل ولا توقعته فأحدث في نفسى تأثيرا بالغا .. جعلتنى أترنح كما يترنح انسان صبوا في جوفه زجاجة خمر وهو لم يذق الخمر في حياته من قبل .

لقد نزعتنى حالة الحب الجديدة من كل ما حولى . فلم أعد أرى شيئا أو أحس شيئا فأنا دائم الشرود والذهول ، مغرق في متعة لا حدود

لها . مغمض عينى وذهنى عن كل ما حولى من حقائق .. محلق بنفس فى عالم من أحلام اليقظة الدائمة .. لا أهبط منها لحظة واحدة .. ولقد تركزت احلام يقظتى فى شىء واحد تضاءل بجواره كل شىء سواه .. فما عدت أرى نفسى لاعب كرة .. أو زعيما أو خطيبا .. لاشىء من هذا أبدا ، فقد احتلت هى وقتذاك كل ذهنى وكل قلبى وكل حياتى .

واستمرت الفتاة تغذى ثورة الحب الجامحة فى نفسى .. مرة بابتسامة ومرة بنظرة ، وأخرى بلمحة أو باشارة .. ولم أكن أنا أطمع فى أكثر من هذا .. فقد كانت هذه المنح منها كافية لأن تكون وقودا يضرم نيران قلبى .

وبدأت أجمع كل صورها وأضعها بين صفحات كتبى ، فاذا ماجلست للاستذكار لم أفعل شيئا الا الحملقة فى الصور والتفكير فى صاحبتها . وككل عاشق زاد الطمع على مر الأيام .. فبدأت أفكر فى أن أحصل منها على شىء أكثر من هذه المنح التى ترسلها مع الريح .. بدأت أفكر فى لقائها والحديث معها ، وبدأت أحلم بأنى مسست يدها .. وأنى حدثتها عن هواى وحدثتنى عن هواها .

وبدأت بعد ذلك مرحلة الرسائل .. ولست أعنى بذلك أننا بدأنا نتراسل .. بل أننى بدأت فى كتابة رسائل الحب وتمزيقها أو حفظها .

وفى ذات يوم مررت بدارها وأنا عائد من المدرسة فوجدتها تقف فى الشرفة وقد ارتدت ملابسها وكأنها تستعد للخروج .. وأشارت لى برأسها وضحكت .. ولم يصعب على أن أفهم نفسى أنها تشير لى أنها خارجة وأنها تريد أن تتيح لى فرصة لقائها فيجب علىَّ أن أتذرع بالشجاعة ولا أدع الفرصة تفلت منى ..

وهرولت الى الدار كمن به مس من جنون ، وقذفت بالكتب ، وهبطت على السلم أقفز كل أربع درجات مرة واحدة .. ومررت بدارها فلم أجدها بالشرفة فتقدمت فى طريقى حتى وصلت ناصية الشارع ووقفت أرقب خروجها من الباب .

وبعد لحظات لمحتها تخرج فدق قلبى دقا عنيفا .. وأخذت أستعيد لنفسى الكلمات التى سأبدأ بها الحديث .. وكلما ازدادت اقترابا منى كلما أزددت اضطرابا حتى بلغتنى وجاوزتنى وأنا متسمّر فى مكانى كأنى وعمود الترام سواء .

ولمحتها تختفى فى أول منعطف فعدوت وراءها حتى لحقتها ، ورأيتها تتمهل وتسير الهوينا فلم أشك أنها تريد أن تتيح لى فرصة الحديث .. ولممت أطراف شجاعتى واقتربت منها وهممت بالكلام ، ولكنى أحسست بعربة تقف فجأة بجوارنا ورأيت الفتاة تنظر الىَّ فى شىء من الدهشة ومددت يدى اليها بالتحية وتلفظت بكلمات مدغمة لم أفهم أنا نفسى معناها ولكنها لم تمد يدها بل نظرت الى ناحية العربة وأشارت برأسها مبتسمة .. ثم قفزت بخفة الى داخل الباب الذى فتحه صاحب العربة واستقرت بجواره ، وهمست فى أذنه بضع كلمات ونظر الإثنان الىَّ وانفجرا ضاحكين .

هل من السهل عليك أن تتصور موقفى وقتذاك : لا .. لا أظن .

أنا نفسى لا أستطيع أن أعبر عنه .. فاننى على كثرة ما لقيت فى الحياة بعد ذلك ، ورغم ما تلقيت من صفعات القدر حتى يومنا هذا .. لا أذكر أنى هبطت يوما من مهاوى اليأس والخجل كما هبطت يومذاك . ولقد مر بذهنى مر البرق الفارق العجيب بينى وبينها .

لقد أدركت فى ثوانى معدودات من أكون ومن يكونا .. كنت أقف أمامها نموذجا لتلميذ - كحيان - واعذرنى على هذه الكلمة فلا أعرف كلمة تعبر عن حالتى سواها .. فبذلتى الباهتة الكالحة التى لم تمسها مكواة كواء منذ بضعة أشهر .. والقميص الأسبور - البيتى - والحذاء الأجرب ذو النصف نعل ، والطربوش المتهايل المستقر على مؤخرة رأسى ، وشعرى الأشعث ، ووجهى الأغبر .

وهما .. هو .. وهى .. وثالثهما العربة .. مثل للأناقة والأستقراطية .. هو بشعره اللامع الذى أغرقه البريل كريم وياقته البيضاء المنشاة وكرافتته الأنيقة المحكمة الربط .. وبذلته الغامقة المحكمة على جسده .

وهى .. بكل ماوهبها اللّه من جمال واغراء وفتنة ورشاقة وأناقة .. والعربة : العربة الفخمة الضخمة .. اللامعة البراقة .. هل تستطيع أن تحس موقفى وقتذاك .. أنا العاشق الذى خرج ليلقى حبيبته ؟

ولقد كان كل هذا محتملا ، حتى بدأت العربة تتحرك ، ووجدت الفتاة تضحك مرة أخرى فى سخرية ، ثم تقول هازئة ، ذلك القول الذى لم يمح من ذاكرتى قط : (روح ياشاطر ذاكر أحسن لك) . هذا القول ياسيدى من الأقوال المأثورة ، هذه الخمس كلمات الساخرة قد غيرا مجرى حياتى تغييرا تاما .. لقد جعلت منى مخلوقا جديدا .

وقفت فى مكانى ذاهلا أرقب العربة الوجيهة حتى اختفت عن عينى ، ولم أكن فى حالة تساعدنى على أن أميز ما حولى بوضوح ، أو أن أفكر فيما أستطيع أن أفعل .. لقد كنت فى شبه غيبوبة .

ولم أذهب الى الدار فما كنت أطيق أن أرى أحدا أو يرانى أحد ،

وسرت شارد الذهن حتى ألقت بى قدماى الى شاطىء روض الفرج ، وكان الوقت شتاء ، والشاطىء ساكن خال ، وقد تناثرت هنا وهناك بضع سفن مليئة بالغلال ، وأخذت الريح تهب باردة تلفح الوجوه ، ووصلت الى بقعة فى آخر الساحل وجلست منكمشا وبكيت .

بكيت كثيرا .. بكيت كأحر ما بكى انسان .. بكيت بكاء من عزّت عليه نفسه المتواضعة التى خدعها القدر وأذاقها الهوان .. وان البكاء نعمة ياسيدى .. نعمة منحها اللّه للإنسان لكى يغسل بها هم نفسه .. انه الغيث الذى يروى النفوس التى أجدبها الحزن .

وعدت أخيرا الى الدار .. مطأطىء الهامة .. خافض الرأس .. تلوح لى صورتها وهى تضحك ساخرة .. ويرن فى أذنى قولها : (ذاكر أحسن لـلك) ماذا كان احساسى نحوها وقتذاك ؟ لقد قلب حبى الشديد لها الى بغض شديد .. وبين أقصى الحب وأقصى البغض خيط دقيق ، لقد تملكتنى وقتذاك رغبة جامحة فى الثأر ، لقد عزّت علىَّ نفسى المسكينة التى دفعتها فى الرغام ، والتى أذاقتها الهوان دون ذنب جنته ، فحتى حبى لها لم أكن مسئولا عنه فهى التى دفعتنى اليه .

ومضى يومان وأنا مازلت أترنح من أثر الضربة التى أنزلتها بى وفى نهاية اليومين ، استقر بى الأمر على أن أثأر لنفسى .. لقد أقسمت أن أكون شيئا أولا أكون .. وعزمت على أن أضع نفسى فى مكان أستطيع منه أن أذل الفتاة كما أذلتنى وأهينها كما أهانتنى .

أقسمت أن أذلها بنصيحتها الساخرة ، وأن أذاكر كما قالت لى .. أذاكر بكل ما فى نفسى من جهد وقوة وسأفنى نفسى فى الاستذكار فهى طريقتى الوحيدة لأن أكون انسانا ممتازا ، يتيح له المستقبل أن يرد ما أصابه من سخرية .

لقد منحنى الهوان قوة دافعة .. ووضع أمامى هدفا لابد من الوصول اليه وأملا لابد من تحقيقه .. وأحدث بذاك أول انقلاب فى حياتى ، وجعل منى مخلوقا آخر . لقد كان هدفى أن أرتفع بنفسى لكى آخذ بثأرها ، وأن أقفز بها لكى أذل من أذلها .

وبدأت الانكباب على الدروس بطريقة أشبه بطريقة فقراء الهنود فى تعذيب أنفسهم وكنت أستلذ التعب وأستسيغ الألم لأنى كنت أحس فيهما وسيلة لإيصالى الى هدفى . وفى نهاية العام ، ظهرت النتيجة ، وكان ترتيبى فى امتحان البكالوريا الخامس بين طلبة القطر .

لقد كان نجاحى باهرا ، أنا المحروم من الذكاء ، المسلوب المزايا ، ولم يسعدنى النجاح الا لأنه خطوة تدنينى من الارتفاع الذى أبغيه والذى سيجعل منى مخلوقا محترما .

والنجاح ياسيدى يجلب النجاح ، أو أننى - على حد قولهم - (سقت فيها) فلقد دخلت مدرسة الهندسة وانتقلت من سنة الى سنة وأنا دائما فى الطليعة ، حتى اشتهرت بأنى (ذكى جدا ، وأنى نابغة ، وبدا من حولى ينظرون الىَّ نظرتهم الى شخص من مستوى أعلى من مستواهم .

ولست من السخف بحيث أزعم أن كل هذا النجاح والتفوق فى السنين المتتالية كان نتيجة الرغبة الأولى فى الثأر من الفتاة ، فقد انتقلت من دارها وأخذت صورتها تتلاشى رويدا رويدا من ذهنى . وان كنت لا أنكر أنها كانت السبب الأول الذى حثَّنى على الطموح ، كانت صاحبة الدفعة الأولى التى دفعتنى الى أعلا .

وتخرجت من المدرسة ، وتابعنى النجاح فى الحياة فقفزت قفزات

سريعة ، ووصلت الى مناصب لم أكن أحلم بالوصول اليها . وكان الفضل فى هذا الوصول يرجع بعضه الى الكفاءة وبعضه الى الحظ ، أو على الأصح الى تعاون هذا مع ذاك . لقد وصلت الى الدرجة الأولى وأنا ما زلت دون الأربعين ، وكل من حولى يقولون اننى من رجال المستقبل ، والجرائد تضعنى من آن لآخر ضمن ما يسمونهم بالنجوم اللامعة ، حتى أصبحت انسانا شهيرا ، لقد عوَّضتنى الحياة كل ما كنت أفتقد وأنا فى سن التلمذة ، وتزوجت منذ بضع سنين من فتاة من عائلة طيبة ، هى الى الآن نعم الزوجة ، وأنجبت منها طفلا جميلا .

أما صاحبتنا التى أهانتني وأحتقرتنى ، والتى لم أكن أرغب فى أن أكون شيئا الا لأثأر منها ولا حتى فى مجرد لقائها وخاصة أننى عرفت أنها تعمل بالسينما وأنها أضحت من النجوم اللامعة ولم أكن أتوقع أن الظروف يمكن أن تجمعنا مرة ثانية . ومع ذلك فقد جمعتنا الظروف بعد طول فرقة اذ لقيتها ذات مرة فى صحبة بعض الأصدقاء ، وعرفونى بها ، وجلست أتحدث واياها بضعة أحاديث سطحية تافهة . وأدهشنى أن أجد فيها نفس السحر والفتنة التى كانت تتصف بهما وهى فتاة مدللة تقف فى شرفتها وتجود علىَّ بالبسمات الخادعة .

وتعمقنا فى الحديث . بعض الشىء ووجدتنى أقص عليها على سبيل الفكاهة ما حدث بيننا منذ عشرين عاما ، وأظهرت من حديثى دهشة شديدة . وأغرقت فى الضحك ، ولم يبد عليها أنها قد تذكرنى .

والتقينا بعد ذلك بضع مرات ، ولن أحاول أن أزعم لك أن اللقاء كان وليد صدفة ، فلقد كنت أنا راغبا فى اللقاء ، لمجرد التسلية وقضاء الوقت .

وتكرر اللقاء بيننا كثيرا ، حتى بدأ يتخذ شكل مواعيد منظمة ، وبدأت تدعونى الى طابقها الذى تقطن به بالزمالك .

لا أريد أن أطيل عليك ، ولا أريد أن أمهد لنفسى بما قد يتخذ عذرا لى بل سأقودك الى النتائج رأسا .

ياسيدى لقد كنت انسانا أحمق ، بل أكثر الناس حمقا على وجه الأرض . لقد تركت نفسى أنزلق ببساطة ، وأنا الرجل العاقل الحصيف الذهن ، الذى يشهدون له بالذكاء والنبوغ .. أنا الزوج الطيب ، والأب الرزين ، تركت نفسى أنزلق مرة أخرى الى حبها وانتهى بى الأمر الى أن أتردى فى حب شفيت منه منذ عشرين عاما ، ترى ماذا كانت نتيجة الحب فى هذه المرة ؟ لقد أحببتها فى المرة الأولى فصدتنى وأعرضت عنى ، وأهانتنى واحتقرتنى وكان لى من صدها واعراضها قوة دافعة دفعتنى الى أعلى وملأتنى حزما وعزما ، وجعلتنى أنطلق كالقذيفة لأصل الى القمة فى لمحة عين .

ثم أحببتها فى المرة الثانية ، فأقبلت علىّ .. ومنحتنى حبا جنونيا ، منحتنى من قلبها واحساسها وجسدها أقصى ما يمكن أن يطمع فيه رجل من امرأة ، وكان لى من حبها قوة دافعة أخرى ، ولكنها كانت قوة دافعة خافضة ، هبطت بى الى أسفل وردتنى الى الهاوية ، وسلبتنى كل ما وهبتنى اياه القوة الأولى من مزايا ومواهب .

عندما أنكر لك نتيجة ما أوصلنى اليه حبى لها ، ستندهش وستلومنى لوما شديدا ، كما لامنى كل من حولى ، ولكنك لو تتبعت الطريقة التى وصلت بها الى ما وصلت ، لخففت من لومك ، ولعلمت أننى هبطت الى أسفل رويدا رويدا حتى وجدتنى فى النهاية أتردى فى الحضيض ، لقد بدأت علاقتى بها رغبة فى التسلية وقضاء الوقت ،

وانتهى بى الأمر الى أن أصبحت أشعر أنى لا يمكن أن أعيشِ بدونها .

واشتهرت علاقتى بها ، وافتضح أمرى ، فى الدار وفى العمل وانقلبت الدار جحيما ، وبدأ الناس فى العمل ينهشونى بألسنتهم ، واضطرتنى علاقتى بها وحياتى معها الى أن أغير الكثير من طباعى حتى تلائم وسطها وطباعها ، فأقبلت على الخمر ، وتعلمت الميسر طول الليل ، وانقلبت شخصا آخر ، ليس فقط خاليا من الأفضال والمزايا ، بل مليئا بالعيوب .

لقد هجرت زوجتى وولدى ، فهما بالكاد يريانى ، وانى أحس أننى واقع تحت تأثير كابوس مخيف لا يمكن التخلص منه ، وبودى لو استطعت الارتفاع مرة أخرى ، ولكنى لا أستطيع ، لأنى فقدت كل سلطانى على نفسى ، ولم أعد أملك الا الاستلام لما فيه ، انى قد أصبحت انسانا عاجزا ، مسلوب الإرادة لا يمكننى الصعود ثانية ، ويخيل الىَّ أنى سأقضى بقية حياتى مترديا فى الهاوية ، اللهم الا اذا وهبنى اللّه قوة دافعة أخرى ترفعنى من الحضيض الى القمة .

انى فى حاجة الى تلك القوة الأخيرة التى تنقذ نفسى .. ترى هل يهبنى اللّه اياها ؟



انتهى خطاب الرجل ، الذى رفعته اهانة امرأة ، وهوى به حب امرأة . الرجل الذى رفعته قوة دافعة وخفضته قوة دافعة ، وما زال فى الهاوية وينتظر أن ترفعه قوة دافعة أخيرة .

لقد طويت خطابه ولم أجبه .. ماذا يمكننى أن أقول لمثله ؟ نصيحة ؟ .. لا فائدة . لقد حذرنى هو نفسه من النصح . لقد دعوت اللّه أن يهبه القوة الأخيرة التى يطلبها . ومرت بضعة أشهر ، وكدت

أنسى الرجل ، حتى وصلنى منه الخطاب التالى :

سيدى العزيز :

لن أثقل عليك هذه المرة .. لن أكتب لك أكثر من بضعة أسطر .
لقد وصلت ياسيدى ! القوة الأخيرة التى كنت أدعو اللّه أن يمنحنى اياها لكى تدفع بى من الهاوية الى القمةً . لقد عدت مرة ثانية الى القمة ، لقد زال الكابوس !

لقد أصاب ابنى تيفود .. تيفود خبيث رماه صريعا يغالب سكرات الموت .. ابنى الذى أهملته ، والذى لم أكن أحس به منذ أن ترديت فى حبى الخاطىء ولم أكن أحس أنى أحمل له فى قلبى هذا القدر من الحب حتى رأيته يرقد طريح الفراش غائب الوعى . لقد عدت اليه ، وجلست بجواره ، أضع على رأسه الصغير الجميل طاقية الثلج وأضع يده فى يدى ، وأذرف الدمع ساخنا عندما تخلو الحجرة ولا يرانى أحد .

ومرت بى الأيام أحلك سوادا من الليالى ، والليالى أحر من الجحيم ، كل آهة تخرج من صدره تقطع نياط قلبى وبودى لو افتديته بنفسى ، ولكنى كنت عاجزا محسورا .

وأخيرا ياسيدى رحمنا اللّه ووهبنا بعض فضله وردُت الينا روح الصغير ، وانقشعت من فوقنا سحب الموت وبدأت تدب الحياة فيه وفينا .

ولقد صهرنى الألم ، فصفت نفسى ، ورسبت شوائبها ، وعندما تماثل ابنى الى الشفاء تماما ، أحسست أننى أنا أيضا قد شفيت وأنى قد صعدت من الهاوية وتربعت على القمة وعدت كما أنا . وأمسكت بابنى احتضنه وأقبله ، وأشكر اللّه على أن أعادة الىَّ ، وأشكره هو على أن منحنى القوة الأخيرة . وعلى أن أعاد الىَّ نفسى .

نفس شقية

سأقص عليك قصة امرىء من الحمق أن نقول أن فى نفسه من وحدات السعادة مثل ما فى نفسك أو فى نفسى أو فى نـــفس أى مخلـــوق آخـــر ...

قال : لى صاحبى وهو يحاورنى ذات مرة : (هل سمعت عن نظرية دانش للسعادة ؟) . فأجبته مستضحكا ، وكان هو نفسه اسمه توفيق دانش : (لعلها نظرية أحد أجدادك الغابرين) .

- بل نظريتى أنا شخصيا .
- كذا ! . هاتها اذن نضيع بها ما تبقى لنا من سعادة .
- نظرية دانش للسعادة تقول : (ان لكل امرىء كمية محدودة من السعادة لا تزيد ولا تنقص .. أو على الأصح عددا معينا من وحدات السعادة .. فاذا فرضنا أن للسعادة وحدة تقاس بها كالجرام أو اللتر أو الجالون .. فان كل انسان يملك من هذه الوحدات عددا ثابتا مشابها لما يملكه أى انسان آخر ، وأنه سيستهلك على مدى الحياة هذا القدر الذى

يخصه من السعادة) فنحن نرى اذا أن كل انسان يستمتع بقدر من السعادة يساوى تماما ما يتمتع به أى انسان آخر .. مهما تباينت الظروف واختلفت الأحوال ، لأن السعادة شيء كامن فى الإنسان .. لا نستطيع أن نجعله يتناسب طرديا أو عكسيا مع أى شيء مما يحيط به .. كالمال .. أو الجمال .. أو الشهرة .. فمثلا نحن لا نستطيع أن نقول ان عبود يتمتع بقدر من السعادة يزيد على ما يتمتع به شحاذ على باب السيدة بقدر زيادته عنه فى الثروة ، أو أن نقول ان هيدى لا مار تملك قدرا من السعادة يزيد على قدر ماتملك نبوية موسى بقدر زيادتها عنها فى الجمال .. لأن السعادة كما قلت لك هى قدر ثابت يكمن فى نفس كل انسان ، لا تستطيع الظواهر المحيطة بنا أن تزيده أو تنقصه .

وصمت صاحبى وأخذت أفكر فى قوله ثم أجبته بعد فترة :

- نظريتك صحيحة .. الى حد ما .. فأنا معك فى أن السعادة ذخيرة كامنة فى نفس الإنسان ، وأنها لا ترتبط بأى شيء من مظاهر الحياة .. فالفقير فى كوخه يتمتع بنفس القدر من السعادة الذى يتمتع به الغنى فى قصره ، لأن لدى الغنى من وسائل الشقاء ما يخفض من سعادته حتى يجعلها تتعادل مع سعادة الفقير .. أنا معك فى كل هذا ، ولكنى لست معك فى شيء واحد .. هو أن (وحدات) السعادة متساوية فى نفس كل انسان .. أنا لست معك فى هذا أبدا .. فان وحدات السعادة فى نفس كل امرىء تختلف اختلافا بينا ، وهذا هو ما يجعلنا نتفاوت سعادة وشقاء . فبعض الناس فى هذه الحياة لم يرزقوا الا عددا ضئيلا من هذه الوحدات ، فنحن نراهم أبدا فى حالة سخط وقلق .. يشكون من كل شيء ، ويضيقون بكل شيء .. يوجسون من كل فعل خيفة ، ويتوقعون كل أمر شرا .. لا يرضون ولا يقنعون .. شديدى الميل الى خلق الأحزان ، واثارة الأشجان .. لا يكفون عن التبرم والتذمر .

والبعض الآخر قد رزقوا عددا أوفر من وحدات السعادة الكامنة فى نفوسهم ، تراهم أبدا راضين .. لا يرون من الحياة الا وجهها الباسم .. فاذا عبست لهم وتجهمت أغمضوا أعينهم أو أداروا ظهورهم .. قانعين بكل شيء ، راضين عن كل شيء . اذا صادفتهم حسنة حمدوا ، واذا ألمت بهم مصيبة صبروا .

أما النوع الثالث فهو نوع بين .. نوع رزق بقدر متوسط من وحدات السعادة .. فهو يأخذ الحياة على علاتها يضحك اذا ضحكت ويعبس اذا عبست .. تقبله الحياة بين أفراحها وأتراحها .. وهو مستسلم راضخ .

وهز صاحبى رأسه وبدا لى أنه لم يقتنع بقولى ، فأردفت قائلا :

- سأقص عليك قصة امرىء من النوع الاول .. امرىء من الحمق أن نقول ان فى نفسه من وحدات السعادة مثل ما فى نفسك أو فى نفسى أو فى نفس أى مخلوق آخر .. امرىء أؤكد لك أنك ستجزم تعد سماع قصته أنه لم يرزق وحدة من وحدات السعادة التى تقول عنها فى نظريتك .

هو أمرؤ التذمر .. لا يكاد يقع عليه بصرك الا ساخطا شاكيا ، منذ أن كان طالبا وهو يتوهم اضطهاد المدرسين له وكرهم اياه .. أما الطلبة فكان شديد الحذر منهم لأنه كان يتوقع منهم كيدا ويوجس خيفة ، ولم يكد يتخرج من المدرسة ويخوض غمار الحياة حتى بدأ يشكو الغبن والظلم ويتلفت حوله فيتخيل أنه - وهو الأكبر ذكاء والأعظم قدرا - لم ينل ما ناله غيره الأشد غباء والأحط شأنا .. لايكاد يصيب غيره خير حتى يحس أنه كان أولى به .. كل شيء أمامه يبعثه على السآمة والملل ، وكل ما حوله يملؤه ضيقا وضجرا ، لا يكاد يلقاك حتى يجابهك

بقوله : (أسمعت أن فلانا قد نال كذا وكذا .. أهذه بلد ؟) .

ما رآه أحد قط راضيا ولا قانعا ولا سمع منه أحد كلمة حمد أو شكر ، لا يثق بمخلوق .. ولا يطمئن الى انسان .. كل حياته تشكك .. وكل أحاديثه سخط وتبرم .

وتزوج الرجل ، ولا شك أن الذين يعرفون الرجل قد رثوا للمرأة كل الرثاء .. فما أظن هناك انسانا شرا من ذلك الذى لا يحوى فى باطنه غير التذمر والتشكك .. ولو أنصف الناس لا عتبروا ذلك مرضا خطيرا وعزلوا أصحابه عن بقية البشر حتى لا يفيضوا عليهم من سخطهم وشقائهم وتشككهم وتبرمهم .

وبدأت الزوجة تقوم بدورها كشريكة حياته .. فأخذت تقاسمه حياته المليئة بالمرارة والشكوى ، وحاولت أن تعوِّد نفسها على احتمال الحياة معه .. ولكنها أحست أنه لا يطاق ، فلم تجد بدا من أن تحرر نفسها من قيده بعض الشيء ، وأن ترفه عن نفسها بزيارة الأصدقاء والخروج كلما سنحت الفرصة . ولم يكن هناك أيسر من اثارة شكوك الرجل .. بل يخيل لى أنه كان يتلهف الى ما يثير شكوكه والى ما يستطيع أن يجعل منه مادة تغذى سخطه وتبرمه وحقده .. فبدأ يحيط زوجته بجو من التشكك ، وبدأ يضع الخطط لمراقبتها والتجسس عليها وأخذ يستثير نفسه بتوهم خيانتها له ومحاولتها التغرير به .

وقد يكون الرجل فى قرارة نفسه يميل الى أن تكون زوجته خائنة فعلا .. حتى يستطيع ضبطها وحتى يشبع رغبته فى أن يبدو مغبونا فى هذه الحياة .. وأن يظهر أنه دائما الضحية ، ولكن المرأة لم تعطيه تلك الفرصة .. ولم تهىء له ذلك المطلب .. اما لأنها بريئة فعلا ، واما لأنها غاية فى المهارة .

وازداد ضيق الرجل وتبرمه ، وبدأت مشاعره نحو المرأة تتحول الى حقد شديد .. فقد كان الشك أشبه بنار تأكل صدره ، وبدأ يتمنى لو أنشب أظافره فى عنقها العاجى فأخمد أنفاسها وأزهق روحها .. أو لو دفع بمدية فى صدرها فمزق ضلوعها ولكنه لم يكن يجد ما يبرر فعله ، فقد كانت المرأة حريصة حذرة .. خبيثة ماكرة .

وأخذت أعصاب الرجل تتوتر وعصفت بنفسه الأوهام ، وبدأت المرأة تحس منه بخوف شديد .. فقد كانت تلوح فى عينيه أحيانا نظرات بشعة مخيفة ، كأنها نظرات مجنون . وبدأت تستحكم فى رأس الرجل فكرة قتلها .. بعد أن قرر فى نفسه أنها لابد خائنة ، وأنها ماهرة بحيث لن يستطيع قط ضبطها متلبسة بجريمتها . وكان الأمر يحتاج منه الى كثير تدبير وروية ، فقد عزم على أن يضع خطة محبوكة الأطراف حتى اذا مانجح فى قتلها بدا موتها طبيعيا لا يشم أحد منه رائحة جريمة .. لقد كان عليه أن يبادلها مكرا بمكر .. انها سلبته شرفة دون أن يستطيع أن يثبت أنها خائنة ، وسيسلبها حياتها دون أن يشك امرؤ فى أنه مجرم قاتل .

ومضت فترة من الوقت والرجل يحاول وضع الخطط ونصب الأحابيل ، ولكنه كان يجد فى كل خطة مأخذا وفى كل أحبولة منفذا فكان يتركها الى غيرها .. ينقض فى يومه ما أبرمه فى أمسه ، حتى حدث ذات يوم أن ذهب وأمرأته الى احدى دور السينما ، فاذا بالقصة تدور حول جريمة قتل تتلخص فى أن عروسا ألقت زوجها من الشرفة فهوى الى الأرض أعضاء محطمة وأشلاء مهشمة ، وسهل الجريمة على المرأة أنها وزوجها كان يقضيان شهر العسل فى بيت منعزل على أحد الشواطىء .. كان الزوج ثريا عجوزا وكانت هى تبغى ارثا عاجلا ولم يكن عليها أن تفعل أكثر من أن تنبىء طبيب الناحية وبعض الجيران

بأن زوجها يخيفها بالسير أثناء نومه ، ثم وضعت له مخدرا فى قهوته ذات ليلة وتركته حتى فقد وعيه ، ثم جرته الى الشرفة ودفعته من فوق جدارها فهوى الى الأرض ، وذهبت الى فراشها فنامت ليلتها ، وفى الصباح التالى أبصر بها القوم تولول من الشرفة وعثروا على جثة الرجل متناثرة بين الصخور فلم يشك أحد قط فى أن الرجل قذف بنفسه من الشرفة فى سيره أثناء نومه .

وصادفت الفكرة هوى فى نفس الرجل واختمرت فى رأسه ، وتمنى لو استطاع أن ينتقل الى بلدة نائية يستطيع فيها أن يطبق القصة التى رآها ويخرجها الى الحقيقة ويضعها فى حيز التنفيذ .. ولم يكن انتقاله بالأمر العسير اذ لم يكن أحب الى رؤسائه من التخلص منه فسرعان ما صدر الأمر بنقله .. ورحل بامرأته الى مقره الجديد .. وقد وجد فى البلدة ضالته المنشودة ، اذ كانت بلدة هادئة ساكنة من بلدان الساحل ، واستطاع بسهولة أن يعثر فيها على بيت كان يشبه كثيرا ذلك البيت الذى رآه فى السينما .

ووقف فى احدى شرفاته العالية ونظر الى أسفل فأحس بقشعريرة تسرى فى بدنه عندما أبصر بصخور الشاطىء تنحدر أسفل الشرفة .. وعندما لفحت وجهه ريح البحر .. باللغرابة ! ان القدر يدفع به الى الجريمة دفعا .. لقد أعد له مسرح الجريمة أحسن اعداد .. ولم يبق عليه الا أن يقوم بدوره .. وكان أول ما فعل أن ابتاع زجاجة بها أقراص منومة زاعما لزوجته أنه مصاب بأرق وأن الدواء يساعده على النوم .

وفى الأيام التالية بدأ الرجل يعد خطته ، فقد اعتاد أن يذهب الى منتدى البلدة الذى يقضى فيه الموظفون أوقات فراغهم .. وبدأ يشيع بينهم فى أحاديث عابرة أنه طلب الانتقال الى هذه البلدة من أجل زوجته

لأنها فى أشد الحاجة الى هواء البحر لأن أعصابها متعبة ، ومضت بضعة أيام أخرى ثم رآه القوم مهموما بعض الشيء وعندما سألوه عما به أنبأهم أن حالة زوجته لم تتحسن بل على النقيض تزداد سوءا .. فان أعصابها تسير من سيء الى أسوأ ، واذ أبصرها فى الليلة الماضية تسير فى خلال نومها .

وحاول القوم تهدئته والترويح عنه وأنبأوه أن المسألة لا تستدعى كل هذا القلق ، وروى له بعضهم حالات مشابهة ، وأنبأوه أن الأمر لا يستدعى الا شيئا من المراقبة ، وقالوا انه من الخير أن يستشير أحد الأطباء وذكروا له اسم طبيب له المام بهذه الأمور ، وأجابهم الرجل أن امرأته نفسها لا تعرف شيئا مما بها لأنه لم يشأ أن ينبئها حتى لا يتسبب فى ازعاجها وأن كل ما فعله عندما رآها تسير وهى نائمه أن سحبها بهدوء وأعادها الى الفراش .

وبعد بضعة أيام علم القوم منه أن حالة امرأته تزداد سوءا وأنها مازالت تسير أثناء نومها ، وأنه قد قرر أن يذهب لاستشارة الطبيب . وفى اليوم التالى ذهب الرجل الى الطبيب وأخبره أنه يريد يستشيره فى أمر انسان يسير وهو نائم ، وقبل أن يذكر له بقية التفاصيل سأله الطبيب :

- هل تحس أنك متعب الأعصاب .

- أنا ؟

- أجل .. هل تحس بما يجعلك تتوهم أنك مصاب بأرق ؟

- ولكنى .. لم .. أقصد .. اننى لا أفهم .

- يا سيدى العزيز .. اهدأ قليلا .. أن زوجتك طلبت منى ألا

أنبيء أحدا بالأمر ..ولكنى أجد من الخير أن أنبئك أنها زارتنى فى هذا الصباح واستشارتنى فى الأمر .

- أى أمر ؟ ! سيرها فى خلال النوم ؟ ولكنها لا يمكن أن تعرف ! .

- هدىء روعك ياسيدى .. انى أفهم المسألة تماما .. لقد قالت لي أنها رأتك مرتين تسير وأنت نائم فأعادتك الى فراشك . واستشارتنى فى أمرك وطلبت منى الكتمان ، فقد خيل اليها أنك لا تعلم بما أنت مصاب به .

ولم ينبس الرجل ببنت شفة فقد عقدت الدهشة لسانه وتملكه خوف شديد ، وأردف الطبيب يقول : انى أعذرك ياسيدى .. فانى تعودت من بعض المرضى أن يعرضوا علىَّ حالتهم كأنها غيرهم .. صديق أو قريب .. لقد وصفت لزوجتك العلاج الذى يمكن اتباعه معك وذكرت لها اسم أخصائى فى هذا الموضوع لكى تأخذك اليه .. فيما اذا - لاقدر الله - ساء الأمر .

وعاد الرجل الى داره وقد تملكه ذعر شديد ، اذ أدرك أن زوجته تريد أن تقضى عليه بنفس السلاح ، وأحس أن المسألة قد أضحت سباقا فى أرض المعركة ، لقد فقد ميزة المبادأة .. وفقد مبدأ السلامة والمفاجأة كل ذلك قد أضحى فى غير جانبه .. وأصبح النضال مكشوفا .. ان الفائز فى هذه المعركة هو الأخف حركة .. والأسرع فى الإجهاز على صاحبه . ولن يمر به سواد الليل الا وهو قاتل أو مقتول .

ووجد أمرأته قد اتكأت على المنضدة وراحت فى اغفاءة ووجد بقايا العشاء مازالت على المائدة .. ومدَّ يده فأمسك بالسكين ، وخطر

له أن يدفعه فى ظهرها .. وليكن ما يكون . ولكنه تمالك نفسه وتسلل الى الشرفة ونظر الى أسفلها نظرة طويلة ثم عاد الى الداخل بعد أن ملأ صدره بنسيم البحر الرطب فأحس بشيء من الهدوء .

وأيقظ المرأة برفق ، ثم سألها لم أنبأت الطبيب أنه يسير أثناء نومه ، واستطاعت المرأة أن تسيطر على أعصابها فلم يبد عليها كثير دهشة ، بل أجابت مسائلة :

- لم أنبأته ؟ لأن المسألة تسبب لى قلقا .. اننى لم أكن أعلم أنك تعرف .. ولكن ما دمت تعلم فسأنبئك بجلية الأمر لقد رأيتك تمشى فى خلال نومك بضع مرات منذ أن حضرنا الى هذا المكان ، ولم يكن الأمر يقلقنى كثيرا حتى أبصرتك ذات مرة تقف فى الشرفة وتميل بجسدك الى أسفل .. فلم أستطيع السكوت وذهبت لاستشارة الطبيب .

وبدأ قولها معقولا .. فانه منذ حضر الى البلدة ، وهو لا يفكر فى شيء سوى الشرفة والسير أثناء النوم أفلا يحتمل أن يكون قولها صحيحا وأنه فعلا يسير أثناء نومه وأنه يخرج الى الشرفة ؟

وأحس برأسه تكاد تتحطم وشعر بجفاف فى حلقه فمد يده الى كوب من الماء جرعه دفعة واحدة ليطفيء به ذلك اللهب الذى فى جوفه ثم ارتمى منهكا على أحد المقاعد وسألته امرأته :

- أتريد قهوة ؟

وقفز الرجل من مقعده كمن لدغته عقرب وصاح فى ذعر :

- لا .. لا .. لا أريد قهوة .

– يا عزيزى ان القهوة قد تعينك على اليقظة حتى لا تلقى بنفسك من الشرفة .

وأحس الرجل بتثاقل فى جسده واسترخاء فى أعضائه وأن النوم يتسلل الى أجفانه ، وحاول أن ينفضه عنه فصاح بصوت متحشرج :

– أنى قد خدرت .. ولكن لا .. لا .. انى لم أضع القهوة على لسانى .

ووصل الى أذنه صوت امرأته ناعما هادئا :

– مخدر فى القهوة ؟ ! كفى أوهاما ياعزيزى .. ألا يوضع المخدر الا فى القهوة .. ألا يوضع فى الماء مثلا ؟ !

وتثاقلت جفون الرجل وبعد لحظة كان يغط فى نومه .

وفى الصباح كانت المرأة تولول فى الشرفة ، وكان جسد زوجها متناثرا بين الصخور على حافة الشاطىء .

كيف مات ؟

لقد قالت زوجته : انه ألقى بنفسه من الشرفة وهو يسير فى نومه .

ولم يستطيع أحد أن يجزم بغير ذلك .

ويح الشقى .. لقد خسر المعركة فى اللحظة الأخيرة وقضى بنفس سلاحه .

لقد راح الرجل ضحية شكه .

اتراه كان يملك فى حياته شيئا من وحدات السعادة ؟

وأجاب صاحبى فى اصرار وعناد :

– أجل .. لقد كان يملك ، ولكنه لم يحاول استهلاكها . لقد استهلكته الوساوس قبل أن يستهلكها .

نفس ظمآى

لقد لاحت لى المرأة ، وقد وقفت لوداعنا ، كالطير الصادى ، أو كالثكلى المحرومـــــــــــــــــــــة ...

كانت : العربة جحيما يستعر أواره ، فقد سلطت علينا شمس الظهيرة ألسنة من اللهب أحرقتنا بشواظها وقد وقفنا على مدخل طنطا فى طريقنا الى الاسكندرية ، وأقبل زوجى يتخذ مكانه من العربة بعد أن أتم حديثه فى التليفون من الحانوت الذى وقفنا أمامه وقال :

- انهم يصرون على أن نقضى ليلتنا عندهم .

- أى أحمق أنت ! ان هذا لن يكون .

- وماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ لقد قلت لها أننا سنمكث حتى نتناول الغداء ثم نرحل بعد ذلك ولكنها أصرت على أن نبيت .. ماذا أقول لها ؟

– قل لها ان البنت متعبة ، وأن الحقائب مكدسة فى العربة .. وأننا لابد أن نكون الليلة فى الاسكندرية .. أجل من المحال أن نبيت هنا .

– قولى لها أنت ذلك عندما نصل .. فانى شخصيا أكثر منك رغبة فى الرحيل .. ولكنى لم أستطع من الحاحها فكاكا .

وتحركت بنا العربة متجهة الى بيت عمته .. ولم أكن قد رأيتها من قبل .. وان كنت أعلم من زوجى أنها هى التى قامت بتربيته منذ الصغر وأنه قضى فى بيتها طفولته وصباه ولم يتركها الى القاهرة الا عند دخوله الجامعة . وساد الصمت برهة شرد فيها ذهنى حتى سألته فجأة :

– ما اسم ابنتها ؟ .. لقد نسيته .

– عائدة ! ..

– أهذه هى التى يقولون عنها أنها مجنونة بحبك ؟

– لا تكونى سخيفة .. هل صدقت قول ذلك الأحمق أخى وهو يعرض عليك مجموعة صور الأصدقاء والأقرباء ؟

ونظرت الى وجهه نظرة فاحصة ثم أجبته مستضحكة :

– لا تظننى غيورة .. فما سألتك الا من باب العلم بالشىء .. كم عمرها الآن .. عمرها الحقيقى ؟

– فوق الثلاثين .. أربعة وثلاثون .. خمسة وثلاثون .. لا أذكر باضبط .

– ألم تتزوج بعد ؟

- أجل .. انها تعمل بالتدريس .

- اذا فهذا يؤكد قولهم انها مجنونة بحبك .

فانطلق يقهقه وقد أمسك بعجلة القيادة وأخذ يضغط الكلاكس بين آونة وأخرى ، فقد كانت الشوارع مزدحمة بالمارة والعربات حتى انتهينا الى الطرف الآخر من المدينة .. فوقف أمام دار أشرفت على الحقول وأحاطت بها أشجار الكافور العالية حتى كادت تخفيها عن الأبصار ، ومدت ابنتنا زيزى عنقها ، ثم قفزت من العربة ، ونظرت بدورى الى مرآة فى حقيبتى وأصلحت زينتى قدر ما أستطعت .. لقد كنت واثقة من أن القوم متشوقون الى رؤيتى ماذا اختار زوجى لنفسه فاردت أن أؤكد لهم أنه قد أحسن الاختيار ، ونظر الىَّ زوجى نظرة سريعة . ثم قال محذرا :

- أخرجى من رأسك تلك السخافة التى حدثتنى عنها .. كونى عاقلة .

وعبرنا الحديقة المهملة المتكاثفة الأشجار ، وقادنا الممر الضيق الى شرفة تقوم على مدخل الدار ، جلست فيها عجوز مترهلة لم تكد تبصرنا حتى هبت واقفة بقدر ما يسمح لها ثقلها . وأقبلت علينا مرحبة آخذة زوجى بين ذراعيها فى شوق ولهفة .. ثم انتقلت الىَّ تقبلنى وتغدق علىَّ ألفاظ الترحيب ، ثم حملت ابنتى قائلة : (ما شاء اللّه ! ما شاء اللّه) . ودلفنا الى الدار .. دار قديمة ذات أسقف عالية ، وجدر سميكة .. تشع فى أنحائها ظلمة لا تقوى على تبديدها أضواء النوافذ حتى فى أشد أوقات النهار ضياء ، ولم يكن فى انتظارنا سوى العمة فقط ، فلم تكن ابنتها قد عادت بعد من المدرسة وأحسست بشىء من الخيبة فقد كانت بى لهفة الى رؤيتها .. لست

أدرى ماذا كان مبعثها ، أتراني كنت أرغب فى أن أقارنها بنفسى حتى أتأكد من أننى خير منها ؟ . أم تراها مجرد رغبة فى أن أرى تلك التى يقولون عنها أنها مجنونة بحب زوجى ؟

على أى حال .. لم تمض فترة قصيرة حتى أحسست وقع قدميها على أرض الحديقة ، ثم الشرفة .. ثم رأيت الباب يدفع ووجدتها تقف به .. وثبت بها بصرى أصوِّب اليها نظرات فاحصة باحثة .. فرأيتها قد أخذت عندما وقع بصرها علينا ، أعنى على زوجى ، وعقدت الدهشة لسانها فلم تنبس ببنت شفة ، ورأيتها امرأة نحيفة القوام ، رقيقة الجسد ، وقد تسللت الشعيرات البيضاء الى رأسها ، وبدت بعض الغضون حول عينيها وحول شفتيها ، ومع ذلك فقد كانت جميلة ، وعندما تقول امرأة عن غريمة لها أنها جميلة ، فتأكد أنها جميلة جدا .

ومضت بضع دقائق قبل أن يهدأ روعها فتقبل علينا ، وقد برق السرور فى عينيها ، وشاعت الفرحة فى وجهها ، ومدت يدها فشدت على يد زوجى بشوق ولهفة قائلة :

- هذه السنون الطوال لم تغير منك شيئا .. أنت كما أنت !

ومضت برهة وهى تحملق فى وجهه ، وقد أمسكت يده بيدها حتى اضطرت أمها أن تنبهها بتقديمنا اليها : أنا وابنتى .. فأقبلت علىَّ مرحبة ، ثم رفعت الطفلة بين يديها فقبلتها بحنان . .

وأعدت المائدة ، وجلسنا للطعام بعد أن أرتنا ابنة العمة الحجرة المخصصة لنا لكى نبدل ثيابنا .. وبدأنا الطعام .. ولم يكن بالأمر الهين أولا لكثرته ، وثانيا لفرط الحاح العمة أن نأكل ، حتى

لكأننا لم نذق الطعام منذ خلقنا ، فأتينا لزيارتها وكأننا - كما يقولون - نأكل آخر زادنا ، وزاد الأكل ثقلا اضطرارى الى الاشتراك فى حديث لايعنينى فى قليل ولا كثير ، كان معظمه يدور حول ذكريات قديمة يستعيدون ذكرها .. ذكريات لا ناقة لى فيها ولا جمل ، ولم أجد خيرا من الشرود أستعين به على تفاهة حديثهم حتى سمعت العمة تقول :

- لست أدرى الى متى ستستمر فى التدريس ، لعلها تنوى أن تقضى عمرها كذلك ! .. لقد تزوجت وأنا فى العشرين من عمرى .. وقد جاوزت هى الثلاثين ولا تريد الزواج .. أى قيمة للمرأة بلا زواج ؟ .

واجابتها الإبنة فى شىء من الحدة والألم :

- قلت لك أن لا داعى لهذا الحديث !

وتبينت فى صوتها مرارة استدرت عليها عطفى لأول مرة ، وأعقب قولها سكون ثقيل حاولنا أن نقطعه بأقوال تدير دفة الحديث الى اتجاه آخر ولكننا لم نفلح ، فقد كان السكون يعود فيهبط علينا ويشملنا فى جو ثقيل مرير .

وتركنا المائدة ، وقضينا بقية اليوم فى تفاهات لا تستحق الذكر ، وأقبل الليل وكنت أحس برغبة شديدة فى النوم ، فحمدت الله عندما قالت العمة أنهم تعودوا الذهاب الى الفراش فى وقت مبكر ، وآوينا الى مضاجعنا وكانت ابنتها قد سبقتنا الى حجرتنا ورأيتها تقف ببابها مترددة ، ثم دلفت الى الداخل وأخذت تتشاغل باصلاح الوسائد التى لم تكن فى حاجة الى اصلاح وبدا عليها كأنما قد دفعها دافع لا تدرى كنهه ، أو كأنما قد نسيت ما كانت تود فعله ، وأخيرا اقتربت من فراش الطفلة التى

استغرقت فى النوم وطبعت على جبينها قبلة رقيقة ، ثم قالت وهى تغادر الغرفة :

- تصبحون على خير ، ولو احتجتم الى شىء ، فأنا فى خدمتكم .. حجرتى فى نهاية الدهليز ، بجوار الحمام .

وسرعان ما استغرقنا فى نوم عميق لم أفق منه الا على صوت بكاء الطفلة ، وقد استيقظت تنادينى فى ساعة متأخرة من الليل ، وأضأت الحجرة وذهبت الى الطفلة وكانت عطشى فحملتها الى الحمام لتشرب وتقضى حاجة .

وخرجت من الحمام حاملة الطفلة وأنا أسير على أطراف أصابعى حتى لا أوقظ أهل الدار ، ولكن لم أكد أسير بضع خطوات حتى وصل الى سمعى صوت عجيب .. صوت بكاء لا شك فيه .. بكاء جريح .. أو نحيب منخفض أشبه بأنين حيوان يحتضر .

وأحسست بالطفلة تحتضنى وتدفعنى تجاه الحجرة ، فأفقت لنفسى ، واتجهت بسرعة الى حجرتنا ، فأغلقت بابها ووضعت الطفلة فى فراشها ، آمرة اياها بالنوم .. ثم ذهبت الى زوجى فأيقظته .. ونظر الى وقد أغمض عينيه نصف اغماضة وتساءل ما الأمر ، فأنبأته بما سمعت ، وأن الصوت صادر من حجرة ابنة عمته .

ولم يستطيع زوجى أن يخفى علامات الذهول والألم التى علت وجهه ، ورأيته قد جلس فى الفراش ودفن رأسه بين ركبتيه واستغرق فى شرود عميق . وأطفأت النور بعد برهة واستلقينا فى الفراش . ولكن لم يغمض لى جفن بعد ذلك لحظة واحدة فقد كان صوت النحيب لا يزال يرن فى أذنى رغم أنى لم أعد أسمعه ، ولا أظن النوم قد زار عينيه

هو الآخر فقد أحسست به يتقلب كالمحموم بقية الليل .

ونهضنا فى الصباح المبكر نعد أنفسنا للرحيل ، ووجدنا عائدة قد أعدت لنا مائدة الإفطار وجلست تنتظر . ولم أر فى عينها احمرارا أو ذبولا أو أية علامة للبكاء . حتى خيل الىَّ أنى قد خدعت ، وأن الأمر كله لا يعدو أوهاما أو أحلاما .. وبقيت حيرى حتى جلست للإفطار وجرت بيننا أحاديث عابرة تافهة ، ثم سمعت الطفلة تقول فجأة :

- بابا .. من الذى كان يبكى فى الليل ؟

وهنا رأيت عائدة تطرق برأسها ، واندفع الدم الى وجهها فصبغة بلون الأرجوان ، وأحسست بقلبى يفيض عطفا عليها ، وأسرعت أدير دفة الحديث وأضيع ذلك الأثر الذى تركه ذلك القول الأحمق الذى قالته الطفلة .

وانتهينا من الإفطار ، وبدأنا نغادر الدار ، ووقفت المرأتان لوداعنا ، ولست أدرى ما الذى جعلنى أرقب ابنة العمة مراقبة دقيقة .. أهى الرغبة الشريرة الكامنة فى نفس الإنسان والتى تجعله أحيانا يطرب لمنظر صريع يتخبط فى دمائه .. أم هى الرغبة التى تجعل الإنسان يتمتع بصراع الثيران ورؤية الثور ذبيحا على الأرض ، أم تراها غيرة الزوجة حتى ممن لا تستحق الغيرة ، ورأيت زوجى يحاول أن يخلق من الإرتباك الذى شملنا جوا مرحا فأخذ يلقى النكات ، وخرجت معنا لتوصلنا الى خارج الحديقة تاركة أمها فى الشرفة ، ومدَّت يدها الينا فى سكون دون أن تقول كلمة .

وتحركت بنا العربة ، وهى واقفة تنظر الينا نظرة شاردة حتى اختفينا فى منحنى الطريق . وشرد بى الذهن برهة ثم نظرت اليه وقد

أمسك بعجلة القيادة وبدا بدوره تائه الفكر ، وقلت له فجأة :

- قل الحق .. ألم يكن بينكم حب ؟

- لا تشغلى رأسك بهذا الأمر . لاتكونى تافهة .

- أنا لست تافهة ، قل أكان بينكما حب ؟

- قلت لك ..لا .

- أنت كاذب . لما لم تتزوج اذن حتى الآن ؟

ونظر الىَّ نظرة طويلة وأطلق زفرة حارة وأجاب :

- أيهمك أن تعرفى ؟

- أجل ؟

- انها لم تتزوج ، لأنها لا تريد أن تتزوج سواى .

- اذا فلما لم تتزوجها ؟

- لأنها رفضت .

- صحت فى دهشة .. هى التى رفضت ؟

أجل لقد طلبت منها الزواج فأبت ، لأنها مريضة بصدرها ، وتوسلت اليها كثيرا ، ولكنها أصرت على الرفض . وكانت تقول أن نهايتهاقريبة .

يا للمرأة المسكينة ؟ لقد تملكنى عليها لوعة أثارت شجنى واستدرت عبراتى ، كم وددت وقتذاك لو احتويتها بين ذراعى ، وضممتها الى صدرى . والتفت الى زوجى قائلة :

- ولم كنت تعاملها بمثل هذا البرود ؟

- وماذا يفيدنى أن أكون معها غير ذلك .. سوى اثارتك .. هذا شىء مضى .. ومن العبث أن نخرج من الأحداث حطامه .

ولكنى لم أر ما رآه ، لقد لاحت لى المرأة وقد وقفت لوداعنا كالطير الصادى ، أو كالثكلى المحرومة ، وأمسكت بذراع زوجى وقلت له فجأة :

- عد بنا .

- الى بيت عمتك !

- ولم ؟

- وقل انك نسيت شيئا ، وكن معها أكثر ترفقا وودعها بخير مما ودعتها به .

- ونظر الىَّ زوجى فى دهشة قائلا .. لا تكون حمقاء .

ولكنى أصررت .. فعاد بنا .



أنا حمقاء ! أيكون أحمق من لديه مال وفير يزيد عن حاجته فيأبى الا أن يعطى منه شيئا لمحروم ؟ أيكون أحمق من بلَّ صداه ، وأشبع نهمه ، فأراد أن يمنح الظامىء الساغب شيئا من الماء والطعام يقيم أوده ويطفى غلته ؟

★ ★ ★

وعدنا الى الدار وغاب زوجى فيها برهة ثم عاد الىَّ ، ومرة ثانية

وقفت المرأة لوداعنا ، وأحسست من وجهها أنى قد بعثت اليه حسنة ورواءه . واستمرت تلوح لنا بيدها حتى اختفينا ، ولم أرها بعد ذلك .. فقد أتانا نبأ وفاتها بداء صدرها بعد بضعة أشهر : أترى المسكينة قد صعدت الى السماء قريرة العين ؟



نفس وصدى

لا تتوقعي لنفسك مثل هذه الخاتمة .. احذرى أن تعللى نفسك بالصدى فانه كثيرا ما يعجز عن الوصول الى قرارة النفوس وأعماق القلوب .

(يقولون ليلى بالعراق مريضة) .. ويقولون أيضا أن الآنسة (م) بالعراق حزينة . ولا أظن الآنسة ليلى المريضة بالعراق تهمنى الآن فى كثير أو قليل ، فقد طال العهد بمرضها .. وأغلب ظنى أنها اما أن تكون الآن قد شفيت واما أن تكون قد توفاها اللّه .. فاذا لم يكن هذا أو ذاك .. فلا بد أن الداء قد أزمن بها حتى ألفته ، وحتى بات يستعصى علاجه .. وعلى أية حال .. لسنا مسئولين عنها .. فهى فى غير (دائرة الاختصاص) .

أما التى تهمنا فعلا .. فهى الآنسة (م) الحائرة ببغداد .. فقد طلبت منى أن أكون (الطبيب المداوى) .. زاعمة أن دواءها فى قصة .. أو - على الأصح - عزاءها فى قصة .. وفى العزاء لنفسر

يائسة دواء وشفاء .. وقد ترددت كثيرا قبل أن أكتب .. فما ادعيت لنفسى الاشتغال بالطب (طب النفس) ولكنى أحسست بكلماتها تفيض لوعة وكرهت أن أترك نفسا ملتاعة تطلب منى الغوث فأعتذر بالعجز والتقصير . وقلت : لم أحاول ؟ فقد يهيء اللّه لها على يدى العزاء ثم الشفاء .. ومن يدرى .. فقد (يضع سرّه فى أضعف خلقه) .

وأمسكت بالرسالة وأخذت أعيد قراءتها .. أستلهمها وأستوحيها . حتى انتهى بى المطاف الى خاتمتها : (وهكذا أتقدم اليك برسالتى هذه ، يدفعها الرجا ويمنعها اليأس .. باحثة عن السلوان .. متلهفة على شيء أدفع به ذلك الحزن الذى يعتمل فى نفسى .. أترنى سأجد عندك العزاء ؟ أم ترى حظى منك سيكون الإهمال كما كان حظى من صاحبى ؟) وقلت لنفسى : حاشاى أن تكون بضاعتى اهمالا .. ثم بدأت الكتابة .

هى بيضاء شقراء ، فى تقاطيعها دقة ، وفى ملامحها رقة ، يشع من عينيها الخضراوين الصافيتين بريق ولألاء ، ويلوح فى بشرتها الغضة البضة نقاء وصفاء .. ويضىء من شعرها الذهبى سناء وضياء .. فهى تبدو للمرء كأنها شيء مشرق .. فى بسمتها اشراقة وفى كل لفتة من لفتاتها اشراقة .

ولم يكن باطنهابأقل أشراقا من ظاهرها .. ولم يكن الضوء الذى يشع من وجههاليزيد عن الضوء الذى يغمر قلبها ، وما كان نقاء بشرتها وصفاء عينيها بأكثر من نقاء نفسها وصفاء روحها .

لقيته أول مرة فى عيادته عندما ذهبت تقود اليه أمها المريضة وكانت تحس فى ذهابها بالكثير من الرهبة ولكنه أضاعها بجميل لقائه ورقيق كلماته .. ثم تكررت الزيارات بعد ذلك ، فلم تعد تحس بشىء من تلك الخشية أو الرهبة التى تملكتها أول مرة .. بل قد لا أكون مخطئا

اذا ما قلت انها بدأت تستبدل بذلك الشعور شعورا بالغبطة والسرور ، وأن زيارة الطبيب قد أضحت من الأمور المحببة الى نفسها .. ولا أظننى أظلمها كثيرا اذا ما قلت أيضا أنها بدأت تستريح الى مرض أمها .. وأنها - فيما بينها وبين نفسها - قد باتت لا تتعجل الشفاء .. حتى لا تحرم من تلك الزيارات .

ورغم ما قد يراه القراء فى استراحة الفتاة الى مرض أمها من جحود وأنانية .. فانى أراها معذورة كل العذر ؛ وليس على القراء لكى يلتمسون لها العذر كما التمست ، الا أن يفهموها كما فهمتها .. وكما سأحاول أن أصفها وأصف مشاعرها التى تصطخب فى نفسها .

كانت الفتاة فى تلك المرحلة من العمر التى تحس فيها كل فتاة أنها تنتظر شيئا .. أو تتوقع شيئا .. أو تتمنى شيئا .. تتمنى شيئا جميلا محببا لا يستطيع أن تحدده أو تدرى كنهه ، ولكنها تحس من ذلك الانتظار أو التوقع أو التمنى لذة عجيبة ، وتتوهم فى ذلك الشيء المجهول متعة الحياة وسعادة ، العمر .. وعندما أقول كل فتاة .. أقصد أولئك الفتيات الطاهرات الشبيهات بالورود البيضاء التى لم تتفتح بعد .. ولا أقصد قد ذلك النوع من الفتيات اللاهيات العابثات .. اللاتى يعرفن أنفسهن كما أعرفهن ويعرفهن غيرى .. واللاتى ربما تعجلن متعة ذلك الشيء حتى قبل أن ينتظرنه أو يتوقعنه أو يتمنينه . أجل انى ما قصدت هذا النوع من الفتيات ، ولكن اقصد تلك الفتاة التى تحس فى هذه المرحلة من العمر .. كما تحس الروح النقية الصالحة وهى تقف بأبواب الجنة وتنتظر النعيم المقبل المجهول .

كانت الفتاة مليئة الذهن بما تقرأه عن الحب .. وعن متعة

الحب .. ونشوة الحب .. وكانت تحس بشيء كثير من المتعة والنشوة من مجرد القراءة .. وكانت تبنى فى رأسها قصورا ذهبية من الأحلام الحلوة فتجعل منها مكانا خاليا لشخص لم يأت بعد ولكنه لابد آت .. وتهيء له من صدرها ملجأ يحويه جنباته .

ولست أجد ما أشبه به قلب الفتاة فى ذلك الوقت خيرا من أرض خصبة طيبة .. قد جهزت بالحرث والفلاحة .. وصادفت جوا طيبا للزرع .. وجرت المياه فى قنواتها سيالة متدفقة .. فلم يبق الا البذرة تغرس فيها ، حتى تورق وتزدهر .

بهذا القلب الخصب والنفس التى تنتظر وتتوقع وتتمنى . صادفت الفتاة الطبيب الشاب ، أو - لكى نكمل التشبيه - صادفت البذرة الطيبة . ولم تكن لتظن أنها قد أصيبت بالحب فعلا ، فقد كانت تتوهم فى الحب حدثا جليلا ، يختلف كثيرا عن هذا الشعور الذى أخذ يتسرّب الى النفس بهذه الطريقة غير المحسوسة ، والذى تسلل الى القلب تسلل النوم الى جفون .. فقد بدأ الأمر معها ، بأن صادف منظره قبولا فى نفسها وأحست من أدبه ورقته ارتياحا واطمئنانا ، وعندما عادت الى دارها وجدت نفسها تستعيد صورته فى رأسها وتشعر من هذه الاستعادة بشيء من المتعة .. وقبل أن تذهب للزيارة الثانية أطالت وقوفها أمام المرآة ، وقد تملكها شعور يشبه كثيرا ذلك الشعور الذى يحس به الجندى وهو على وشك أن يخوض غمار معركة لأول مرة .

ومرت الأيام بعد ذلك .. فاذا بزيارتها للطبيب تحتل من نفسها موقعا هاما ، واذا بها تنتظرها فى كثير من اللهفة والتشوق .. تماما كما كانت تنتظر مواعيد النزهة واللهو فى طفولتها .

وبدأت الفتاة تحس أن الفتى أخذ يشغل منها كل تفكيرها وأنه قد

أخذ يتحور فى نظرها حتى بات قريب الشبه جدا بذلك الشخص الذى كانت تصوره لنفسها فى أوهامها .. والذى كانت تعد له عرشا فى قصور أحلامها ، وأنه أضحى أكثر الناس قدرة على تحقيق تلك السعادة التى كانت تتوقعها وتتمناها . واعترفت فيما بينها وبين نفسها أنها لابد وأن تكون قد أصيبت بالحب ، وأحست أن الحب فعلا شيء ممتع .. فقد شملها بسعادة دائمة ، ونعيم مستمر ، تلقى صاحبها فتسعدها رؤيته ، وتفارقه فتنعم بالتفكير فيه .

وهكذا أخذت الفتاة تمر بالمرحلة الأولى للحب ، وأقصد بالمرحلة الأولى تلك المرحلة السلبية التى يكون نعيم الإنسان فيها ما يزال من صنع نفسه ، ويكون الحب فيها منطويا فى صدره ، وليس لصاحبه فى سعادته أثر ايجابى .. بل يكون العاشق فيها أشبه بعباد الأصنام ، يعبدونها ولا تكاد تحس بوجودهم .

واستمرت الفتاة تنعم بالمرحلة الأولى وهى قانعة راضية ، ولم تحاول قط أن تتطلع الى ما هو أكثر ، فقد كانت شديدة الحياء ، كثيرة الارتباك ، اذا ما ضمها واياه مجلس واحد ، ورغم أنه كان كثير التقرب منها والتودد اليها ، ورغم أن غريزة الأنثى التى كانت تنبئها بأنه يكنً لها اهتماما خاصا ، رغم كل ذلك ، لم تكن تتخيل قط كيف أن تبدأ بينها وبينه أحاديث الحب التى قرأت عنها ، أو كيف يمكن أنْ تفصح بلسانها عن تلك المشاعر التى تحس بها فى قرارة نفسها ، لقد كانت تشعر باضطراب شديد لمجرد تفكيرها فى الخروج عن نطاق الصمت والخجل الذى أحاطت به نفسها ، وان كانت تتمنى هذا الخروج .

أجل .. لقد كانت الفتاة تتلهف الى المرحلة الثانية .. ولكنها لم تدر كيف تبدأ ، وكانت تحس بالعجز عن الخروج من المرحلة الأولى ، حتى

كانت ذات ليلة فاذا بالمرحلة الثانية قد بدأت فجأة ، دون توقع منها ولا انتظار .

كانت ليلة دافئة من ليالى الربيع المبكر .. التى تعقب ليالى الشتاء الجامدة الباردة ، فيحس لها المرء بفرحة لقاء الغائب الذى أقبل على غير ترقب ، وينعم فيها بدفء طال اليه شوقه .. هذه الليالى التى يطلع علينا صباحها ، فاذا بالعصارة قد جرت فى غصون الأشجار بعد طول ركود .. واذا بالأغصان العارية الجرداء قد نبتت فيها الأوراق الخضر كأن الحياة قد بعثت فيها فجأة بعد طول جمود .

فى ليلة من تلك الليالى التى لا أظن اللّه قد خلقها الا لكى تكون ليلة حب .. ذهبت الفتاة الى صاحبها لكى تستشيره فى نوبة طارئة أصابت أمها .. والتقى الإثنان وحيدين لأول مرة .. وأسرت الفتاة اليه فى كلمات مضطربة ما أتت لأجله . فطمأنها فى صوت يفيض رقة ، ووصف لها دواء تلك النوبة .. ومدت اليه يدها مودعة وقد همت بالانصراف .

وضغط على يدها ضغطا خفيفا .. ولم يتركها تفلت من يده ؛ بل استمرَّ ممسكا بها ثم نظر فى عينيها نظرة جعلتها تحس برعدة تسرى فى جسدها .. وسادت فترة سكون .. لا كالسكون الذى يسبق العاصفة .. فمن الجور أن نسمى ما تلا ذلك عاصفة الا اذا كانت ريح العاصفة تغريدا وترنيما ، والا اذا كان هبوبها يترك الناس فى نشوة وثمل .

كانت نظرة الفتى تفيض بالحب .. ووقف الإثنان وراء النافذة وقد أمسك بيدها .. ولم يحس كلاهما أن هناك حاجة للكلام .. فقد كان فى حديث العيون فصاحة تغنى عن كل بيان ، وكان كل ما حولهما يكاد ينطق بألفاظ الحب والوله ، ضوء القمر الفضى الذى انساب فى لين

وهدوء كأن أشعته جدول يترقرق ، وشجرة المشمش التى تسللت أغصانها المحملة بالزهر الأبيض من خلال النافذة .. والنسمات الخفيفة التى تداعب أوراق الشجر .. أجل لقد كان للمكان والزمان سحر فى نفسيهما عجيب .

وتحدثَّ الفتى .. فكان لحديثه نشوة فى رأسها جعلتها كالحالمة .. ثم تحدثت هى .. فوجدت نفسها تتحدث فى سهولة لم تكن تتوقعها من قبل .. ومرت ساعة لم يزد فيها ما جرى بينهما على تلامس الأيدى وتبادل الحديث .. ومع ذلك فقد كانت ساعة لا شك أن الشاعر قد عناها بقوله : (قد يهون العمر الا ساعة) .

وأخيرا ودعته الفتاة .. ووقف أمامها وهو لا يود أن يترك يدها .. ثم طلب منها أن تعطيه شيئا كى يذكره دائما بهذه اللحظة الجميلة .. ومدت الفتاة يدها فقطعت بضعة أغصان من زهر المشمش ثم وضعتها فى آنية للزهور قد وضعت على مكتبه وهمست فى أذنه (سأجددها لك كل عام فى مثل هذه الليلة) . ثم شدت على يده .. وافترقا .

وهكذا بدأت المرحلة الثانية من مراحل الحب ، وهى المرحلة التى يكون أقصى متعة العشاق فيها تبادل النظرات أو تبادل كلمات ، والتى يحسون فيها أن سعادتهم قد جاوزت الحد المألوف اذا ما جلسوا على غدير أو تحت شجرة بعيدين عن أعين الرقباء ، وتشابكت أيديهم ، ثم أخذوا يحملون بأمانيهم وآمالهم وقد بدت لهم الحياة باسمة ضاحكة والمستقبل مزدهرا .

ولكن هذه المرحلة الثانية - رغم كونها أجمل وأمتع مراحل الحب - هى غالبا ما تكون أقصرها أجلا .. لأن العاشق هو أشد أنواع

الإنسان طمعا .. فهو أبدا يطلب المزيد .. شديد النهم .. لا يشبع من جوع ولا يروى من ظمأ .

ولم يكن عشيقانا خيرا من سواهما من العشاق .. فسرعان ما انتقلا من المرحلة الثانية الى المرحلة الثالثة ، والأخيرة .. مرحلة التقبيل واللمس .. وهى مرحلة شديدة الخطورة .. يسهل فيها الإنزلاق والتردى .

وفى هذه المرحلة يتهم الرجل دائما بأنه الطرف الأسوأ والأكثر شرورا .. أو الطرف المعتدى .. وأن المرأة هى الطرف الذى وقع تحت تأثير الإغراء .. لا لشىء الا أن الرجل يكون أكثر تسرعا .. فيبدأ هو بطلب المتعة ، وتقف المرأة موقف المنتظر المتمنع .

ولست أرى فى وصف تلك المرحلة .. المرحلة الثالثة ، خيرا مما كتبت الفتاة نفسها فى وصفها . (لقد طبع على شفتى أول قبلة .. قَبلة أودعها روحه .. وحاولت أن أقاوم .. ولكن أنَّى لى المقاومة .. بل لم المقاومة ؟ لقد كان الإغراء شديدا .. ذراعاه القويتان ، وأنفاسه المتلهبة ، ووجهه الذى طالما نعمت به فى أحلام الليالى .. لقد كان من الحمق أن أقاوم فتركت نفسى مسترخية بين ذراعيه وأغمضت عينى فى انتظار المزيد من القبلات .. فقبلنى حتى ارتوى ، وحتى ارتويت .

ومنذ ذلك الوقت أحسست أنى قد أصبحت أسيرته .. لا أستطيع الابتعاد عنه .. أحوم حوله كما تحوم الفراشة حول النار .. ورأيت أنه قد بدأ يتطور .. ولم يعد يمتع بالحديث أو يقنع باللمس أو يرضى بالقبل ، بل أخذ يتطلع الى متعة الجسد .. الجسد الدافىء الذى يحس حرارته بين يديه .. لقد أراد منى أن أعطيه كل ما أملك . وخشيت أن أعطيه كل

ما أملك فلا يبقى لى شىء .. حتى ولا هو .. لقد خشيت أن تحل النهاية . فصممت على المقاومة) .

ومضى عام على لقائهما فى تلك الليلة المقمرة الدافئة .. وكان الفتى ما يزال يحتفظ فى الآنية بأغصان المشمش الجرداء بعد أن تساقطت عنها الأزهار .. ليذكر بها الفتاة وليذكر اللحظة الجميلة .. والتقيا فى نفس الموعد وفى نفس الساعة ، فقطعت الفتاة بضعة أغصان جديدة محملة بالزهور البيضاء ، ووضعتها فى الآنية مكان الغصون الذابلة .

ومضى عام آخر ، واذا بالفتاة تشعر فى نهايته بأن طيرها على وشك الإفلات .. فقد بدأت تحس منه بفتور لم تتعوده . ولم تعد ترى منه تلك اللهفة وذلك الشوق .. وعندما حلَّ موعد الليلة التى تعودا أن يحتفلا فيها بذكرى تلك اللحظات الجميلة التى بدأ فيها حبهما . لم يدعها للقائه كما تعود .

وأرادت أن تفاجئه ، فقطعت أغصان المشمش الغضة من الحديقة قبل أن تدخل الدار .. ثم طرقت الباب .. فاذا به يلقاها فى شىء من الدهش والفتور ، ثم نظرت الى آنية الزهور ، فاذا بها لا تجد الأغصان القديمة ، بل حلت محلها بعض الورود .. !

وهزت رأسها متسائلة وقد تملكتها لوعة وأسى .. فأجابها ببساطة قائلا : ان منظر الأغصان الجرداء العارية ليس به شىء من الجمال ، وأنه رماها منذ زمن طويل .

وأحست الفتاة أن علاقتها قد شارفت النهاية .. فانسحبت ببطء من الغرفة بعد أن انتثرت الزهور من يديها على الأرض .. ولم يحاول الفتى

أن يستبقيها . ومضى العام الثالث والفتاة منطوية على نفسها وقد تملكها اليأس وعصف بها الحزن ، والفتى منصرف الى حب جديد ، وقد نسي أو تناسى فتاته الأولى .

وفى ذات ليلة .. والفتى يهم بأن يغادر الدار الى موعد مع صاحبته الجديدة ، واذا به يسمع طرقا على الباب .. واذا بالطارق خادمة الفتاة تنبئه بأن سيدتها مريضة .. وتردد الفتى برهة فقد ظن أن مرض الفتاة ليس الا تمارضا لاستدراجه وخشى أن يضيع موعده مع صاحبته .. فوقف أمام النافذة يفكر .. الى أيتهما يذهب ؟

وسقط على وجهه ضوء القمر ، ووصل الى أذنه حفيف الأوراق يداعبها النسيم .. وأحس بشيء يتسلل من النافذة ويكاد يلامس وجهه . وتحسسه بيده فاذا به أغصان المشمش المحملة بالزهر الأبيض .. ورأى ذهنه يعود به بعيدا الى ليلة تشابه هذه الليلة وخيل اليه وقتئذ أنه يسمع صدى لصوت .. صوت جميل محبب .. واستهواه الصدى .. وتملكته نشوة عجيبة ، وتذكر تلك اللحظة الجميلة التى بدأ فيها حبه الأول .. وأحس أنه يرتجف من فرط الحنين .. ولم يشعر الا وهو يمد يده فيقطع بضعة أغصان ويحملها فى سكون ويسير خلف الخادمة .. لقد أحس وقتئذ بأن الفتاة المريضة هى كل شيء فى هذه الحياة .

يا للصدى العجيب .. ويالتأثيره السحرى فى نفس الفتى ! لقد أعاده الى فتاته بعد طول هجر ونسيان .. وأقبل عليها بغصون الزهور .. فكانت لها بلسما شافيا .



والى هنا انتهت القصة .. قصة (الصدى) .. ولكن بقى لنا كلمة

قصيرة مع الآنسة (م) الحائرة ببغداد موحية هذه القصة وملهمتها .

لا شك أيتها الحائرة أنك قد رأيت مبلغ ما فى قصتى من قصتك ولا شك أنك قد أدركت أن الخاتمة قد قصدت بها لك بعض العزاء ، وللقراء بعض الإرضاء ، ولكنى أحذرك أن تتوقعى لقصتك مثل هذه الخاتمة ... وأحذرك أن تعللى نفسك بالصدى لكى يعيد اليك صاحبك لأنه كثيرا ما يعجز عن الوصول الى قرارة النفوس وأعماق القلوب .

وكل ما أنصحك به هو أن تقولى لصاحبك ولنفسك ذلك القول الذى قرأته لأبى ذات يوم صباح .. ان لذائد الحياة أكثر من أن يضرها فقدك . كذلك فى بقية الزهر عزاء عن النرجس .. أغمض عينيك ما استطعت . ان فى غيرها من العيون ما يشغلنا الى الأبد .. ضلة للمرء يحصر روحه فى فرد لا يرى فى الخليقة غيره .. لقد أنكر قدرة اللّه الا فى ذلك الفرد .. قتل الإنسان ما أكفره) .



نفس جميلة

هذه قصة انسان لست أجد ما ألخص به وصفه .. خيرا من أنه جميل النفس حلو الباطن .

ماأوجع : الحياة ياأخى .. وما أشبهنا فيها براكب صهوة جواد جامح هائم .. لا يستريح أو يلقى بنا الى التهلكة) .

بهذا القول بدأتنى محدثتى وهى تقرع بكأسها المنضدة بعد أن أفرغت خمرها فى جوفها مرة واحدة ، ونظرت الىَّ بعينين أذبلهما السهر ، وتخللت خيوطهما شبكة من خطوط حمراء خطها الإفراط والإنهاك .. كما خط فى جبينها تجاعيد مبكرة استبق بها الجهد والتعب يد السنين والهرم .

وعادت تصب الخمر كأسها وكأسى .. ورأيتها تمسك رأسها وتضغط جبينها بأصابعها كأنها تعتصر ذهنها وأردفت فى مرارة :

– لشد ما أبغضها ، وأبغض نفسى ، وأبغض الناس !

- خففى عنك .. فان ما بك سحابة حزن لا تلبث أن تنقشع .. ونوبة هم واكتئاب لا تخلو منها نفس انسان .

- نوبة دائمة .. وسحابة تهمى ولا تنقشع .. وتملأ النفس بالدياجير ولا تتبدد .. آه لو نعطى فى الحياة فرصة أخرى .

- ما أظننا نكون خيرا مما كنا .

- هراء .. ان شر ما فى الحياة هو أننا نعيش مرة واحدة ، نحن نندفع فيها بمشاعر خاطئة .. ونجرى وراء سراب خلب فلا نكاد نستبين أمرنا حتى تكون الفرصة قد ولت ، ولا نملك الا السير فى الطريق مهما أدامتنا أشواكه وأحرقنا سعيره .

- ولم لم تسلكى الطريق المعبد من أول الأمر ؟ ما الذى دفعك الى الطريق الشائك ؟

- ومن أنبأنى أنه شائك ؟ اننا لا نعلم الا بعد أن نهوى واذا ما هوينا تعذر الصعود علينا .. اننا لا نتعظ الا بعد أن نكون قد دفعنا ثمن العظة حياتنا .. ونحن لا نملك الا حياة واحدة ، فماذا نفعل بالعظة اذا ما ولت الحياة ؟ ماذا نفعل بها بعد أن أدبر العمر ؟ .

آه لو يبدأ العمر ثانية .. انى لأنكر نفسى فى مستهل الطريق .. فتاة ليس بى من حاجة الى أن أصفها لك .. فقد كنت كما ترانى .. ولكن بلا ذبول ولا نحول .. بل نضرة وازدهار .. وكانت نفسى تزخر بالأمانى الحلوة والأحلام العذبة .. وكنت وحيدة أبوين أنعم منهما بكل ما يستطيعان أن يغدقا علىَّ من حب وحنان .. وكانت الحياة تسير بنا هادئة ناعمة .. ليس فيها ما يسبب لنا أى ضيق أو قلق .

وكان أشد الناس صلة بنا واقبالا علينا من بين أقاربنا العديدين ،

ابن عم يعمل بالتدريس .. ولم يكن يخفى على أبوى ، اذ ذاك ، أنى أنا كنت سر اقباله وسبب تقربه .. ولم يكن الأمر يقلقها .. بل لقد كانا شديدى الترحيب به والإطمئنان اليه .. ولم أكن أشك أنهما ، فى قرارة نفسيهما ، وطدا العزم على قبوله زوجا لى .

ولقد كانا محقين فى الإطمئنان اليه ، فهو انسان لا يملك أى مخلوق الا أن يهبه ثقته واطمئنانه .. انسان تكاد من فرط صفاء نفسه .. ونقاء سريرته ، تستشف ما فى جوفه كأنه صنع من بلور نقى .. انسان حلو الحديث ، لطيف المعشر ، لين الجانب ، رقيق الحاشية . مقبول السمات ، مرح القسمات ، تشيع فى نفسه القناعة والرضا ، ويفيض بهما على من حوله . فلا تملك وأنت تجاوره وتحادثه الا أن تكون راضيا قانعا .. انسان لست أجد ما ألخص به وصفه خيرا من أنه جميل النفس ، حلو الباطن .

وأحسست من أقباله استقرارا نفسيا .. لا أقول أنه حب ، ولكنه هدوء وسكينة فى المشاعر .. فى تلك الفترة التى تبلغ فيها مشاعر الفتاة منتهى القلق والتوتر ما بين الرغبة والتمنى ، وانتظار المجهول الذى تطمح اليه .. والذى تخفيه حجب الغد .

ولم يقل لى أنه أحبنى .. ولكنه كان يفعل ما يجزم بأنى كل شىء فى حياته .. كان يتلهف الى قولى (أريد) حتى يجيبنى الى ما أطلب .. وكان يبدو لى كأن غرضه فى الحياة هو مجرد اسعادى .. وكنت لا أكاد أشكو من داء ألم بى .. أو وعكة أصابتنى حتى يخيل الىَّ أن ألمى قد انتقل اليه مضاعفا ، وآهتى قد أدمت قلبه .

هذا هو ما جعلنى أطمئن اليه وأستقر .. ومن الذى لا يطمئن الى انسان يكن له مثل هذا الحب ؟ وخاصة اذا كان قلبه خاليا لم يشغل بساكن

بعد .. وهكذا حاولت أن أضع فيه آمالى ، وأجعل منه مرفأ حياتى .. حتى وجدت نفسى فجأة فى مهب زوبعة عاصفة عاتية تعصف بى وبكل ما حولى وتنتزعنى من المرفأ الذى أوشك أن أزج بنفسى فيه .. فاذا بى أنطق هائمة شاردة .. واذا بالسكينة قد ذهبت بددا .

لقد انتزعتنى من مقر سكينتى ريح حب لا تبقى ولا تذر وعلمتنى الفرق بين أن نطمئن الى انسان ونحب انسانا وجعلتنى أومن أن عصف الحب أمتع للنفس من كل هدوء واستقرار وسكينة .

أحببت يا سيدى .. أو على الأصح أصبت بالحب . وكان ذلك عندما ذهبت وأبى ، وابن عمى ، ذات مرة الى أحد معارض الرسم والتقيت به هناك وكان يعرض بعض لوحاته التى فازت بجائزة المعرض .

وكان صديقا لابن عمى فأقبل عليه مرحبا وتم التعارف وأخذ يطوف بنا أنحاء المعرض شارحا لنا ما يتطلب الشرح .

ويبدو لى أن من العبث أن أصفه لك أو أذكر مزاياه كى أبرر ذلك الإندفاع الطائش منى فى حبه .. لأنه حتى لو كان خلوا من أية مزية فما كان هذا ليمنعنى من حبه . أؤكد لك أنه لم يكن لدى ثانية واحدة للتفكير فى أن أحبه أو لا أحبه .. لأنى أحسست بمجرد أن رأيته أنى قد أحببته منذ أعوام خلت .. وأن بينى وبينه قديم غرام وسابق هوى .

ورأيت منه فى أول لقاء ما أنبأنى أن به ما بى وأن ما أصابنى منه لم يكن أقل مما أصابه منى ، وشعرت منه مجاوبة فى النظرات الخاطفة العابرة . وفى نهاية المطاف سأل أبى اذا كان يسمح له أن يرسم

لى (تابلوه) لكى يعرضه فى المعرض الدولى نموذجا للجمال المصرى .

لقد كان ماهرا وذكيا .. فقد كنت أخشى أن يكون هذا اللقاء بيننا أول لقاء وآخره .. وكنت طيلة المطاف أجهد ذهنى فى كيف يمكن أن أراه ثانية .. فلم يكد ينطق برجائه حتى احسست بسعادة كبرى .. أولا لأنى سأستطيع لقاءه وثانيا لقوله أنى نموذج للجمال المصرى .

كم كان قوله ممتعا .. لقد أقنعت نفسى بأحد أمرين : اما أنه مقتنع بأننى نموذج للجمال المصرى . واما أنه يقول هذا لمجرد الرغبة فى ان يرانى وكلا الأمرين ممتع لذيذ .

وهكذا هبت الزوبعة .. وبدأت أزوره مع ابن عمى فى مبدأ الأمر .. ثم أخذت أتحين الفرص لأذهب اليه وحيدة . وكأية عاشقة .. لم أستطيع أن أخفى ما بى .. ورغم كل ما بذلته من محاولات للتكتم فضح أمرى .

ولقد أدركت ذلك أول مرة عندما جلس الىّ ابن عمى فى احدى الأمسيات ، وقد أطرق برأسه وبدت فى قسماته ونظرته لوعة تحبيسة وألم مكتوم .. وقال فى صوت خافت ونبرات هادئة :

- لى كلمة قصيرة أود أن أسرّها لك .. ولكن قبل أن أقولها أود أن تثقى بأنى أسوقها اليك مجردة عن كل هوى .. سوى مصلحتك أنت .. لا تتهمينى بأنى أقولها لأنى أحبك وأن غيرتى عليك ورغبتى فى اقتناصك .. هى التى تدفعنى الى ما سأقول ، لأنى - رغم حبى العميق الذى لم أبح لك به قط - أستطيع أن أكبح جماح نفسى .. وأتلمس لها العزاء عنك .. ولكنى أكره لك أن تندفعى فى طريق شائك ، ولا

أستطيع قط أن أتصور أنك تتألمين أو تشقين .. ولهذا - فقط - أسوق اليك نصحى ، انى اعلم أنك قد اندفعت فى حبه .. لا تحاولى أن تنكرى فانى لا أتهمك بل أقرر حقيقة ، ولا شك أن لك الحق فى أن تحبى من تشائين وأن تختارى لرفقتك فى الحياة من تريدين ، ولكنى أحذرك من هذا الإنسان بالذات .. انى أعرفه تمام المعرفة .. انه أشبه بالسراب الكاذب أو البريق الزائف .. لا تندفعى اليه كما اندفعت .. وصونى قلبك الرقيق الطاهر عن ان تحطمه شظاياه ليس هذا هو الإنسان الذى تتصورين أو الذى يستحق حبك .. لا أريدك أن تحبينى ، ولكن لا تحبى هذا الأفعوان .. فلشدما أخشى عليك من لدغته .. !

وبالطبع لم أضع لكلمة واحدة مما قال !

أأهجره لمجرد نصيحة ، ونفسى تذوب شوقا اليه ؟ يا للناصح الأحمق .. انه لم يقل ما قال الا بدافع من حبه لى أو حبه لنفسك .

وهكذا انطلقت فى طريقى ، غير عابئة بنصح ولا ارشاد ، ولكن ابن عمى حاول أن يردعنى عن طريق أخرى عندما لم تجد معى نصائحه .. فساق التحذير الى أبى وأخبره برأيه فى صاحبه .. ووجدت نفسى حبيسة الدار ، لا أكاد أخرج الا وفى رفقى رقيب أو حارس ..

ولم يكن هناك بد لهذا الفعل من جانبهم من رد فعل من جانبى .. ففررت من الدار واستقر بى الحال معه فى أحد البنسيونات .

ومرت بى الأيام الأولى بعد فرارى وأنا شبه بصادية تعب من الماء بعد طول الظمأ .. فهى لا تكاد تأخذ أنفاسها .

كنت مجنونة هوى .. ولم تعطنى فرحة اللقاء بعد طول حرمان فرصة للتفكير ، أو الإلحاح فى طلب الزواج منه .. وخاصة أنى كنت

واثقة أنه شيء حادث ان لم يكن اليوم فغدا .. بل انى كنت أعتبر نفسى فعلا زوجته ..

ومع ذلك مرت الأيام وهو يؤجل ويؤجل ، ويخترع الحجج ، ويبتكر الأعذار ، وبدأت أحس أن لهفته علّي قد خفت ، وأن نشوته قد تبددت ، وأن الملل قد بدأ يتطرق الى نفسه ، وأنى بت فى يده أشبه بأوراق متساقطة أو ورود ذابلة .

يا للسخرية .. هذه الفترة القصيرة قد سلبت كل ما بى .. لقد أصبحت عبئا بعد أن كنت أمنية ، ومبعث ضيق بعد أن كنت معقد رجاء .. ومنتهى أمل ..

ولو كنت زوجة لهان الأمر ولرضيت من غنيمة الهوى بقعدة البيت وهدوء المقر ، ولقنعت بدورى فى الحياة كغيرى من الزوجات ..

أجل .. أنى لم أعد شيئا .. لا ابنة .. ولا زوجة .. ولا حتى خليلة .. فقد بدأ يتملص منى .. ويلقى عبئى عنه رويدا حتى انتهى به الأمر الى هجرى ، وتلفت حولى مبهورة الأنفاس ، ضالة تائهة ، وانطلقت أعدو فى الطريق الشائك .

انى أكره حياتى ، وأكره الناس ، وأكره نفسى . انى أنحدر وأنحدر .. لقد اندفعت فى هاوية الشرور وبؤر الفساد ، خمر وميسر وفسق وفجور وكل ما يخطر على بال انسان من موبقات .

ان الشر يجلب الشر .. والإجرام يجر الإجرام .. هل تصدق أنى قد صرت الآن أداة فى يد عصبة أشرار .. يستغلونى فى ايقاع الصيد ، وسلب الأموال ؟ أجل لقد أصبحت طعما لجذب الضحايا .

لقد أصبحت امرأة سوء ، لا خلق لديها ولا ضمير .. لقد نسيت

نفسى البريئة الطاهرة .. اللهم الا فى هنيات بسيطة .. تستيقظ فيها الذكرى .. فأحس بلسعة ندم وأود لو أعصى فرصة الحياة من جديد .. لأعود الى الرجل الكريم الذى نبذته نبذ النواة وضحيت به من أجل لدغة أفعوان .

وصمتت محدثتى ووجدتنى أسألها فى بساطة :

– ولم لا تحاولين العودة اليه .. ؟

– أمعتوه أنت .. ؟ أعود اليه بهذه الحال ..؟ امرأة مدنسة فاسدة .. أو على الأصح : فتات امرأة ..؟

– ولم لا ..؟ قد يغفر لك ويعفو عنك .. ألم تقولى عنه أنه نفس جميلة ؟

– أجل .. ولكن ليس الى هذا الحد .. لو أن نفسه سمحت بالغفران لسعى الىَّ !

– قد يكون لا يعرف مقرك ؟

– من يدرى ..؟

وفجأة رأيتها تنهض ثم تشد على يدى وتأمرنى بالانصراف . وذهلت .. فقد كان مفروضا أن أقضى ليلتى عندها ولكنى وجدتها تقول فى اصرار :

– اذهب .. انى أحس الآن بلسعة الندم .. لا أريد أن أجعل منك لهم صيدا .. انج بنفسك .. كفى ضحايا ..

وفى الصباح قرأت فى الصحف خبر جريمة قتل فى دار المرأة .

وسرت فى جسدى رجفة من يدرى .. لولا لسعة الندم .. لما قرأت الصحيفة ، بل قرأنى الناس بها .. حمدا للّه .. !

ولقيت المرأة بعد ذلك صدفة ، فوجدت الهرم قد دبَّ فيها فجأة . ولمحت فى قسماتها لفحة حزن مروع ، وفى عينيها شرود وذهول .

وسألتها عما حدث بدارها تلك الليلة عقب أن غادرتها . فنظرت الىَّ ثم ضغطت على شفتيها وهمست الىَّ بخاتمة القصة فى كلمات قلائل قائلة :

– أتذكر ما قلته لى من أنه قد يغفر لى ، ويعفو عنى .. لقد عفا .. ان صاحب النفس الجميلة قد سمحت نفسه بالغفران وسعى الىَّ .. أنك لم تكد تغادر الدار .. حتى طرق الباب .. ووجّدته يقف أمامى أحضانه باكية .. وأخبرنى أنه قد أضنى نفسه بحثا عنى .. فكدت أطير فرحا .. وهممت بالعودة معه عندما طرق الباب مرة ثانية ، واذا بالطارق عصابة السوء .

لقد ظنوه صيد الليلة .. أنقذتك منهم لأوقعه هو .. ونشب صراع مخيف .. انتهى بأن كان هو الضحية .

أجل .. لقد غفر صاحب النفس الجميلة وسعى الىَّ ، فكنت السبب فى قتله ! ، ترى هل يغفر لى مرة أخرى ..؟ ووجدتنى أهمس مجيبا :

– ان النفوس الجميلة الصافية لا تمل الغفران .



نفس ضائعة

قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس ، من شر الـوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس .

(● ● ● حتى يراق على جوانبه الدم) . *

من منا لم يعرف هذا القول ويحفظه عن ظهر قلب ! ؟ . من منا لا يبيح الدم اذا ما خدش الشرف أو ألم به أذى ؟ ... من منا لا يحس أن الدم المراق على جوانب شرف رفيع هو وحده الذى يرفع عنه الأذى ويبقيه رفيعا كما كان ؟

هذه قصة سمعتها فأربكتنى وحيرت مشاعرى .. انها قصة شرف رفيع أريق الدم على جوانبه كى يسلم من الأذى .. حيرتنى لأنى أحسست فيها تناقضا فى المشاعر .. لقد ملأنى العطف على الظالم فيها والمظلوم .. والقاتل والمقتول .. وثائر الشرف وصاحب الشرف

المثلوم .. أو قل اننى لم أعرف بالضبط من يكون فيها الظالم ومن يكون المظلوم ..فالظالم قد ظلم نفسه فأضحى مظلوما قبل أن يكون ظالما .. والقاتل قد قتل نفسه فأضحى يعيش بجسد ونفس ميتة .. أما الشرف فيعلم اللّه انى لا أدرى ان كان قد أم لم يثلم .. وان كان ما أصابه من أذى قد استحق ذلك الدم المراق حوله .. أو أنه قد أريق سدى .. هل لا يعتبر الشرف قد خدش حتى تثبت الخيانة فعلا .. أم يكفى لذلك أن تثير تصرفات الزوجة ما يشتم منه رائحة الخيانة .. وأن يجد الزوج نفسه محاطا باللغط والأقاويل .. وأن يعتبره الناس رجلا مثلوم العرض مخدوش الشرف ؟ .



كنت أعرفه معرفة طفيفة ، فقد التقيت به بضع مرات فى منتدى الموظفين ببلدة (...) وكنت أعرف عنه أنه من أعيان البلدة ومن كبار الأثرياء فيها .. وقد لفت نظرى فيه لمحة من الحزن لا تكاد تفارق وجهه ، ولم تكن لتمحوها تلك البسمات السطحية التى كانت ترتسم على قسماته اذا ما أقبل عليك يحييك ، أو اذا ما بلغت سمعه احدى النكات التى تستحق منه ضحكة على سبيل المجاملة .

وفى ذات يوم دعانى الى داره ليرينى مجموعة من السجاجيد الثمينة التى يملكها وكان الوقت أصيلا ودلفت معه من باب الحديقة المترامية الأطراف المليئة بالزهور .. المكدسة بالأشجار ، وقد أحيطت بجدران عالية كستها النباتات المتسلقة وتفرقت فى أنحائها نخلات باسقات تطاول السماء ، وبدت الحديقة فى سكونها جميلة محببة ليس بها كثير تهذيب ولا تشذيب ، ولكن فيها قوة نمو ، وفيض اخضرار وازدهارحتى لا تكاد العين تلمح فيها سواد الأرض .

وظللنا نسير برهة بين الأشجار والأزهار حتى وجدت نفسى فجأة أمام خميلة قد جلست فيها سيدة انهمكت فى عمل (البرودريه) .

وألقت علينا السيدة نظرة سريعة وبدا عليها كأنما قد أخذت بمرأى غريب يصاحب زوجها فى الدار وألقت عليه نظرة متسائلة ، وتحدث الرجل الىَّ فى هدوء قائلا .. اسمح لى أعرفك بزوجتى .

وأومأت السيدة برأسها في تحية خفيفة ، وقد بدت فى وجهها ملامح جد وصرامة ، ولم تحاول أن تكلف نفسها مشقة ابتسامة مصطنعة مما تجود به السيدات عندما يتعرفن بشخص لأول مرة .

وكانت السيدة جميلة ذات عينين واسعتين ، شديدتى الصفاء ، وشعر ينساب على كتفيها فى حلكة الليل ، وأنف دقيق ، وفم يفيض عذوبة .

وتم بيننا التعارف ، وقلت لها لمجرد رغبتى في أن أقول شيئا : ان الحديقة غاية فى الروعة .. فأجابتنى بغير اكتراث : أجل ، أنها رائعة .. وأحسست بالخجل يعترينى ، وتملكنى احساس بالندم على اصطحابى الرجل الى داره .. حقيقة اننى لا أزعم أنى كنت أنتظر من السيدة أن تغمرنى بكلمات العطف والترحيب ، وحقيقة ليس هناك محل للومها على ذاك الفتور الذى قابلتنى به ، فقد يكون تطفلى كغريب على الدار قد أزعج هدوءها .. ولكن الشيء الذى لم أستطع أن أفهمه هو ذلك الجو العدائى الذى أحاطتنى به منذ أن وقع بصرها علىَّ .. وذلك التجهم والجمود اللذان شملتنى بهما .. حتى لقد خيل الىَّ أنها ثكلى قد أفعمت قلبها حسرة .. لولا أننى أعرف أن الرجل لم يرزق أطفالا .

وجمعت السيدة الخيوط والإبر وقطع القماش التى تعمل بها وحنت

رأسها لنا دون أن يلوح على وجهها حتى شبح ابتسامة .. وقالت انها لا تريد ازعاجنا .. ثم انصرفت عائدة الى داخل الدار ، وبدا جسدها طويلا فارغا ، وقد سارت بخطوات متئدة ثابته حتى اختفت عن أبصارنا .

وأخذت أتحدث مع الرجل فى شتى المواضيع ، وتطرق بنا الحديث الى ذكر الجرائم وازديادها ، فقلت له : ان معظم جرائم القتل التى تحدث فى القرى ناتجة عن مسائل تتعلق بالشرف ، وأن النعرة الريفية تدفع القوم الى ارتكاب أفظع أنواع القتل لمجرد توهمهم أن هناك ما خدش شرفهم ، وأنه لا تقف فى سبيلهم أو تردعهم عن جرائمهم أية عاطفة انسانية لا أبوّة ولا بنوًّة .. ولا أخوة .. وقد يكون .. ذلك ، لأن نفوسهم ما زالت على سجيتها دون تهذيب أو تثقيف .

ونظر الىَّ الرجل وقد رفع حاجبيه فى شيء من الدهش وغشيت وجهه سحابة حزن وقال متسائلا :

– تهذيب أو تثقيف ؟ هل تظن أن التهذيب والتثقيف يمنعان المرء من أن يثأر لشرفه ؟ لا .. لا .. يا سيدى .. هذه مسائل لا صلة لها بالتهذيب والتثقيف .. ان أكثر الناس ثقافة وعلما لن تمنعه ثقافته من ارتكاب جريمة اذا ما أحس أن شرفه قد تصدع .. كما أن ثورة الإنسان لشرفه لن تكبح جماحها ثقافة ولا تهذيب .

وأحسست أن الرجل يتكلم فى شيء من الحدة والتأكيد ، وأن الكلمات تخرج متأججة من صدره .. وسادت بيننا فترة صمت ، ثم عاود حديثه بصوت أكثر هدوءا .

– يا سيدى ، سأضرب مثلا ، وسأروى لك قصة بها كثير مرارة حدثت لصاحب لى :

كان هذا الصاحب رجلا مثقفا مهذبا ، كريم المحتد ، نبيل الأصل واسع الثراء .. ووقع الرجل فى هوى فتاة سباه جمالها فأقدم على الزواج منها رغم ما كان يشين أباها من سمعة لايحسد عليها .. فقد كان أقل ما يقال عنه أنه مخادع غارق فى الديون الى قمة رأسه .. ومرت الأيام فاذا به يضنيه ألا يجد من زوجته حبا يجاوب حبه .. لقد كانت تجله وتحترمه .. وكانت تقوم بدورها كربة بيت خير قيام .. وكانت تشعره بالحمد والامتنان .. ولكنها لم تكن تفعل أكثر من ذلك .. لم تكن تمنحه ذلك الحب الذى يتعطش اليه ، فما أحس منها بلهفة عليه أو شوق اليه .. لقد كان يقوم بينها وبينه حاجز لا يمكن تخطيه ، وتألم الرجل فى بادىء الأمر ، ولكنه بدأ يعود نفسه على أن يقنع منها بما تعطيه .

وفى ذات يوم التقى بأبيها فى احدى الحفلات وكان يصاحبه فتى لم يسبق له رؤيته ، ولكن بدا له أن زوجته تعرفه معرفة جيدة ، وعلم الرجل عن الفتى أنه طبيب قد عاد من أوربا بعد غيبة طويلة أتم فيها دراسته ، وأنبأته زوجته أن بين عائلتيهما قديم صداقة وأنه تعرفه منذ كان يلهوان سويا فى طفولتهما .

ولم يبد الرجل للفتى فى تلك الليلة كثير ترحيب ، فقد كان قليل الثقة بأبى زوجته وبصحبه ومعارفه .. ولكنه عندما التقى به بعد بضعة أيام فى منتدى البلدة أقبل عليه الفتى مرحبا .. وجلسا يتحدثان سويا ، فأدهش الرجل أن يجد فيه مخلوقا جذابا لطيف المعشر ، طلى الحديث حلو الفكاهة . ولم يستطع الا أن يقبل عليه يحس الاطمئنان اليه ، ومنذ ذلك اليوم نشأت بينهما صداقة وثيقة ، فكانا يلتقيان فى كل ليلة مع شله من الأصدقاء .. وكان الفتى يضفى عليهم من روحه المرحة وأحاديثه الطروب ما يملأ مجلسهم بهجة وحبورا ، وفى كثير من الأحيان كان الرجل يدعوه للعشاء معه فى داره .

وفى ذات ليلة ضمتهم احدى الحفلات فجلس الرجل وزوجته والفتى يسمرون ويضحكون ، وصادف أن قام الرجل لقضاء حاجة فاستوقفته امرأة من أقاربه محيية مرحبة وقالت له ضاحكة :

- ان زوجتك تبدو آية فى الجمال .. ويبدو كذلك أن الحفل قد ملأها طربا .

ولم يعرف الرجل كيف يعلق على الحديث ، فأكتفى بأن أطلق ضحكة عالية ، وأردفت المرأة بصوت أكثر انخفاضا :

- هل صحيح أنها كانت مخطوبة لذلك الفتى الطبيب ؟

مخطوبة له ؟ .. من قال هذا الهراء ؟

وكانت اجابته ببساطة وهدوء .. وان كان السؤال قد أذهله .. فقد كان يعرف أنهما صديقا طفولة ولكنه ما دار بخلده قط أن علاقتهما كانت أكثر من ذلك ، فما أتى ذكره على لسانها قط .

وعندما عاد الى الدار أنبأ زوجته بما سألته المرأة أياه وبما أجابها به .. ولكنها نظرت اليه فى شىء من الدهشة وقالت بهدوء :

- لقد كنت فعلا مخطوبة له !

- ولكنك لم تنبئينى قط بهذا !

- وما الفائدة من أن أنبئك بشىء انتهى أمره ؟ لقد خيل الَّى أنى لن أراه ثانية فقد سافر الى أوربا قبل الحرب ومكث طول سنينها ، لا يكتب الى أحد ولا يسمع عنه أحد حتى ظننا أنه لن يعود .

- ولكن ألا يعرف بعض الناس أنكما كنتما خطيبين ؟

- وماذا يهم ذلك ؟

- ماذا يهم ؟ ألم يكن من الخير ألا تجددى معرفتك به بعد عودته ؟

- أيعنى ذلك أنك لا تثق بى ؟

- كلا بالطبع .. فانى أثق بك كل الثقة .. ومع ذلك فانى أرغب ألا تبصريه بعد ذلك .

ونظرت اليه المرأة نظرة طويلة ، ثم غادرته فى صمت . وخلا الرجل الى نفسه فعصفت برأسه الأفكار .. ترى هل مازالت تحب الفتى ؟ ! وهل كان هذا هو السبب فى أنها لم تستطيع أن تحبه هو ؟ .. وبدأ يذكر كيف ذهب الى المنتدى منذ بضعة أيام ، فما كاد يراه القوم حتى قطعوا الحديث فجأة .. أتراه كان موضع حديثهم ؟

وفى اليوم التالى كان الرجل على موعد لزيارة بعض الأصدقاء مع زوجته ، ولكنها أنبأته أن بها وعكة وأنها لا تستطيع الخروج ، واستمرت ملازمة فراشها بعد ذلك بضعة أيام حتى دعيا ذات يوم الى حفلة زفاف .. وذهب الى حجرتها لينبئها بالدعوة فوجدها قد جلست أمام المرآة تمشط شعرها ، وبدا عليها أنها أبلت مما ألَمَّ بها .. فسألهاالذهاب ، ولكنها أصرت على أنها لا تستطيع الخروج .

ونظر اليها الرجل نظرة فاحصة ثم قال : هل ترفضين الذهاب بسبب ذلك الحديث الذى دار بيننا ؟

وصمتت المرأة لحظة ثم أجابت بصوت تفيض منه المرارة :

- الواقع أنى قد فكرت فيما قلته طويلا وبدا لى طلبك عجيبا ! .. ولكن كان علىَّ أن أرضخ له .. ولم أجد وسيلة لذلك سوى ألا أذهب

الى الأمكنة التى يحتمل أن يذهب هو اليها ، حتى لا أراه .. أهناك خير من ذلك ؟

- هل ما زلت تحبينه ؟ ..

- أجل .

وأحس الرجل كأنما قد لدغته عقرب ، فعاد يسال :

- ولم تزوجتنى اذا ؟

- لقد كان غائبا ، وكان اللّه وحده يعلم متى يعود .. وقد أمرنى أبى بالزواج منك .

- انى جد آسف .

- ولم ؟ لقد كنت رقيقا معى ، ولقد بذلت كل ما أملك لأرد لك بعض فضلك ، ولأريك أنى حامدة جميل صنعك .

- وهل ما زال هو يحبك ؟

فهزت المرأة رأسها ببطء وأجابت :

- ان الرجال يختلفون كثيرا ، انه فى ميعة الصبا .. وان قلبه أخف من أن يستقر طويلا على حب امرأة واحدة ، ولا أظنه يرى فى الا صديقة طفولة ، ولو كان يذكر حبنا فما أشك فى أنه يذكره الا على سبيل الفكاهة .

وفى الحفل سأله القوم عنها فأنباهم بوعكتها وبأنها ملازمة الفراش ، وفى نفس اللحظة حدث حادث بسيط فى حد ذاته ، فقد دخل أحد الخدم ليسأل عن الفتى الطبيب فأجابه أحد الأصدقاء بأنه لم

يحضر .. وهنا شمل القوم سكون عجيب .. وحاول الرجل أن يركز كل جهده فى أن يخفى من ملامح وجهه ما يحس به فى باطنه ، فقد مرَّ برأسه خاطر كلمح البرق .. ان الفتى غائب مع زوجته ، وان الناس لابد يشكون فى الأمر . ياللعار الذى أغرق فيه .. وياللفضيحة التى أمسكت بتلابيبه ! .

ومضت فترة قبل أن يتسلل الرجل من بين القوم .. ومضى الى حجرة خالية فالتقى بقريبته التى سبق أن أنبأته بمسألة الخطبة ، فسألها عن الفتى الطبيب فأنبأته أنها لا تدرى أين هو . فعاد يسألها عما اذا كانوا يتوقعون مجيئه فأجابت : بالطبع .. لقد دعى الى الحفل .. ولا أظن فرصة كهذه تفوته .. الا اذا كانت لديه فرصة خير منها .

وهنا رفع عن وجهه قناع الهدوء وسألها فجأة فى صوت هامس :

- أنبئينى الصدق .. هل يتحدث عنه القوم بأنه عشيق زوجتى ؟

ولم تجب المرأة ، ولكن كان فى وجهها كل الإجابة .

وغادر الرجل المكان عائدا الى بيته ، وفى صدره ثورة تتأجج ونيران تستعر ، فأبصر من الخارج الدار ضوءا فى غرفة زوجته ، وبعد لحظة كان يطرق بابها ، ثم دلف الى الداخل فأدهشه أن يجدها مازالت مستيقظة تعمل (البرودريه) الذى كانت تضيع فيه معظم وقتها .

ووقف الرجل أمامها برهة استجمع فيها أنفاسه ، ثم قال :

- ان لدىَّ حديثا قد يسبب لك ألما ، ولكن احتمليه منى .. ان صاحبك لم يكن فى الحفل .

- وما دخلى فى الأمر ؟ !

- من سوء الحظ أنك أيضا لم تكونى هناك ، وليس هناك أحد الا ويشك فى أنكما كنتما سويا .

- أوهام كاذبة !

- أنا أعلم ذلك ، ولكن ليس من المستحيل أن يكون قد حضر اليك أو تكونى قد ذهبت اليه .

- ولكنك لا تصدق ذلك .

- انى لا أصدق .. ولكن أين كان هو ؟

- أنى لى أن أعلم ؟

- ولكنه ليس بالأمر العادى ألا يحضر حفلة كهذه !

وساد الصمت لحظة قبل أن تقول :

- لقد كتبت اليه عقب حديثك الىَّ وقلت له : ان من الخير ألا يرى أحدنا الآخر ، وقد يكون سبب عدم ذهابه الى الحفل هو نفس السبب الذى عاقنى عن الذهاب .

واستغرق الرجل فى صمت عميق وقد عصفت به الوساوس واصطخبت فى صدره الشكوك ، وأخيرا رفع رأسه اليها قائلا :

- لن تهدأ حياتنا الا اذا ذهب عنا .. ان الناس ينهشوننا بألسنتهم .. خير لك أن تطلبى منه أن يرحل بعيدا .

وأجابته المرأة بلهجة ملؤها الملل والضيق :

- كيف يمكننى أن أفعل ذلك ؟

- اذا سأفعله أنا .

كان الرجل يحس أنه قد أضحى سخرية القوم ، قد يكون الأمر كله وهما وليس فيه من خيانة ، ولكن ماذا يجديه اذا كانت نتائج الخيانة قد وقعت فعلا .. وأضحى هو مضغة فى أفواه الناس ؟ ! وماذا يجديه أن الشر لم يقع اذا كان قد أضحى ضحية نتائجه ؟

وفى الليلة التالية ذهب الى المنتدى .. وقبل أن يدخل وصل الى سمعه صوت اثنين يتحدثان .. كان أحدهما صوت الفتى يقول :

لقد كانت أمى مريضة .. وقد مكثت بجوارها .

فقهقه الآخر وأجاب فى سخرية :

- نحن نعرف من التى كانت مريضة .. ومن التى كنت بجوارها .

ولم يدخل الرجل بل عاد أدراجه فى سكون وقد حجبت عينيه غشاوة كثيفة . وفى اليوم التالى وجد الفتى صريعا وقد أصابته رصاصة فى صدره ولم يعرف أحد من يكون القاتل .. الا اثنين : القاتل نفسه .. وامرأة أخرى كانت تجزم فى نفسها بأنه هو .. ولكنها لم تر جيرا من التذرع بالصمت .



وصمت الرجل .. فنظرت الى مسحة الحزن التى كست وجهه ، ثم ارتسمت فى مخيلتى صورة المرأة التى كانت منهمكة فى عمل (البروردريه) .. بقسماتها الجميلة التى يكسوها حزن الثكالى ثم تخيلت الفتى الطبيب .. صاحب الدم المراق .. وأحسست بلوعة على ثلاثتهم ، وحبست فى عينى دمعه تراود نفسها على الانسكاب ، ثم همست فى أذن الرجل : (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس ، من شر

الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) .

لا تقولوا أحمق ، يعطف على قاتل ، فواللّه لو خيرت لفضلت أن أكون الفتى المراق دمه .. على أن أكون ذلك المسكين الذى أضاع عمره بين شك ينهش صدره ، وضمير معذب يثقل كاهله وينقض ظهره .



نفس مهجورة

لا تسألنى كيف ، فتتكأ قرحى وتدمى
جرحى ، ولا تثر أشجانا حطمت نفسى
لقد شاء اللّه أن أكون مهجورة ، فماذا
أملك أمام ارادة اللّه .

هذه : رسالة امرأة مهجورة ، لا أظن بها كثير غرابة أو طرافة .. تدفعنى الى أن أقدم على نشرها كقصة ولكنى أقدمت على ذلك لأنى رأيت فيها صدى لما يتردد فى نفوس الكثيرات من المهجورات الصامتات .. الراضيات القانعات اللاتى لا يملكن لأنفسهن الا الرضا والقناعة .. ووجدت فيها مشكلة الروابط التى تنظم العلاقة بين الرجل والمرأة .. ولكى تهىء لكليهما حياة هانئة راضية .. وهى المشكلة التى عجز الإنسان عن حلها ، لأن منشأها فى رأيى هو خطأ فى تكوين كليهما ، فمعظم الرجال ليس لدى أحدهم القناعة التى تهيىء له الرضا بامرأة واحدة تستكن نفسه اليها مدى الحياة ، والمرأة - أعنى المرأة الطبيعية لا الشاذة - قد يرضيها رجل واحد .. تقنع به اذا ماشدّت اليه

مدى الحياة .. لكنها غيورة لا تقبل أن يشاركها فى رجلها أحد .. تريده لها وحدها لا يرى سواها ولا يحب غيرها .

ولكن الرجل يتطلع حوله فيرى من عابرات الحياة غير صاحبته ، فيغريه بريقهن ، ويحس بثقل القيد الذى يشده الى امرأة فيتلهف على الانطلاق ، ويبدو قلقا غير قانع ، وتحس صاحبته - التى تريده لها وحدها - خشية وتوجس خيفة .. ويصيبها جزع من أن ينطلق ويتركها وحيدة مهجورة .. أو أن تشاركها فيه أخرى .. وتضحى الحياة بينهما قلقة غير مستقرة .. وبدلا من أن يعين أحدهما الآخر على الحياة يثقلها عليه .. هو بقلقه ، وهى بشكوكها .

أترى الزواج طريقة مثالية لحياة الرجل والمرأة ؟ أنا شخصيا لا أعتقد .. لا تقولوا ثائر هدَّام متفلسف بل اقرأوا رسالة هذه المرأة المهجورة .. وأؤكد لكم أن قصتها واقعة فى كل بيت .. معبرة عن مشاعر كل زوجة ، وان كانت قد تتباين خفة وثقلا .

لا تلوموا الرجل كثيرا .. فهو رجل .. تحركه طبيعته ، وتتحكم فيه طريقة خلقه ، وأظن كلنا ذاك الرجل ، لا يكاد يختلف بعضنا عن بعض الا فى مدى قدرتنا على التستر وعلى كبح جماح نفوسنا وتقدير المسئولية التى حملتنا الحياة اياها .

اقرأوها كما قرأتها .. وحدثونى بما ترون فيها .



سيدى العزيز :

لولا حسن ظنى بالأيام .. ولولا طعمي فى أن تعطينى الحياة خيرا مما أعطت .. ولولا قلة تجاربى واعتقادى بأنه يجب على من يود الحياة هانئا أن يكون خيرا طيبا يؤدى ما عليه من واجبات نحو اللّه والناس .

لو لا كل هذا ياسيدى .. لما كان هناك معنى أكتب اليك قصتى .

لو ظننت بالأيام شرا ، وفهمت حقيقة الدنيا .. لما أفزعنى ما حدث لى .. ولما توهمت أنى امرأة مصابة ، وأن فى حياتى قصة .. بل لعلمت أن قصتى هى قصة الحياة .. وأنها شىء طبيعى ليس به ما يفزع أو يثير .. ولكن ماذا يملك الإنسان المسكين .. وهو لا يتعلم تجارب الحياة الا بعد أن تكون قد أفلتت منه فرصة الحياة .

بدأت حياتى كغيرى من الفتيات .. فتاة من أسرة طيبة يمكن اعتبارها من الطبقة المحافظة فوق المتوسطة .. فلقد كان أبى على شىء من الثراء ، هيأ لنا حياة رغدة ناعمة .. وكان رجلا طيبا ، وكانت أمى أكثر منه طيبة ، وسارت بنا الحياة هادئة .. خالية من المشاكل والهموم .. ولست أذكر أننى أحسست نقصا فى عيشتى فقد كنت أعطى كل ما أريده ، أو أريد كل ما أعطى .. فلقد كانت القناعة من طبعى .. لأنى فتاة طيبة .

ويخيل الىَّ أننى يجب علىَّ قبل أن أسترسل فى سرد قصتى أن أصف لك نفسى وأن أعطيك صورة واضحة عن مظهرى وخلقى .. لا أظن هذا بالسهل اليسير ولكنى سأحاوله ، رغم حيرتى بين عاملى الغرور والتواضع ، وان كنت أستطيع أن أؤكد لك أن عامل الغرور يكاد يمحى من نفسى ، التى دب فيها الهرم وأثقل الهم كاهلها حتى أصبحت الآن امرأة مهدمة محطمة .

كنت فتاة جميلة .. بشهادة كل من حولى .. وشهادة المرآة التى كان يحلو لى أن أتطلع فيها الى وجهى وجسدى ، وأقضى الساعات أمشط رأسى وأضفر شعرى ، أما عن خلقى فقد كنت مرحة متفائلة ، أحب الناس لأنى لا أرى فيهم غير الطيبة .. وأحب الحياة لأنى قوية

الأمل شديدة الإيمان بما تخبئه لى فى طياتها من سعادة وهناء ، ولا أنكر أن قلبى قد هفا لإنسان بالذات .. أو أنى أحببت أحدا من الرجال .. لأنى تعلمت ممن حولى .. أن المرأة يجب ألا تحب الا الرجل الذى ستتزوجه .. ولم أكن قد تبينت بعد من سيكون زوجى المقبل .. رغم كثيرين من الأقارب كانوا لا يخفون رغبتهم فى الزواج منى .

وكان أكثرهم اقبالا علىَّ شاب من الأقرباء .. كان شديد اللهفة علىَّ .. وكنت من جانبى أشعر ببعض الميل اليه ، وكان يخفف من حدة هذا الميل أنى لم أكن أجد من والدى تشجيعا له .. اذ لم يجده كفوًا لى .. فلم يكن قد أتم تعليمه .. ولا كان ذا مركز أو مال .. وكان والدىَّ ينظران الى زواج ابنتهما بعين العقل والمصلحة ، ولا يريان مجرد لهفة علىَّ سببا كافيا فى أن يقبلوه زوجا لى .

وفى ذات يوم توفى للفتى عم موسر لم يعقب .. وكان وريثه الوحيد فأصبح بين يوم وليلة من الأغنياء ، وذهب المانع الذى كان يراه والدىَّ عقبة فى سبيل زواجنا ، ووجدا أنه يستطيع بحبه وماله .. أن يهيىء لى حياة سعيدة هانئة . وما كانا ليعترفا بأن الحب وحده يستطيع أن يهيىء الحياة التى ينشدانها لى .

ولا أكتم أن الأمر قد سرنى ، فقد كنت أفضل الفتى عن كل من عداه .. وأرى فيه خير زوج لى ، وبدأت قصتى الحقيقية بعد الزواج .

لقد تزوجنا ومرَّ بى العام الأول هنيئا .. كأهنأ ما يكون زوجين .. لا أذكر أننى صادفت خلاله ما يمكن أن يكون مبعث شكوى .

وأى شىء يسعد المرأة أكثر من أن تجد نفسها زوجة محبة محبوبة ؟ .

وأنجبنا طفلنا الأول .. وزادت حياتنا متعة وحبورا ، ومرت بضعة أشهر بعد ولادتى لم أستطيع أن ألحظ خلالها ذلك الفتور الذى أصاب زوجى من ناحيتى .. لأنى كنت مشغولة بالطفل .. ولأن الفتور بدا تدريجيا بحيث لم أستطيع تمييزه .

ولست أدرى ما اذا كانت كلمة (فتور) توضح ما أعنيه بالدقة .. ولكنى أرى من الأفضل شرح ما أصاب زوجى بالتفصيل .

لم أعد أرى فيه .. لهفة المحب العاشق ، ولم تعد تلذه قبلاتى .. ولا يمتعه عناقى . ولا أزعم أننى من الغباء بحيث كنت أتوقع أن تظل لهفته مدى الحياة .. ولكننى مع ذلك أحسست بشيء من مرارة الهزيمة ، وانتابنى شعور بزوال السلطان وفقد السيطرة ، وزادنى ضيقا أن محاولاتى لإشعال خامد عاطفته كانت تبوء بالفشل ، فقد كان يقبل علىّ كأنه يؤدى واجبا لابد من تأديته .

وبدأ يضيق بالدار ذرعا ، وهو الذى كان يتلهف على لحظات يخلو فيها الىَّ ويحدق فى وجهى ، ووجدته يكثر من المشاغل التى تهيىء له فرصة الابتعاد عن الدار .. ولم يعد يحرص كثيرا على فعل الأشياء البسيطة التى تبعث رضاى كأن يحضر لى نوعا من الحلوى يعرف أنى أحبه .

كان هذايا ياسيدى ما أعنيه بالفتور .. ولست أشك أنك ستقول لى أيتها الحمقاء الحسنة النية ، ان كل ما ذكرتيه لا يعدو أن يكون أمرا طبيعيا ، وأن هذا هو طبيعة الزواج . عرفت هذا يا سيدى ، وبدأت أعود نفسى عليه .. لقد تشاغلت عنه بالدار وبالطفل وبشئون الحياة ، وتعودت ألا أكون أمرأة مدللة ، تعيش بالعواطف والحب والقبلات .

ومرت الأيام وأنا قانعة راضية ولم أحاول أن أضيق الخناق عليه .. وقلت من الخير أن أترك له الحرية يلهو بعض الوقت مع أصدقائه ولم يكن يساورنى فى وفائه أدنى شك .. وكنت أحاول جهدى ارضائه من كل ناحية .

وفى ذات مساء عاد الى الدار ، فرأيت منه اقبالا علىّ لم أتعوده .. ووجدته يبدأ فى تقبيلى وعناقى وكدت أقابله بالمثل ، لولا أنى شممت منه عطرا نسائيا ، جعل الشك يتسرب الىّ .. فسألته عن مصدر هذا العطر ، فارتبك لحظة ولكن سرعان ما أجابنى أن أحد أصدقائه قد ضمخه وسأله عن رأيه فيه .

ولم أعلق على هذا الأمر كثيرا بل نسيته ، وساعدنى هو على نسيانه بلهفة فقدتها منذ زمن طويل .

ومرت بضعة أيام ، ثم حدث الثانى الذى أثار الشك فى نفسى مرة أخرى ، فقد وجدت فى سترته وأنا أفرغ جيوبها لأعطيها للكواء منديلا نسائيا ، وأصابتنى صدمة شديدة فقد كنت شديدة الثقة به ، وظلت الهواجس تنتابنى حتى حضر من الخارج ، فسألته عن المنديل فبدت عليه الدهشة أول الأمر وأخبرنى أنه لا يذكر مصدره ، ثم استطاع بعد برهة أن يقنعنى بأنه لابد أن يكون لأحد أصدقائه ، وأنه أخذه خطأ منه عندما كان فى زيارته .

وهكذا أخذت تتكرر الأشياء البسيطة فى ذاتها ، الكبيرة فى أثرها ، ولم يك يعدم فى كل مرة أعذار لتبرئه حتى بدأت أسمع من بعض الصديقات أنهن رأين زوجى مع امرأة فى أحد المحلات العامة .

وترك قولهن فى نفسى أثرا بالغا ، وشعرت أنى مهيضة الجناح ، مجروحة الكرامة .

وكان أكثر ما أحزنني يا سيدى عندما خلوت الى نفسى أنى لم أستطع أن أعرف ذنبى فيما حدث ، ما هو الخطأ الذى فعلته فصرف عني زوجي ؟ فانى أنا ، وما أظنني قد تغيرت كثيرا عن ذى قبل ، وحتى لو أصابنى بعض التغير فما أظن لى يدا فيه ، بل هو ذنب الحمل والولادة ، والمجهود الذى أبذله فى تربية ورعاية الدار ، هل ترى أنه كان من الأفضل أن أكون عاقرا حتى لا ينهك جسدى بأعباء الحمل والولادة وأن أترك الدار والطعام وأركز كل جهدى فى الزينة لزوجي ؟ . من يدرى ربما كان هذا أفضل لى وأضمن ! .

لقد بكيت بكاء مرا .. وساورتنى شتى الوساوس والهموم .. وخطر لى أن أترك الدار ، وأذهب الي والدى ولكنى كرهت أن أكون مبعث رثاء ، وأن أبدو أمام الغير امرأة فاشلة .. مهجورة .. وأنا التى طالما اعتززت بكرامتى .

وكنت أتساءل : لعل هذه المرأة أو النساء اللاتى صرفن عنى زوجي خيرا منى .. نظرت الى المرآة . فرأيتنى مازلت جميلة .. وعندما أقول جميلة أقولها بلا غرور .. بل تأكد أننى لو كنت أمرأة عابثة أو حتى على شيء من الخلاعة للقى جمالى رواجا عجيبا ، ولا رتمى الرجال على أقدامى ، وأولهم زوجي .. ولكنى كنت أمرأة بيت .. ونساء البيت كما علمتنى التجارب ، لسن فى نظر الرجال أكثر من خادمات مسؤولات عن رعاية أمورهن .. وتربية أولادهن .

وجابهته بالأمر ، فأنكر انكارا باتا ، ونفى كل صلة بينه وبين أية امرأة أخرى .. وطلب منى أن أهدىء نفسى .. ولا أزعجها كثيرا بتلك الأوهام وأن أغمض عينى وأصم أذنى عن وشايات الناس وأحاديثهم .

ولست أشك الآن أن ذلك ما كان يجب علىّ فعله ، فلو كان زوجي

يخدعنى ، فماذا يضيرنى مادمت لا أعلم ؟ أليس خيرا للإنسان أن يخدع كثيرا ، من أن يعلم بخديعته قليلا ؟ كان أجمل ما أفعل هو السكوت وصد كل من يحاول أن ينبئنى عن خيانة زوجى ، ولكنى لم أفعل ، بل فعلت الضد . كنت أحس نارا تأكل قلبى ، وفزعا من أن يطير الطير من عشي .. فبدأت أراقبه .. وأضيق عليه الخناق .. وأحاسبه عن وقته حسابا عسيرا .. وأدس أنفى فى كل روحة له وجيئة .. فلقد كنت أشك فى كل ما يفعل وأرتاب فى كل أمر يبدو منه .

وأصبحت الحياة نوعا من الجحيم .. ولم تعد العلاقة بيننا علاقة زوج وزوجة .. بل مذنب ومحقق .

آه يا سيدى .. ما أشد غبائى وأضيق عقلى .. ماذا أستطعت أن أفعل بهذا التضييق والتدقيق .. هل استطعت أن أعيده الىّ ؟ ! هل استطعت أن أذهب عنه ملله ؟ ! هل استطعت أن أوقف علاقاته الخاطئة مع غيرى من النساء ؟ أبدا ياسيدى .. لقد كانت النتيجة عكسية .. فقد ملّ من طول الحساب والنقاش .. ولم يعد يحاول التستر والإنكار بل حدثنى فى صراحة .. أنه رغم حبه لى وحاجته الىَّ .. وحرصه على كل ما يرضينى لم يعد يجد فىَّ ما يشبع رغبته ، وأنى لم أعد أرضيه كامرأة .. وأنه من العبث أن أحاول منعه من أن يجد متعته فى الخارج .

أثارنى قوله وحطم كبريائى ، ترى من المسئول عن هذا : أنا ؟ .. أم هو ؟ .. أم الظروف الخاطئة ؟ .. لقد أنبأنى أنه يهبنى كل ما أطلب ، وأن حبه لى .. الهادىء الحقيقى .. لم ينقص قيد أنملة .. وأنه لا يمكن أن يفكر فى زواج غيرى وأنى امرأته وربة بيته وأم أولاده .. وأننى مفضلة عنده عن كل مخلوقة سواى .. ولكنه رغم كل ذلك لابد له من امرأة أخرى .. تهيىء له المتعة .. وأن من الخير لى

ألا أحاول تضييق الخناق عليه .. وأن أوفر على نفسى ذلك الحساب العسير .. ما دام يؤدى واجبه نحوى كاملا غير منقوص .

وقد يبدو قوله وأنا أكتبه لك ، قولا منطقيا معقولا ، ولكن هل تظن أن وقعه كان كذلك فى مسمعى ؟ .. هل تظن أن فى العالم زوجة تحتمل هذا القول مهما كان صحيحا واقعيا ؟

لقد اشتعلت النار فى صدرى وقلبى فثرت فى وجهه .. وبكيت حتى بح صوتى .. وطلبت منه أن يطلقنى ، وجعلت ليلته سوداء مروعة ! ولم يحاول بعد تلك الواقعة التخفى أو التستر بل اتخذ له عشيقة لم يعد أمرها خافيا على أحد ، وأحسست أن مصابى قد تضاعف . ولا أظنك يا سيدى تستطيع أن تتصور ذلك الألم الذى يقطع نياط قلبى وأنا أعلم أن زوجى تشاركنى فيه امرأة أخرى وأنه لا يعود الىّ الا بعد أن يكون قد ارتوى من عناقها وقبلاتها ، وأن الناس من حولى يعلمون ذلك وينظرون الىّ نظرة عطف ورثاء ، أو شماتة وازدراء .

ولم تعد الحياة محتملة ، فلقد كنت أحس نارا مشبوبة فى صدرى ، وعندما أقول نارا لا أقولها على سبيل الاستعارة ، بل أن النار الحقيقية لابد ستخمد بعد أن تحرق ما حولها ، أما ما كان فى قلبى ، فهو سعير لا ينطفىء أبدا .

كنت أرى شبح المرأة الأخرى ، قائما بيننا يسدل على عينى ستارا قاتما يحجب عنى ضوء الحياة ، وحاولت جهدى أن أبعده عنها ، فلم أترك وسيلة من الوسائل الا وجربتها لكى أستعيده فلم أفلح ! .

وأخيرا قلبت حياته جحيما لا يطاق وأنذرته أنى لن أعيش معه اذا لم يقطع كل صلة له بتلك المرأة ، وأن عليه أن يختار : اما أنا واما هى ، وبعد بضع أيام ، وقع الاختيار عليها ! .

أجل يا سيدى ، اختارها هى ، وذهب عنى ، وتركنى منسية مهجورة .

لست فى حاجة الى أن أصف لك كيف ندمت ، وكيف بكيت ، ولا أن أصور لك الأيام السوداء التى مرت بى وأنا وحيدة فى الدار مع ولدى وابنتى فما شعرت بحاجتى اليه فى يوم من الأيام السالفة .. كما شعرت بها فى هذا الوقت .

هل هناك ياسيدى أتعس من حياة امرأة مهجورة .. من رجلها الوحيد الذى شدّت اليه ليقضيا العمر سويا ؟ .

وتذرعت بالصبر .. وماذا أملك سوى الصبر والامتثال .. لقد ذهب زوجى وأخذته امرأة أخرى ، فمن يستطيع أن يعيده الىَّ ويهديه الى الصواب سوى اللّه ؟

وصليت للّه ، ودعوت أن يعيده الىَّ ، ولم يطل بى الانتظار فقد استجاب اللّه دعائى ، وأعاد الىَّ زوجى بعد أن اعتراه الملل عندما عاش مع عشيقته ، وعندما قارن بين دار العشيقة ودار الزوجية ، وتملكه الحنين الى ولده وابنته ، ففر منها وعاد الىَّ ، نادما مستغفرا ، مقسما ألا يتركنى أبدا .. وألا ينظر الى غيرى من النساء . أجل عاد الىَّ زوجى ، وهدأت نفسى وقرت عينى ، ولم أعد بعد امرأة مهجورة ، أو هكذا ظننت حتى مرت بضع أيام ، فوجدتنى عدت ثانية امرأة مهجورة ! ! .

عندما ذهب زوجى فى المرة الأولى ، وأخذته منى المرأة الأخرى ، كان لدىَّ أمل في أن يعيده اللّه الىَّ ، أما فى هذه المرة فلقد ذهب دون أن يترك لي خيطا من أمل أو بارقة من رجاء . فى هذه المرة

فقد أملى فى أن يعيده اللّه الىَّ ، لأنه هو الذى أخذه منى وتركنى بعد أرملة حزينة مهجورة .

لا تسألنى كيف فتنكأ قرحى وتدمى جرحى ، ولا تثر أشجانا حطمت نفسي ومزقت قلبى . لقد شاء اللّه أن أكون مهجورة ، فماذا أملك أمام ارادة اللّه ؟

لقد كانت تجربة قاسية .. كان فى مقدور اللّه أن يميته وهو عند المرأة الأخرى ، وربما كان مصابى عند ذلك أخف وقعا .. ولكن أن يرده الىَّ تائبا نادما مستغفرا لأستأنف حياة هانئة مقبلة ، ثم يأخذه مرة ثانية ، لقد كانت تجربة مرة مريعة .. اللهم لا اعتراض ، والحمد للّه الذى لا يحمد على مكروه سواه .

سأحاول يا سيدى أن أجد فى ابنىَّ عزاء وسلوى .. وسأحاول أن أعلم الإبن أن يكون وفيا لزوجته .. وأعلم الإبنة أن تكون متسامحة مع زوجها ، وأن تكون صبورا محتملة ، وألا تضيق عليه الخناق .. وأهمس فى أذنها دائما .. ألا تتوقع منه أن يكون ملاكا ، وأن تأخذه على علاته حتى يهيىء اللّه له من أمره رشدا .

المخلصة

. . . . .

هل بى من حاجة الى أن أعلق على الرسالة ؟ . لا أظن .. اللهم الا أن أهمس فى اذن الزوجات بتلك النصيحة التى ستسديها المرأة الى ولديها ، وأن أدعو للرجال بأن يعيذهم اللّه من سيئات أنفسهم ، وطبيعة قلقهم ، وعدم استقرارهم .



نفس هائمة

كنت فى كل مرة لا أرى الا سرابا خادعا .. لقد كنت حائرة هائمة أبحث لنفسى الحيرى عن مرفأ أو مستقر .

لم أشك : لحظة عندما وقع بصرى على تلك المرأة المتسولة التى ارتسم على وجهها الذهول والشرود .. انها امرأة ذات ماض ، وأنه لابد أن لها ذكريات تقص وتاريخ يروى .

رأيتها أول مرة وقد جلست فى اطراق وصمت بجوار دار قديمة مهجورة .. وقد اتخذت من درجها الحجرى متكأ ومضجعا ، وأمسكت باحدى يديها صرة صغيرة أغلب ظنى أن بها كل ماتملك من حطام الدنيا ورأيت بجوارها صبيا قد اكتسي بأسمال ممزقة بالية .. لا تكاد تستر هيكله الضاوى أو تحمى ضلوه البادية .

وراعنى من المرأة ذلك الحزن العجيب الذى كسا وجهها ، فقد كانت تبدو بشعرها الفضى ونظراتها الشاردة كأنها تمثال للحزن ونموذج لليأس والجمود .

وكانت تبدو على وجهها آثار جمال تولى .. وبقية من فتنة غاربة .. يكاد يلمحها المرء فى صفاء بشرتها وزرقة عينها ، أجل .. ذلك الجمال وتلك الفتنة قد طغى عليهما اليأس العاتى ، وأطاح بهما معول الزمن الهدام .. فبدت المرأة محطمة قد سلبها اليوم كل ماوهبها الأمس .. اللهم الا أثرا من كبرياء ، ولمحة من أنفة تراودها على الفرار .

وجذب يدى صاحبى اذ وقفت واجما أمام المرأة .. وقال ساخرا :

- لا تحاول أن تنقب فى ماضيها عن قصة تستبكى بها قراءك ، فما أظن المرأة الا حطمتها الحاجة ، وأضناها الفقر والعوز .. وما أظن حياتها الا حلقات من البؤس والعناء .. فى تجوّل وتسول كما ترى .. وخير لك ولها أن تجود عليها بدريهمات تستعين بها ، فما يجدى تأملك هذا وفحصك .

وألقيت على المرأة المستغرقة فى صمتها وشرودها نظرة أخيرة قبل أن أجيب صاحبى :

- هذا الجمال البائد لا أظنه قد نبت بين الآلام أو عاش حياته فى غياهب الظلام .. هذا الهيكل البائس المذعور من بؤسه ! .. أقسم أن فى ماضيه قصة .

وتوقفت عن الحديث فقد سمعت صوتا عميقا يجيبنى بهدوء وتؤدة كأنه يتمم حديثى :

- وأى قصة .. !

وأصابتنى الدهشة ، فما ظننت أن هناك من ينصت الى حديثنا عن المرأة . وتلفت حولى فاذا بكهل أشيب قد أطلّ علينا من نافذة مجاورة ، فأشرت اليه بتحية عابرة وقلت متسائلا :

- لعل سيدى يعرف عن المرأة ؟

- انى أعرف عنها كل شيء ، ولقد صدق ظنك فيها عندما قلت ان لها قصة ، وأنها لم تعتد التسول .. بل ما كان أحد ليظن فيما مضى من الزمن أنها ستتسول ، وكان أسهل عندى أن أصدق أن الشمس ستشرق من المغرب من أن أصدق أن مثل هذه المرأة سيكون لها تلك النهاية ولكن الليالى من الزمان حبالى !

وصمت الرجل برهة ثم رأيته يحدق فى وجهى ويسأل :

- لقد فهمت من حيث صاحبك أنك من كتاب القصة .. ترى من تكون ؟ .

- وأخبرته باسمى بعد تردد قصير ، لأنى كنت أشك كثيرا فى أنه قد سمع به ولكن الرجل نظر الىَّ دهشا وأجاب .

- أنت ؟ لقد سبق أن قرأت لك . هل تتفضل بالدخول ؟

ولم أتردد .. ودخلت وصاحبى بيت الرجل .. لقد كنت فى لهفة الى سماع القصة ، ولم أر فى وجه العجوز ما يبعث على الريبة .

وبعد هنيهة كنت أجلس قبالة الرجل ، وقد أطرق بوجهه الى الارض وأخذ يبعث بسلسلة فى يده ، ثم رفع رأسه فجأة وقال :

- عدنى أولا أن تغيير معالم القصة ما أستطعت .. فأبطالها مازالوا أحياء ولا أحب أن يمسهم سوء ، ولا أقصد بذلك المرأة نفسها ، فما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ، وخاصة اذا كانت الشاة مستهدَرة قد تعودت أن تسلخ وهى حية بألسنة حداد .

وبعد أن وعدته بما طلب عاود حديثه وهو مطرق الى الأرض كأنما يقرأ فى باطنها قصة المرأة .

- رآها الفتى أول مرة بين تلك الجموع الحاشدة التى يزخر بها ميدان السباق ولم يكن من هواة السباق ، ولكنه كان من هواة الوجوه الجميلة والصدور الناضجة والسيقان الملفوفة الممتلئة ، ولم يكن يجد مكانا يستعرض فيه هذا كله بوفرة كميدان السباق ، وأخذ يجول فى ذلك اليوم بين الأجساد المعروضة والوجوه التى تتطلع الى بعضها كأن كلا منها يرى فى الآخر أعجوبة .. وفجأة أبصر شيئا براقا يشع ضوؤه فى احدى المقصورات ، وبهت الفتى ، اذ لم يخطر على باله قط أن الشمس تترك مكانها فى السماء لتستقر فى احدى مقصورات السباق ، ورفع يده ليحجب بعض تلك الأشعة حتى يستطيع أن يبصر حقيقة ذلك الشىء الذى يشع منه الضوء ، فاذا به يرى فتاة عجيبة .

كانت الفتاة من ذلك النوع البراق المضىء الذى يبهر الأنظار ، والذى يراه المرء على مدى البصر فيدرك أن هناك امرأة جميلة ، دون أن تكون به حاجة الى الإقتراب منها لكى يميز حقيقة شكلها .. ذلك النوع الذى يضفى على من حوله الجمال كأنه ينبوع يفيض بالإشراق والنور .

أبصر الفتى فيها شعرا ذهبيا براقا ووجهها مستديرا ناصع البياض . وبشره نقية صافية ، وعينين خضراوين ساحرتين وأنف دقيق ، وفم أقسم أنه لم يخلق الا للقبل ، فحرام على من لها مثل هاتين الشفتين أن تجدهما بالكلام أو الطعام .

وتساءل الفتى عنها فعلم أنها زوجة ، بل أم .. وخاب حدسه الذى تمنى .. لقد ظنها فتاة ، ومضى يمنى نفسه بمعسول الأمانى وحلو الأحلام وأخذ يتأهب لخوض معركة حامية الوطيس .. ولكنه كفى نفسه شر القتال ورده ملوما ذلك الخبر المفاجىء : انها امرأة متزوجة .. لقد كان يبيح لنفسه كل أنواع الفجور والغواية الا غواية النساء المتزوجات ،

لا لشيء الا لأنه يعتبرها سرقة واعتداء على حقوق الغير .. وهو فتى شريف لا يحب السرقة ولا الاعتداء .

واكتفى صاحبنا بأن يسترق منها بضع نظرات .. كما ينظر الى تمثال آية فى الإبداع ، وانتهى السباق فودعها ببصره وانصرف الى سبيله .

ومرت الأيام فأمحت المرأة من ذاكرته أو كادت .. حتى كان ذات يوم صادفها فيه مرة أخرى على شاطىء البحر .. ومرت به مرورا عابرا فلم يسعه الا أن يتسمر فى مكانه ويشيعها ببصره حتى تختفى عن ناظريه ، ولكن قبل أن تخفى أحس بمن يجذبه من يده فالتفت اليه فاذا بأحد أصدقائه يقول له مازحا .. كأنى لك لم تر النساء حياتك !

- هذه ليست من النساء .. انها من الملائكة .

- لا تكن أبلها ، سلنى أنا عنها فقد جرَّبتها ، فوجدتها امرأة كغيرها من النساء .

- اذن فأنت تعرفها ؟ .

- أقول لك أنى جربتها ، فتسألنى اذاكنت أعرفها ؟ .

- كفى هزلا ، وكف عن هذا الكذب .. انها امرأة متزوجة .

- ولو .

وجذبه صاحبه من يده فانتحى به ناحية منعزلة عن الشاطىء وأخذ يقص له مغامرته مع المرأة .

وكان الفتى يعرف عن صاحبه الكثير من الطيش والتهور بل كان يعتبره (نصف مجنون) وكان يعرف كذلك أن ببعض النساء نزقا

واستهتارا . ولكنه لم يستطيع أن يتصور ما حدثه به صاحبه حقيقة واقعة .

قصَّ عليه صاحبه أنه كان يعرف المرأة معرفة طفيقة حتى راقصها ذات يوم فى حفلة راقصة ، فأدهشه أن يحدث انسجام سريع بينهما ، ولم يكد ينتهى الحفل حتى كان بينها وبينه عواطف متبادلة .

وزادت بينهما الصداقة حتى انقلبت الى حب ، وكانت المرأة فى كل مرحلة من مراحل الصداقة والحب هى البادئة بالتقدم الى المرحلة التى تليها .. حتى انتهى به الأمر الى دعوتها الى الغذاء فى داره ، وعقب الغذاء سألها عابثا ان كانت تود النوم ، فأجابته بايجاب ، ثم أخبرها أنه ليس لديه الا فراش واحد لكليهما ، فلم يضايقها ذلك الأمر .

ومرت بضعة شهور وقد استمرأ كلاهما المرعى حتى بدأت صاحبتنا تتراجع رويدا رويدا .. وانتهى بها الأمر الى الهجر والإعراض .

وأصابه الضيق عندما علم أنها هجرته الى رجل آخر .. وحاول أن يعتب عليها .. ولكنها أنبأته أنها لا تستطيع أن تحب رجلا .. أيا كان .. أكثر من ثلاثة أشهر .

ودهش الفتى وسأل صاحبه عن زوجها وأين مكانه من كل تلك المغامرات ، فأخبره أنه موجود ، وقد يكون ذلك بمرآه ومسمعة أو فى غفلة منه ، ولكن المهم أنه لا يحرك ساكنا . وكانت صدمة للفتى خيبت فى المرأة آماله ، ولكن صاحبه قال ضاحكا :

- خلِّ عنك ، فهذا النوع من النساء ، والرجال ، أشبه شيء بالسبيل وصاحبه ، يرويان كل ظمآن على قارعة الطريق .

لم تعجب الفتى هذه الوقاحة من صديقه ، بل ولم يصدق مطلقا أن لهذه القصة نصيبا من الحقيق .. حتى أرته الأيام من المرأة ما جعله لا يستبعد حدوثها .

لقد علم بعد ذلك أن الاستهتار يجرى مع دمها ، وليس أدل على ذلك من الطريقة التى بدأت بها حياتها الزوجية .. فقد فرَّت مع زوجها وهى فتاة فى السابعة عشرة وتزوجت منه رغم اعتراض أهلها . ولم تمض بضعة أشهر حتى بدأت تهوى غيره .. وغيره .. وأدرك الفتى أن المرأة تشعر بفرط جمالها وتحس أنه سيصبح لديها ككنز البخيل ان لم تستعمله فى الإغراء والفتنة .. وأنها تكره أن يكون راكدا خامدا وتأبى عليه أن يكون سيفا فى غمده ، بل تريده سلاحا ماضيا مشعوذا ، قرابة العاشق ، وضحاياه القلوب والأفئدة . وبدأ الفتى يبصرها يوميا .. فقد ضمهما على البحر شاطىء واحد .. وكان يحس فى قرارة نفسه أنه مولع بها ولكنه مع ذلك كان يخشاها ، ويتجنبها كأنها مرض أو وباء .. والواقع أنه كان على حق اذ كانت مثل هذه المرأة شديدة الخطر عليه ، فقد كان هو شديد الحساسية ، سريع الاندفاع فى الحب .. وكان الحب يعنى عنده الحب بكل مافيه من اغراق وامعان ، وكانت المرأة بلا شعور أو حساسية ، وكانت سطحية الحب اذ لا يعنى عندها أكثر من لهو وعبث .

وهكذا كان الفتى يحوم حولها كالفراش حول النار .. ولكنه كان يفضل الفراش اذ ينأى بنفسه عن مدى الاحتراق حتى كان ذات يوم وجد نفسه يندفع الى النار دون حذر ولا روية .

كان ذلك فى لجة البحر وقد أخذ يسبح بهدوء حتى وصل الى صخرة قائمة بين الأمواج فتسلق الصخرة ، وجلس على جانب منها تعوَّد

الجلوس عليه ومضت برهة والفتى تائه فى بيداء الخيال حتى أحس بيد توضع على كتفه .

وذهل عندما أبصر خلفه بالمرأة الساحرة .. وقد علت وجهها ابتسامة حلوة فاتنة . وأخذت تتساءل معتذرة :

– أترانى أزعجتك فى وحدتك ؟ !

وقبل أن يدعوها للجلوس جلست الى جواره ، وارتبك الفتى وأجاب متلعثما :

– كلا .. مطلقا .. !

وبدأ يحس فى قربها نشوة وثملا .. فاسترق البصر الى جسدها العارى ، وريع كأنما يبصر فيها آلهة للجمال ، وشعر أنه قد أقترب من خطر داهم وتحدثت المرأة اليه .. فاذا بها حلوة الحديث .. لطيفة المعشر .. ثم افترقا أخيرا والفتى ما يزال من نشوته فى حلم جميل .

وتكرر اللقاء ، وكان الفتى يحاول جهده أن يتجنب لقاءها .. فقد كان يحس أنه بدأ يتعلق بها وأنها تشغل من قلبه حيزا يزداد بعد كل لقاء ولكن المرأة كانت تتعمد لقاءه .

وأخيرا بدأت المسألة تدخل فى دور جدى وكان ذلك فى يوم خرج فيه العاشق فى مركب صغير واقترب به من الصخرة ، فإذا بها قد جلست على قمتها . فأشارت اليه .. وانحدرت من الصخرة فقفزت الى داخل القارب وطلبت اليه التوغل فى جوف البحر .

وساد الصمت بينهما حتى قطعته بصوت هامس :

– يخيل الىَّ أنك تحاول تجنبى .. وأنا تنأى بنفسك عنى ؟

- انني لكذلك ! انني أخشاك وأرهبك ، لأني أحس كأني أتردى في مهاوى حبك ، وأنا أعلم أنك امرأة بلا قلب وان المسألة لا تعدو عندك العبث واللهو ، وأنني واحد من مئات الذين تعبثين بهم .

واقتربت المرأة منه حتى شعر بأنفاسها تلفح وجهه .. ولكنه دفعها بيده .. وابتعد الى نهاية المركب .. وعصف الغضب بها .. فصاحت مهددة : اني أحبك كما لم أحب من قبل .. فاذا لم تكف عن هذا السخف .. سأقذف بنفسي الى الماء . وقفزت وابتعدت في جوف البحر والفتى يظنها هازلة .. حتى بدأ رأسها الصغير يختفي عن نظره .. فأسرع نحوها بقاربه .. ووصل اليها أخيرا .. فوجدها قاب قوسين أو أدنى من الغرق .. وجن جنونه فقفز الى الماء ورفعها الى المركب وهي تلهث من فرط الإعياء .

ياللمرأة المجنونة .. ! لقد كانت جادة في قولها .. أتراها قد أحبت الفتى حقا أم أنها تريده كما يتحرق الطفل المدلل الى لعبته .. ؟

وضمها الفتى بين ذراعيه .. ووضع رأسها على صدره فهمست قائلة :

- كم كنت أشعر بالظمأ الى الحب .. وكم حاولت أن أروى نفسي منه .. ولكني كنت في كل مرة لا أرى الا سرابا خادعا .. لقد كنت حائرة هائمة ، أبحث لنفسي الحيرى عن مرفأ أو مستقر .. ولكن كل ما لقيته كان غريبا منفرا . فسرعان ما مللته وسئمته .. حتى لقيتك فأحسست أني وجدت أخيرا أليف روحي وتوأم نفسي .. ما كنت بعابثة .. ولا مستهترة .. ولكني كنت أبحث وأنقب .. واني لأحس الآن بالهدوء والاستقرار ، فقد وجدت ماكنت أبحث عنه .

وذهبت المرأة الى زوجها فطلبتَ الفرقة .. ودهش الزوج .. ورفض .. لا من أجلها .. وانما من أجل الطفل .

فصاحت به المرأة ساخرة :

- أى طفل هذا .. لعلك تظنه ابنك .. !

ولم يحتمل الرجل أكثر من ذلك .. فثارت ثائرته .. وطردها من البيت هى وطفلها شر طرده .. وبدأت المرأة تعيش مع الفتى .. ودهش الناس لما طرأ عليها من تغير وتبدل فقد ذهب عنها ذلك العبث والمجون .. وأضحت نموذجا لزوجة صالحة طيبة .

ومرَّت الأيام بعد ذلك .. فاذا بالفتى يصاب بحمى خبيثة .. واذا بالمرأة تضىء نفسها فى محاولة انقاذه .. حتى أصبحت كأنها شبح من الأشباح .. وأخيرا حلت النهاية المحزنة .

ولتتصوَّر معى مبلغ فجيعة المرأة عندما فقدت توأم نفسها الذى أفنت عمرها فى البحث عنه .. أصيبت بجنة وذهبت تهيم على وجهها .

- ألم تحاول أن تعود الى زوجها ؟

- لقد حاولت .. ليس من أجلها بل من أجل الطفل المسكين .. حتى تؤكد له أنه ابنه .. وأنها كذبت عليه أول مرة حتى يطلقها .. فوجدته قد غادر البلدة بعد أن هجرته .

وصمت الرجل مرة أخرى .. ثم رأيته يرفع وجهه متسائلا :

- ولكن هب أنه عاد ولقيها ، أتراها تستحق الصفح ؟

أطرقت برأسى .. ثم نظرت من النافذة فوقع بصرى على المرأة الذاهلة الحزينة .. وأحسست بالدموع تترقرق من عينى .. ورأيتنى أهتف برغمى :

- لو كنت مكانه لصفحت عنها وغفرت لها .. انها لم تخلص لأنها لم تحب . وعندما أحبت كانت مثلا للإخلاص .

وأشاح الرجل عنى بوجه .. كأنما تملكته خواطر جامحة متعارضة .. ثم ودعناه وغادرنا الدار ، وبعد بضعة أيام عدت الى المكان فلم أجد المرأة ولا الصبى فى مكانهما المعتاد وسرت بضع خطوات فاذا بصوت يهتف باسمى .. وتبينت فيه صوت الرجل الذى روى لى القصة .. فصعدت اليه .. وأخذنا نتحدث برهة .. ثم أشرت من النافذة الى مكان المرأة وسألته : أين ذهبت ؟

فأشار بيده الى حجرة مجاورة ، وأجاب فى هدوء واطراق :

- انها هنا .. لقد صفحت عنها ، وغفرت لها .

وكدت أصيح من فرط الدهشة .. اذا هذا الرجل هو زوجها ، ومددت يدى فشددت على يده بحرارة وهمست :

- أنت عظيم يا سيدى .. فأعظم الناس عفوا من عفا عن قدرة .




هذه الحياة

حياتى من أجلك

هذه لحظات لا تسرف الأيام فى منحها لنا . لحظات تمر بنا عابرة .. تومض فى حياتنا كومض البرق .. مضيئة خاطفة .. ترينا من جمال الحياة فى لحظة ما نعجز عن أن نراه طيلة العمر ، هى زاد القلب فى حاضرها وزاد الذهن فى ماضيها .

[المنظر الأول : احدى حجرات المستشفى العسكرى الكائن بالعجوزة وبها فراش رقد عليه جريح فى حالة اغماء وحوله طبيبان يتباحثان فى أمره] .

الطبيب الأول – هذه حروق بسيطة لا خوف منها . المهم تلك الشظية المستقرة فى جانبه . هذا هو ما أخشى منه .

الطبيب الثانى - أرجو ألا تكون ذات خطر كبير .

الطبيب الأول - من يدرى ؟

الطبيب الثانى - على أية حال يجب أن نحاول اخراجها .

الطبيب الأول - ليس الآن ... لابد من الانتظار . لايمكن أن نفعل معه الآن أى شيء .. ضع الغطاء عليه .

[ينادى الطبيب احدى المتطوعات] .

الطبيب الأول - ليلى .

ليلى - أفندم .

الطبيب الأول - أرجوك .. اعتنى بهذا الجريح ولا تفارقيه لحظة واحدة .

[يتحرك الطبيبان تاركين الجريح مغرق فى اغمائه] .

وتقبل ليلى فتشرف على نقل الجريح من الفراش المتحرك الى فراش فى الحجرة ، ثم يغادر الممرضون الحجرة وهم يدفعون أمامهم الفراش الخالى . وتقف الفتاة فى الغرفة برهة وقد بدت عليها آثار أعياء . وتلقى نظرة على الجريح المغطى بالضمادات و الذى لم يبد منه من علامات الآدميين سوى عينيه المغلقتين : ثم تهم بمغادرة الحجرة عندما تبصر جفنيه يرتجفان ويبدو كأنما قد أفاق من غيبوبته ويحاول أن يرفع أجفانه المتثاقلة .

يفتح الجريح عينه ، وينظر اليها نظرة خاوية كأن على عينه غشاوة أو كأنه لايميزها عن الجدران البيضاء . وتنظر هى اليه نظرة فاترة مكدودة لم تخل من الرثاء والعطف .. الرثاء الذى يحمله قلب

رقيق لجريح مجهول ، والعطف الذى تغدقه نفس رحيمة على مضاب لا تعرف عنه سوى أنه مصاب .

وتمر برهة يستمر فيها الإثنين تلك النظرة الخامدة الفاترة .. حتى تتأجج فجأة كأنما قد سرى فيها مس من الكهرباء .

مرة واحدة .. تنقشع عن عينيه تلك الغشاوة .. التى كانت تبديه كأنه لا يميز ما أمامه .. ويبدو فيها بريق لهفة .. ويختلج وجهه كأنما يود أن يقول شيئا .

أما هى فتفغر فاها وتجحظ عيناها .. وتهتف فى صوت مبحوح] .

[ليلى - أنت ؟ !! ... محمود !! .

[ومن وراء الضماد يصل اليها صوته خافتا ضعيفا] :

محمود - ابق معى .. لا تتركينى .

ليلى - سأبقى .. لن أتركك أبدا .. أنى هنا فى خدمتك . انك بخير .. لقد قال الاطباء ان جرحك غير خطير .

محمود - اجل .. انى بخير .. بل ما أحسست انى بخير أكثر مما أنا الآن .. هذا أكثر مما كنت أرجو .. الحمد لله .

ليلى - ولكن ... لا ترهق نفسك بالحديث .... يجب أن تخلد الى الراحة والسكون .

محمود - ان الحديث معك لايرهقنى ، انه يشفينى .. كم طافت بذهنى هذه الصورة التى نحن فيها الآن .. كم تمنيتها من صميم قلبى .. أنا جريح راقد وأنت تجلسين بجوارى ، تنصتين الىَّ ، وتمسكين بيدى

بين كفيك ، انى أود أن أنزع يدى من بين هذه الضمادات الثقيلة حتى أحس بمس يدك .

ليلى – لا ... لا ... لاتفعل انك لا تستطيع الآن ستنزعها قريبا عندما تشفي يديك من حروقها البسيطة ... ويجب كذلك أن تخلد الى الصمت .. فان الطبيب لن يسمح لك بأن ترهق نفسك بالحديث ... دعنى أتحدث أنا .. أرجوك .

محمود – قلت لك ان الحديث لا يرهقنى ، أنا ادرى بنفسى منك ومن الطبيب ... انى أستطيع الحديث اليك بلا أقل جهد أو مشقة ، بل أنى أتلهف على الحديث اليك .. كيف ألقاك ولا أتحدث اليك ؟

ليلى – سنتحدث بعد ذلك كما تشاء .. ان الوقت أمامنا متسع لكل ما تريد من الأحاديث .

محمود – لا أظن ، ان الوقت خائن ، كثيرا ما يسرقنا ولاسيما اذا وجدنا هانئين سعداء . وأنا أحس أنى سعيد ، سعيد جدا ... ما تحققت الىَّ أمنية فى حياتى بمثل ما تحققت الآن ، وما توقعت من القدر أن يحكم تدبيره هذا الإحكام . أأفتح عينى بعد طول أغماء فأجدك أنت أمامى ؟ .. أنت وحدك ، دون سواك من سائر البشر ، دعينى أتحدث اليك ولا تقاطعينى ، لا تحرمينى المتعة التى طالت لهفتى عليها ، كيف لا أتحدث اليك وأنا ما أتيت الى هنا الا من أجلك ؟ .

ليلى – من أجلى أنا ؟

محمود – أجل .. لقد ذهبت من أجلك ، وفعلت كل ما فعلت لأجلك ، وتمنيت أن يحدث لى ما حدث من أجلك . أبعد كل هذا لا أكون أتيت الي هنا من أجلك ؟ هل تذكرين كيف قابلت أخى منذ بضعة أشهر

عندما عاد من الميدان ... وكيف لقيته لقاء الأبطال وخصصتيه بكل عنايتك ورعايتك وجعلت تنظرين اليه نظرتك الى بطل يستحق التمجيد ؟

ليلى - أجل أنكر يوم عاد لأول مرة وقد ربط يده الى عنقه بعد أن أصابته احدى رصاصات العدو .. ألم يكن يستحق التمجيد ؟

محمود - طبعا يستحق .. ولو لم يكن يستحق لما ترك تمجيدك له فى نفسى ما ترك من اللوعة والأسى .

ليلى - أنا لم أقصد قط أن أسيء اليك أو أسبب لك شيئا من اللوعة والأسى .. لقد فعلت ما فعلت بدافع من احساسى بتقديره ، أو تقدير التضحية والبطولة من شخصه . وما كنت أستطيع أن ألقاه وهو جريح هانت عليه نفسه ورخصت حياته من أجلنا ، ومن أجل مصر ، بأقل مما لقيته به .

محمود - انى لا ألومك على تفضيلك اياه وتقديرك له ولا ألومه على فرحته بهذا الكسب والانتصار ... ولا ألوم نفسى على لوعتى ويأسى ... لقد كنا فى حبك وقتذاك أشبه بفرسى رهان ... وكنت أحس دائما اننى واياه كما يقولون (Tete à tete) ... بل كان يخيل لى الغرور فى بعض الأحيان أننى لديك أرجح كفة وأعظم قدرا ، هل تذكرين يوم فضلت البقاء انتظارا لأوبتى على الذهاب معهم الى الأوبرا ؟

ليلى - يوم عودتك من مطروح ؟

محمود - أجل .

ليلى - طبعا أنكره ... لقد ادعيت ليلتذاك أنى (مزكومة) ... وانى لا أستطيع الخروج ، وألحَّ علىَّ عمى - فى الذهاب ولكنى ازددت

تمارضا حتى أيقن الجميع حقا أنى لا أستطيع الخروج ... الا أخوك ... فقد بدا لى من تجهمه واكتئابه أنه يعلم دخيلة نفسي .. ويعرف تمارض مصطنع وأن بقائى ليس الا من أجلك ، وخيل الىّ أنه يتمني لو عدل هو الآخر عن الذهاب فقد كره أن يذهب بدونى ... وآلمه أنى أفضل البقاء فى الدار معك أن أذهب الى الأوبرا معه .

محمود - أية سعادة تلك التى أغرقتنى حينذاك ، عندما أقبلت على الدار فأخبرتنى الخادمة أن الجميع قد ذهبوا الى الأوبرا ، عداك .. وأحسست من قولها فرحة شديدة ... ليذهب الجميع الى حيث شاءوا ، انى ما بغيت فى الدار سواك لقد اندفعت اليك فى شوق جنونى ... وجرؤت لأول مرة على تقبيل يدك ونضوت عنى ملابس السفر فى سرعة البرق وسرعان ما جلست أمامك وانت مستلقية على الفراش وقد غطيت جسدك بالبطانية البيج .. انى أذكر كل شيء عنك حينذاك ... كل التفاصيل والحذافير .. أذكر زهر الأستر البمبى الذى نسقتيه فى الزهرية الزرقاء ... وأذكر المنديل الأبيض الصغير الذى كنت تمسكين به فى يدك .. وأذكر ذراعيك وقد امتدتا فوق البطانية ... وكفيك الرقيقتين ... وأصابعك الدقيقة التى سمحت لى أن أشبك فيها أصابعى ... أذكر وجهك الصغير المحاط بهالة من شعرك الذهبى وأذكر عينيك الخضراوتين الصافيتين .

ليلى - أنا أيضا أذكر كل شيىء .. أذكر فرحة عينيك وأذكر مسة أصابعك ... هذه لحظات لا تسرف الأيام فى منحها لنا ، لحظات تمر بناء عابرة .... تومض فى حياتنا كومض البرق ... مضيئة خاطفة ، ترينا من جمال الحياة فى لحظة ما نعجز عن أن نراه طيلة العمر ، وتستقر فى أنفسنا فلا تمحوها كف الزمن ولا تطويها يد النسيان ... اننا

لا ننساها أبدا ... فهى فى حياتنا شىء قائم بذاته . لا صلة له بما قبله وما بعده ، هى زاد القلب فى حاضرها وزاد الذهن فى ماضيها ... هى واقع جميل وذكرى أمتع وأجمل .. لقد جلست تنظر الىّ وأنظر اليك .. صامتين ساكنين وفى صمتنا ما هو أبين من الحديث وأشرح .. وأنطق وأفصح ... سألتك عما فعلت فى سفرك وسألتنى عما فعلت فى غيبتك .

محمود - انى أذكر كل ما قلت لك ، رغم تفاهته وأعى فى ذهنى كل ما قلته لى ... كلمة كلمة ... كما يحفظ الفقيه كلام الله . انك لم تفصحى لى عن شىء .. فقد كنا أخجل من أن نتبادل بيننا حديث الحب .. وكان حديثنا عاما سطحيا لم يجسر أحد منا أن يجعله يعبر عن عمق مشاعرنا ، مع ذلك فقد غمرتنا موجة من الرضا والهناء ... فضحت نفوسنا ، ونطقت بابلغ ما تكنه قلوبنا .

فظللت أحدثك وأنت راقد فى فراشك وقد تشابكت منا أطراف الأصابع ... فسرت خلالها الحرارة بينى وبينك كما تتلامس الأقطاب الموجبة والسالبة بأطراف الأسلاك فتكمل الدائرة الكهربائية .

وسرى النوم الى جفونك فأطبقت بخفة ، وسمعت أنفاسك تتردد هادئة ناعمة .. وجلست أرقبك فى نومك كالملائكة ، ثم رفعت يدك الى فمى .. فأودعتها أعمق آيات الحب والإخلاص ، وغادرت حجرتك فى سكون ، حتى لا أوقظك .

ونمت تلك الليلة قدرا كأهنأ ما يكون انسان . كيف لا وقد رأيت كفتى فى فؤادك ترجح ... ورأيتنى أفوز ... فى سباق العمر .

ولكن الأيام مرت بعد ذلك فاذا بالكفة تتعادل .. واذا بالثقة تعود فتبدد ، واذا بى ما زلت أعدو مرة أخرى فقد وجدت السباق بَينى وبين أخى من أجلك لم ينتهى بعد .

انى لم أفهمك قط ... كنت تمنحين وتمنعين ، تعرضين وتقبلين ... كنت تتأرجحين بينى وبينه ، فتؤرجحين نفسينا بين الأمل واليأس .

ليلى – أنا نفسى لم أفهم نفسى .. كنتما عندى ندان متساويان ... ما استطعت أن أفضل بين أحدكما والآخر تفضلا قاطعا ، وما استطعت أن أحزم أمرى فى أمركما . كنت أحب كليكما . لقد نشأنا ثلاثتنا فى بيت واحد . وكنت احس أنى أنا – ابنة عمكما – توأما ثالثا لكما . وشببت منذ طفولتى على حبكما سويا ، كشىء واحد لا يتجزأ ، وكنت استطيع فى صبانا أن أرضيكما معا ، وأن أعطى أحدكما من نفسى قدر ما اعطى لأخيه ، وكنت ألهو معك كما ألهو معه ، دون أن يحاول أحد منكما أن يخص نفسه بى ، أو يستأثر بحبى ، بل كنت بينكما ملكا مشاعا ، كما كانت كل حاجياتكما من أدوات اللهو اللعب ، وكم تمنيت أن أظل كذلك ، حتى بدأنا نشب عن دور الطفولة ، فاذا بى أجد الأمر جد عسير فقد أضحى من المستحيل علىّ أن أرضيكما معا ، اذ وجدت أن كلاكما يأبى الا أن أكون له وحده ، وأن يستأثر بى لنفسه ... لم يفصح أحدكما عن شىء ... ولم يصرح بشىء ومع ذلك فقد كنا – ثلاثتنا – نحس بكل شىء ونعرف كل شىء .

كنت حائرة بينكما ، وبين نفسى التى لا يستقر لها قرار .

كنت أقبل على أحدكما ، فأحس بلوعة الآخر ، لوعة خفيفة مكبوتة ، فتنتابنى من لوعته لوعة . فأقبل عليه لأخفف لوعته ، فتصيب

الآخر لوعة .. وهكذا كنت بينكما متذبذبة متأرجحة ، لم أعرف قط ، من منكما الذى أحب ؟ لسبب واحد، هو أنى كنت أحب كليكما .

محمود - كنت تحبين الغائب منا ، وتتلهفين على المصاب وكنت أحس - كما قلت لك - أننى وأخى فى سباقنا للفوز بك رأس برأس ... وانى أعدو وهو يعدو . أنا أسبق تارة وهو يسبق أخرى ... حتى شعرت فجأة أننى ألهث واتعثر وأنه قد جاوزنى اليك وأنه يوشك أن يفوز بك لم يكن قد فاز فعلا .

كنت أعرف أنه أشد منى جسارة ، واكثر اقداما .. وكنت أحس أنى أكثر هدوءا وتريثا وتفكيرا ... ولم أك أظن أن ذلك الفارق بيننا سيسبب لى تلك الهزيمة المنكرة .

لقد بدأ القتال بين العرب واليهود ، ولم يكن جيشنا قد دخل الحرب بعد ، وكنت أرى أن واجبنا هو أن نعمل ما نؤمر به وأن علينا أن ننتظر حتى يحارب جيشنا فنشترك مع وحداتنا فى القتال ونؤدى واجبنا فيه ، وأنه ليس على الإنسان أن يستبق الظروف ، ولكن أخى لم يكن يرى ذلك الرأى ... بل كان يتعجل الأمور ويتشوقّ الى المغامرة والقتال ... فطلب الاستيداع ... وترك وحدته ليتطوع الى جانب المناضلين العرب ملتحقا بقوة الكوماندوز .

وأحسست وأنت تودعينه ... أنى قد تضاءلت الى جواره ... وأنى لن أعد شيئا مذكورا .

ليلى - لو كنت مكانه لودعتك بمثل ما ودعته به ... لا أكتمك أنى كنت أحس لفرقته ألما ، ولجسارته واقدامه اجلالا وتقديرا .

محمود - أنا أعرف هذا ... وكنت أحس له نفس ما تحسين ... فهو أخى ... وأحب الناس الىَّ ، ومع ذلك فانى لم أستطع أن أمنع تلك اللوعة التى كنت أحس بها والشقاء الذى كان يفعم نفسى كلما رأيت قلقك عليه واهتمامك به وتلهفك على سماع أخباره . فى الوقت الذى لا تبدين لى سوى المشاعر العادية العابرة كأى انسان آخر فى الدار .

ليلى - ما قصدت قط أن أؤلمك .

محمود - ومع ذلك فقد آلمت نفسى أشد ايلام ... حتى كان ذلك اليوم الذى أقبل علينا أخى وقد جرح ذراعه وشدَّه الى عنقه ... فاذا بى أحس من لقائك له أن أملى فى حبك قد ذرته الرياح ، وأننى قد هزمت شر هزيمة .

ما كنت استطيع أن أفعل ؟

لم يكن أمامى سوى أحد أمرين : أما أن أرضخ للهزيمة ... واما أن أحارب بنفس السلاح ... سلاح الجسارة والاندفاع والإقدام ، ولم يكن تريثى - كما قلت لك - عن خوف أو جبن ، بل لأنى كنت أرى الواجب هو تأدية الواجب الذى نؤمر بتأديته ، وكنت أكره الاندفاع وأفضل أن أترك مصيرى للقدر يرسمه كيف يشاء ... فلا اتدخل فى تغييره .. وكنت أحب أن أحارب مع وحدتى وجنودى وكنت أكره أن أختار لنفسى طريقا قد أندم على اختياره وافضل السير فى الطريق الذى لابد من السير فيه ... حتى لا أعطى لنفسى فرصة الندم .. تلك هى طبيعتى .. وذلك هو مبدئى فى الحياة .

ليلى - وهكذا وجدت نفسك مضطرا - من أجلى - الى أن تخالف طبيعتك .. وأن تغير مبدأك فى الحياة ، وأن تندفع متطوعا للمغامرة والقتال ....

محمود - أجل لقد كرهت أن أفقدك بلا سبب فأنا فى قرارة نفسى لا أقل شجاعة عن أخى .

كرهت أن أفقدك .. بسبب ذلك التريث منى والانتظار فانا لا أخشى الحرب أو المغامرة ... ولكنى فقط لا أندفع اليها ... بل أنتظر حتى تأتيا الىَّ .

وهكذا صممت على أن أرسم مصيرى وأن أسلك الطريق الذى اخترته للفوز بك . ووقفت لوداعك وأنا أحس أنى استعدت لنفسى كثيرا مما فقدت ، وأن الثقة التى تبددت قد عادت تملأ جوانحى ... وأنا أرى عينيك مغمورتين بالدموع .. وأسمع صوتك الحنون يهتف بى (مع السلامة) .

واندفعت فى الطريق الجديد ... بصورتك أمام عينى ، وصوتك فى أذنى .. وقد عزمت على أن أكون بطلا ... أو على الأصح ألا أكون أقل من أخى بطولة ... لقد كنت أرى السباق بينى وبينه ما زال مستمرا ... ولابد أن أفوز فى النهاية .

لا أستطيع أن أشرح لك ما فعلت ، فأنا أكره التفاخر ، ثم أنه ليس لى فيما فعلت فضل ، فالفضل لك أنت ، ولا أشك أن أى انسان فى موضعى لم يكن ليفعل أقل مما فعلت .

لقد كنت اندفع بشعور المتسابق الى البطولة .. لم أكن أخشى شيئا .. فقد كنت أحس أن أقصى ما يمكن أن أصاب به هو أقصى أمنية لى .

لقد سمعت عن تطوّعك والتحاقك بالجيش ، وبدأت اتصور نفسى اذا ما أصبت أننى بين يديك ، ورسمت فى ذهنى نفس الصورة التى نجلس فيها الآن . كيف أخشي - بعد كل هذا - أن أصاب ؟ .

اندفعت فى القتال كمجنون لا يدرك خطورة ما حوله فقد كنت أحس أن هذه الخطورة هى وسيلتى للكسب . وهكذا ظللت أبحث عن المخاطر وأزج بنفسى فى أتون المعارك .. وأخرج منها سليما معافى .. حتى كانت ذات ليلة وقعت الواقعة .

انى أنكر كيف بدأ الأمر أبصر كل شيء أمامى كما حدث .

كنا فى محل القيادة وقد جلست والقائد ناشرين أمامنا احدى الخرائط نقدر عليها موقفنا وآخر تقدم لنا وكانت الريح تصفر من حولنا ودوى المدافع يصل الينا من المواقع البعيدة .

[المنظر الثانى : ميدان المعركة] .

[يسمع صوت دوى المدافع ، وصفير الرياح وصوت جهاز لاسلكى يستقبل اشارات . وينتقل المنظر من حجرة المستشفى الى ميدان المعركة] .

محمود - يجب أن نبدأ التحرك فى أقرب فرصة .

القائد - ان قواتنا لم تأخذ الراحة الكافية ... يجب أن نستريح برهة بعد وثبتنا الأخيرة .

محمود - لا أعتقد أن هذا مكانا مأمونا للراحة . انى أفضل الاستمرار فى التقدم بمجرد الفراغ من اعادة تنظيم القوات وملء العربات بالبنزين .

القائد – سيكون التقدم بالقوات المنهكة عملا عديم الجدوى .

محمود – أنا أعرف هذا ... ولكنى أعرف أيضا أن البقاء فى المواقع الحالية عمل جنونى ، فان هذه المرتفعات الكائنة أمامنا لو احتلت بقوات العدو ستمكنه من الفك بنا وتدمير قوتنا .

القائد – ان المرتفعات ليست فى متناول العدو فهو ما زال بعيدا .. وقد انبأتنا الدوريات بأنه لا أثر له فى المناطق المحيطة بنا .

(يسمع دوى شديد يصم الآذان .. ثم تسمع طلقات قريبة) .

القائد (مأخوذا) – ما هذا ؟

محمود (فى دهش) – هذه أصوات مدافعنا . انها تشتبك
القائد – عجبا .. ماذا حدث ؟

عامل اللاسلكى – قائد السرية الأمامية يطلب سعادتك على الجهاز .

القائد (يتحرك الى الجهاز ثم ينصت برهة) – أمر عجيب . استمر فى الاشتباك لا تدعهم يستريحون لحظة .

(يعود الى محمود) .

محمود – ماذا حدث ؟

القائد – احتل العدو المرتفعات المشرفة على مواقعنا . كيف حدث هذا . وقد كنت واثقا انه ما زال بعيدا ؟

محمود – لقد بتنا فى موقف لا نحسد عليه .. انه لم يعطنا حتى فرصة الراحة .. ما العمل الآن ؟

القائد - يجب أن نطرده من مواقعه فى أقرب فرصة قبل أن يتمكن من تثبيت أقدامه وتدمير قواتنا .

محمود - أجل لابد لنا من هجوم مضاد سريع خاطف .

القائد - هجوم مضاد بمشاتنا المكدودة المتعبة ؟

محمود - لا داعى للهجوم بالمشاة .. يجب أن تبقى المشاه فى مواقعها للتثبيت ومقاومته ، على أن نحاول تطويق أحد أجنابه بقواتنا المدرعة فتجبرة على التقهقر .

القائد - ليس امامنا سوى هذا ... اصدر أوامرك للمدرعات بالتقدم بسرعة وعمل تطويق خاطف من الجنوب . قل لهم ان حياة - القوة كلها تتوقف على عملهم وان المشاة لن تستطيع المقاومة اذا لم يتمكنوا هم من ارغام العدو على الانسحاب بضرب يمينه ومؤخرته .

- سأتقدم معهم لأقود الهجوم وسنطردهم من المواقع شر طردة ان شاء الله .

(يخرج محمود وينتقل المنظر الى المعركة . يسمع صوت ضجيج دبابات تتقدم ومدافع ثم يخف الضجيج) .

محمود (صائحا من فوق احدى الدبابات) ؟ - ماذا حدث ؟

عامل اللاسلكى من داخل الدبابة - لقد وقفت الدبابه التى فى المقدمة .

محمود - ماذا بها ؟

العامل - أصيبت بلغم ؟

محمود - كيف ؟

العامل - الأرض كلها مليئة بالألغام ... لقد احاط العدو مواقعه بحقل من الألغام وقد اندفعت مدرعاتنا فى أحد هذه الحقول .

محمود - مر قائد الدبابة التالية بالاستمرار فى التقدم .

العامل (بعد برهة ؟ - لا يستطيع وهو يقول انه محاط بالألغام وأنه لو تقدم خطوة واحدة لنسفت دبابته .

محمود - يجب أن نتقدم مهما حدث ... مر قائد الدبابة الثالثة .

العامل (بعد برهة) - انه يقول ان التقدم معناه الانتحار .

محمود - لابد أن نخوض الألغام ... ان وقوفنا معناه هلاك القوة .. يجب أن نحيط العدو حتى لو ضاعت كل مدرعاتنا .. ان ما بهم مجرد وهم فهم أشبه بقطيع الخيل الذى جفل قائده فتوقف عن المسير . سنتقدم نحن بدبابتنا أمامهم حتى نبعث الطمأنية فى قلوبهم .. تقدم.

العامل - ستنسف دبابتنا .

محمود - لتنسف .. تقدم .

(يعود صوت تقدم الدبابات واطلاق المدافع ...)

[المنظر الثالث : حجرة المستشفى والجريح يتمم رواية قصته] .

ليلى - وماذا بعد ذلك ؟

محمود - اندفعت فى جنون أخوض وسط حقول الألغام فبعثت الطمأنينة فى قلب القطيع الجافل .. وسرعان ما اندفع ورائى .

ليلى – ألم تصبها الألغام ؟

محمود – أصيب البعض ولكن البقية استمرت فى السير وأحس العدو بالخطر الذى يتهدده من جراء تطويقنا له ... ولم يكن أمامه سوى الانسحاب ... وبدأ العدو انسحابه عندما أحسست حولى دويا شديدا ، وإستغرقت فى اغماء طويل لم أفق منه الا مرتين : المرة الأولى أفقت لكى أجد قائدى يبتسم لى ويخبرنى أن المعركة قد انقلبت الى هزيمة منكرة للعدو ونصرا مبينا لنا .

ليلى – والمرة الثانية ؟

محمود – المرة الثانية .. أفقت لكى أجدك أمامى ... وأجدنى قد نلت كل ما أبغي ولأخبرك أنى فعلت كل ما فعلت من أجلك ... هل تريدين أكثر ؟

ليلى – لا .. هذا أكثر مما استحق . لقد ربحت المعركتين هناك وهنا . فى ميدان القتال وفى قلبى .

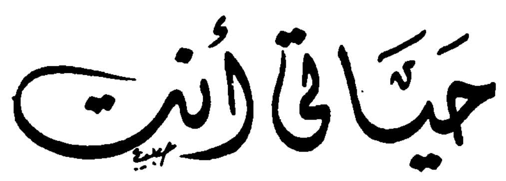
(يسود الحجرة صمت عميق ... ويغمض الجريح الرابح عينيه فلا يفتحهما بعد ذلك أبدا .. لقد كسب المعركة .. ولكن فى الرمق الأخير ...) .

وتقف هى أمام الجسد المسجى ... هامية المقلتين ... شاردة الذهن .. فاقدة الوعى .. لاتكاد تعى سوى كلماته الأخيرة : كل هذا من أجلك .. هل تريدين أكثر !!) .

ثم يخيل اليها أنها تسمع روحه تهتف وسط السكون العميق :

(وحياتى أيضا من أجلك) .





ما رميتك بدائى .. فأنت دائى ، وأنت مصابى .. أيها المحلل النفسى والكاتب العبقرى ، لقد كنت فى فهمك لى سطحيا لم تحاول التعمق .. وكنت فى نظرتك الى تربطنى الى كل الناس الى نفسك . ضع نفسك بجوارى تكشف العلة ، وتفهم السبب .

– انى أكرهك .

– وأنا أيضا أكرهك .

– لا أظن أن كرهك يعادل كرهى .. ان مجرد ذكراك تثير فى نفسى الحقد والبغضاء .. ما رأيت فى حياتى أخبث منك طوية ، ولا أحط نفسا ، ولا أقذر خلقا .

- أنا ؟

- أجل أنت .

- لست أرى فى قولك عجبا .. وما أظننى كنت أتوقع خيرا منه .. انك تكيلين لى بنفس الكيل .

خرجت موازينكم بالسواء شرا بشر فلا معتبة

- ولم بدأتنى بالشر ؟

- لأنك لا تستحقين غيره .

- ماذا فعلت بك ؟

- وماذا كان يمكنك أن تفعلى بمنأى عنك وعن شباكك ؟ لقد ظللت دائما خارج دائرة نفوذك .. كنت أكرهك وأحتقرك ، فماذا تستطيعين أن تفعلى بى ؟

- أيها الكاذب ، أنظر الى عينى ، لا تشح بوجهك .. لقد كنت بمنأى عنى ، لأنك جبان رعديد .. كنت تخشانى وتخشى الانهيار أمامى .

- أمامك أنت ؟ ما زال الغرور يمسك بتلابيبك ، ماذا أخشى منك ؟

- سطوة جمالى ، سحر عينى ، شفتاى وساقاى ونهداى . هل نسيت ما كتبت فى قصتك عنى ؟ .. أنسيت قولك عن لسانى :

- (لا أظننى فى حاجة الى أن أصف لك نفسى ، فأنت أدرى بى ، ولا أظنك مهما حاولت أن تحط من قيمتى من حيث الخلق والطباع الا منصفا اياى من حيث الفتنة والجمال قل عنى جرثومة شر ، قل ما تشاء ، فانك لن تستطيع بقولك أن تطفىء بريق الافتتان المنبعث من آلاف الأعين المتطلعة الىّ ، ولن تستطيع أن تخفت همسات الإعجاب

التى تلهج بها القلوب قبل الألسن .. قل ما تشاء فليس قولك بضار أنوثتى المتدفقة ولا فتنتى الفياضة ، قل ما تشاء فان قولك سيذهب هباء أمام نضج صدرى واستدارة ردفىّ واستواء ساقى .. قل ما تشاء ولكن لا تقل انى غير مغرية ، ولا جذابة ، فانى ألمح فى عينيك مبلغ لهفتك علىّ ورغبتك فى) .

- عجبا ! انك تحفظينه عن ظهر قلب .

- أتنكره ؟ أتنكر اعترافك بفتنتى وجمالى ؟

- لم يكن اعترافك بمعنى الكلمة .

- ماذا كان اذن ؟

- كان شيئا من مستلزمات القصة ، كان مجرد (رتوش) لابد منه . لم أكن أستطيع وصفك كما أنت ... بل كان لابد أن أمنحك تلك الأوصاف وأضفى عليك تلك الروعة حتى تفتنين القارىء .

- هكذا ؟ اذن فأنت تعتقد أن الروعة من صنعك ؟

- طبعا .

- والسفالة والسوء ؟

- موجودة فى الأصل .

- يا للقحة ! يا للكذب والنفاق ! انى أكرهك .

- شىء مفروغ منه .

- وأود لو أستطيع أن أنشب أظافرى فى عنقك .

- أمنية طالما جالت فى ذهنى .

- أن تنشب مخالبك فى عنقى ؟

- أجــل .

- عنقى الذى وصفته (بالعنق العاجى الذى خلق للقبل) ؟

- هراء ... قلت ان هذا كله طلاء قلم .. ليس له فى الواقع أصل .

- أتعنى أنك لم تحبنى قط ! ؟

- أنا أحبك ؟

- ولا اشتهيتنى ؟

- أشتهى حية رقطاء ؟ أشتهى أفعوانا ساما ؟ ما دعوت الله الا أن يقينى شرك .

- جبان ، كاذب .. أنا واثقة من جمالى ، واثقة من احساسك بفتنتى وسحرى .. لن يجدى انكارك .. فكم كنت المح فى عينيك (كما تقول فى قصتك) مبلغ لهفتك علىّ ، ورغبتك فىّ .. عبثا تحاول أن تقنعنى بأنك تكرهنى حقا .

- لا يهمنى كثيرا أن تقنعنى .. لقد كرهتك فيما مضى وأكرهك الآن ، وسأظل على كرهك من صميم قلبى .

- لم تكرهنى ؟ ... انى لم أفعل بك ما يستدعى كل هذا الكره ؟

- لم تفعل بى شيئا . ولكنك فعلت بغيرى . كنت أرقبك من بعد وأنا أتحرق غيظا ، وكنت أود أن أسحقك بقدمى كما تسحق الحشرة السامة .

- أو لم تفعل بعد ؟

- حاولت .

- ونجحت ؟

- لا أظن . بدليل أنك ما زلت حية تسعين وتلدغين .

- هذا دليل واه ، حية فى الظاهر ، ميتة فى الباطن .. انك لم تسحق جسدى ولكنك سحقت قلبى .

- عجيب أمرك .. ما ظننت أنك تحسين ، وما ظننت أن لك قلبا يسحق .

- وماذا تعرف أنت عنى ؟

- كل شى .. أو هذا على الأقل ما خيل الىّ .

- أحمق .. انك لا تعرف أكثر مما يعرف غيرك .. هذه القصة التى كتبتها عنى لم تأت فيها بجديد .. انك جمعت المعلومات المعروفة من هنا وهناك ... ثم أفرغتها فى قصة وأضفت اليها الحواشى والذيول ... وحاولت أن تحلل مشاعرى وتنفذ الى أعماق قلبى وتكشف ما ستر من نفسى .

- وأظننى نجحت ؟

- نجاح يسير ، فى بعض الأحيان .

- وفى البعض الآخر ؟

- فشلت فشلا ذريعا ، لقد خذلتنى وظلمتنى ، انك لم تحاول أن تنصفنى .

- أنت التى لم تنصفى نفسك .

- ربما .. ولكن كان لى عزاء فى أن ينصفنى الناس أو على الأقل العقلاء منهم الذين ينصفون الغير ، ويقدرون مشاعرهم ويفهمون خبايا نفوسهم ... والذين كنت أظنك واحدا منهم ... كنت أحسن الظن بك كثيرا .

- والآن ؟

- لا أظنك تنتظر أن أحسن الظن بك ، انك لابد وأن تكون أحد اثنين . اما جاهل يدعى علم ما ليس له به علم ، واما مغرض مدع مفتر ، قصدت مذلتى ، وسحق قلبى وتحطيم كبريائى .

- أما أنى قصدت مذلتك ، وسحق قلبك ، وتحطيم كبريائك ، فهذا مالا شك فيه ... أما انى مفتر مدع ، فهذا مالا أقرك عليه ... ان بك من السوء مالا يدع مجالا لافتراء او ادعاء ، أنت أسوأ من كل مختلقات الشر ومفتريات السوء .

- لم أقصد أنك افتريت على وقائع ، فالوقائع مشهورة ثابتة ولكنك افتريت على مشاعر وأحاسيس ، لم تحاول أن تلتمس لى الإعذار أو ترجع مساوئى الى مراجعها الحقيقية وتعللها بأسبابها المضبوطه ، ولكنك أخذتها قضية مسلما بها وافترضت أنى من معدن سوء ومنبت شر .

- لقد رويت قصتك بلسانك ، لقد كانت اعترافا منك أتراك لو تهيأت لك فرصة اعتراف أكنت قائلة غير ما قلته على لسان بطلة قصتى ؟ ماذا تستطيعين أن تنكرى منه ... أتنكرى قصة زواجك الأول وأنت مازلت (على حد قولهم) فى البيضة .. كنت فى السادسة عشرة ، سن البراءة والطهر ، ولكنك لم تعرفى قط براءة ولا طهرا ، فقد خلقت والسوء والسفالة فى دمك ،وأوقعت صيدك الأول.. كان كهلا فى مثل سن أبيك ... وتزوجتيه قريرة راضية ... بل عامدة متعمدة لم يجبرك عليه أحد لم تكرهك عليه حاجة ... بل أنشبت فيه مخالب فتنتك . فتنة مظهرها البراءة والسذاجة ، وباطنها الخبث واللؤم ... وانتزعت الرجل من عائلته الطيبة وحرمت منه أولاده وزوجته ... سبعة أشخاص

قهرتهم وحدك .. لأن نفسك الشريرة كانت تتوق الى الثراء وكان الطمع يستعر فى جوفك ، وفى أى سن ؟ فى سن التفتح الذى تهفو فيه الروح الى روح ترق لها ، والى قلب يحنو عليها ... ولكنك كنت فتاة ذئبة ، فلم يكد يصادفك صيد سمين حتى أطبقت بأنيابك عليه .. وفى غمضة عين انتقلت من بيتك الحقير الى قصره المنيف ، ولم تعودى الفتاة المسكينة الفقيرة بل أصبحت ربة الملايين وزوجة الباشا الكبير ، ذى الأبهة والفخامة ، ولو أنك رضيت بحالك وحمدت للرجل نعمته لهان الأمر ، ولكنك لم تقنعى بمال الرجل وثراءه وأخذت تبحثين عن المتعة ، وانطلقت فى سبيلك الطائش الآثم فقلبت بيت الرجل المحترم الوقور ... الى ماخورة تضج بالفسق والمجون والحفلات الصاخبة ، وأرقت الخمر فى المضاجع ، وملأت البيت بالسفلة من الرفاق ... وكنت أشبه بالمجنونة لم تتركى منكرا الا فعلته ، وكان الرجل قد أطلق لك الحبل على الغارب وترك لك الحرية تفعلين ما تشائين ، وماذا كان يستطيع أن يفعل وقد شددتيه اليك بوثاق فتنتك ، لم يكن عليه الا الرضوخ والاستسلام ، وكان المفروض بعد كل هذا أن تكونى راضية عنه وأن تسمحى له على الأقل أن يستمر فى الحياة الى جوارك ، ولكنك - لشر متأصل فى نفسك - أو لجنون الإجرام فى خلقك قد أبيت عليه الحياة وصممت على اخراجه منها ، فوضعت خطتك للتخلص منه ... وانتهى الأمر بك الى قتله . أجل ! لقد قتلته . هل تنكرين ؟

- لا ... لا ... لقد كنت أتمنى قتله ، لقد كنت أريد التخلص منه .

- وخرجت من قتله (كالشعرة من العجين) ... كان كل انسان يعرف أنك القاتله ، ولكن لم يقم عليك أى دليل فقد قضيت عليه بمنتهى السهولة .. أنهكت قواه وحطمت جسده ومزقت أعصابه ، ثم عرضتيه

وهو راقد يشكو من داء صدره لتيار هواء بارد فى ليل قر ، فقتل لساعته . لقد استكثرت عليه أن يموت موتة طبيعية وبخلت عليه ببضعة أيام أخر .

- لقد كنت فى عجلة ... لم يكن هناك وقت للإنتظار .

- وعلام العجلة أيتها الشقية ! ... ماذا فعلت بنفسك ووقتك بعد هذا ؟ لقد رحت ترمين الشباك مرة أخرى ... فأتتك بصيد جديد ، أو سرقة جديدة ... لقد كانت نفسك الشريرة تدفعك دائما الى أن تسلبى ملك غيرك ... فى مرة تزوجت كان زواجك انتزاعا لزوج من حظيرة زوجته ، وكان الصيد هذه المرة زوج صديقتك الوفية المخلصة ابنة زوجك الأول ... لقد كنت سوط عذاب على الأسرة المنكوبة ... سلبت الأم زوجها ، فلما قضيت عليه التفت الى الإبنة فانتزعت بمخالبك رجلها .. انتزعتيه ببساطة كأن هذا أمرا واجبا عليك ، أو كأن الأسرة المسكينة كان يجب عليها أن توفر لك الأزواج واحدا بعد الآخر ... وهكذا انتزعت الفريسة وتركت الصديقة تتلظى بنار الفرقة والأسى لا لتنعمى بزوجها ، بل لتلفظيه بعد ذلك لفظ النواة ، وتهجريه وتغرقيه فى عباب اليأس والتعاسة ، فيقدم على الانتحار ، وتقفين أنت باسمة الثغر ، تشاهدين فريستك الثانية تتخبط فى دمائها أيتها السفاكة القاتلة ، ماذا يمكنك أن تنكرى بعد كل هذا ؟

- لا شيء ، انك لم تأت بجديد .. ان هذا هو ما يعرفه كل الناس ، وهذا تكرار لم كتبته عنى فى قصتك أو كما تسميها اعترافى !

اين اذن الافتراء فى هذا ؟

- لقد قلت لك أنك اما جاهل أو مفتر ، ولكن يبدو لى أنك جاهل ومفتر معا ... ان ما ذكرته هو ما يعرفه الناس ولا أظنك أقل منهم

جهالة ... أما افتراؤك فهو فى محاولتك تحليل نفسى وادعاءك أن الشر متأصل فيها ، وأننى مصابة بجنون الإجرام .

- وهل لأعمالك من علة سوى ذلك ؟

- العلة هو أنت ... أنت وحدك منبع الداء ، وأصل العلة .

- أنا ؟

- نعم أنت .

- حقا ... رمتنى بدائها وانسلت .

- ما رميتك بدائى ، فأنت دائى ، وأنت مصابى أيها المحلل النفسى والكاتب العبقرى ، لقد كنت فى فهمك لى سطحيا لم تحاول التعمق ، وكنت فى نظرك الّى تربطنى الى كل الناس الا نفسك .. ضع نفسك بجوارى تكشف العلة ، وتفهم السبب .. عد بذهنك الى الوراء بعيدا بعيدا . أتذكرنى وأنا طفلة ؟

- أجل .. أذكرك

- أتذكر عندما كنا فى روضة الأطفال سويا ؟

- أذكر .

- عندما كنا نلهو أنا وأنت وبقية الأطفال ، وكنت أنا أحاول التقرب منك ولكنك كنت تنفر منى وتصدنى وتقرب طفلة أخرى أفضل منى مظهرا وأوفر ثراء ؟ .

- أكاد أذكر شيئا كهذا .

- لقد كانت هى عدوتى ، كانت دائما تبعدنى عنك ... كنت اتضاءل أمامها واحس بفقرى وثرائها ، وضعة أصلى وطيب أصلها .. ولكنى

مع ذلك لم أيأس وكنت أستجدى صداقتك المرة بعد المرة ، حتى حدثت حادثة صدمتنى وكسرت قلبى الصغير وتركت به جرحا لا أظنه قد ألتأم حتى الآن .

- كسرت قلبك وقتذاك .: كيف ؟

- كنا ذات مرة نلهو كلنا فى دارهم ، وكنا نلعب لعبة (الفرح) وأعددنا الطبول والعوالم والموسيقى والشربات وبقى أن ننتقى العريس والعروس ، ووقع عليك الإختيار لتكون العريس ، وأصابتنى اذ ذاك فرحة وتقدمت معلنة أنى سأكون العروس ووقفت بجوارك فرحة باسمة آمرة اياهم أن تبدأ الزفة عندما سمعتها تصرخ شاكية ثم أبصرت أمها تتقدم وهى تمسكها من يدها فتجذبنى بعيدا وتضعها مكانى وتأمرنى بأن أقف مع الخدم ، وطفر الدمع من عينى ونظرت اليك مستغيثة علك تصر على بقائى معك . ولكنك لم تأبه بل دفعت ذراعى جانبا ووضعت ذراعك فى ذراعها وتركتنى ملومة محسورة .

- لا أظنك تعنى ان هذا هو السبب فى شرورك .. لقد كنا وقتذاك أطفالا لا نكاد نعى .

لا . لا . لقد كنت أعى جيدا وقضيت الليل بطوله باكية .. لقد تكوَّنت العقدة فى نفسى منذ ذلك الوقت ثم أخذت تشتد على مر الأيام وكر السنين فزادتها المقارنة الدائمة بينى وبينها ، مقارنة بين الفقر والغنى والحرمان والشبع . والهزيمة والانتصار . مقارنة ملأت نفسى مرارة وأفعمت قلبى سخطا وحقدا . ووجدت بعد أن كبرنا ودخلنا مرحلة الشباب أن حبى لك يزداد ورغبتى فيك تشتد ولكنه حب يائس ورغبة فاشلة .. فأنا أحبك وهى تستأثر بك . وأنا أقبل عليك وهى تجذبك .

وكأنى بها كانت تحاول تقريبك لمجرد النكاية بى ، ولقد كان هذا هو الواقع اذ ما كادت تحس أنى انصرفت عنك حتى انصرفت هى .

– وكيف انصرفت أنت ؟

– سنحت لى الفرصة الكبرى . فرصة العمر .. فرصة المخذول لانتصار حاسم وفرصة الموتور لثأر قاصم . فكيف لا أستغلها ؟ كيف لا أستغل حمق كهل تدله في هواى ، وأى كهل ؟ كهل يستطيع أن يجعلني كما قلت ربة ضياع وصاحبة ملايين .. وكيف لا أستغل فرصة زلة الأب وجنونه وانزلاقه في هواى وتهافته عليَّ كلما ذهبت لزيارتها . لقد انفرد بى ذات مرة وعرض عليَّ الزواج . وذهلت بادىء الأمر وتوهمت أنه يهزل . ولكني وجدته جادا كل الجد . وفكرت برهة مرت خلالها على ذهنى صورة أمها وهى تنتزعنى من جوارك لتضع ابنتها مكانى وتأمرنى بالوقوف مع الخدم .. ولم أفكر أكثر من ذلك بل هززت رأسى موافقة ... لقد حانت فرصة الثأر .. فأقهرها وأقهر القدر وأقهر الزمن وأقهرك أنت ... سأنظر لكم جميعا من فوق أنفي وأقلب شفتى شامته ساخرة .

– هكذا .. ولكن لم لم تخلصى له وتقومى سيرك وتحسنى تصرفك ؟ لم لم تكونى أعقل مما كنت ؟

– حاولت . حاولت أن أكون عاقلة وأن يكون زواجى منه آخر حماقة أرتكبها . ولكن ثمة شيء أطار صوابى وأضاع رشادى . شيء كان يجب أن أتوقعه وأن أروض نفسى عليه ما دمت قد تزوجت ، ولكنى مع ذلك لم أستطيع احتماله .

– وما هو ؟

– زواجك .

– زواجى أنا ؟

– أجل . لقد كنت أحبك . ما كففت لحظة واحدة عن حبك . ولم أكن أعرف ماذا يمكن أن آمل منك . ولكن كان لى بصيص ضوء . كنت أحس أنى – بطريقة ما – سأنالك ربما بعد أن يموت زوجى . وأضحى خالية وتسنح لنا فرصة الزواج .

كان هناك أمل يراودنى .. قد يكون ضعيفا جدا .. وفى حكم الاستحالة ، ولكنه كان يبعث فى نفسى عزاء خفيا وصبرا كامنا . فلما تزوجت أنت .. ضاع الأمل وخفت البصيص وشملتنى حلكة من اليأس شاملة ورحت أندفع فى اللهو وأغرق فى الشراب . لقد كنت أتلمس العزاء ... ولا عزاء .

– ولم عجلت بنهاية زوجك ؟ لم كانت كل هذه اللهفة على الخلاص منه ؟

– لأن بصيص الأمل فيك عاد يلمع مرة أخرى . لقد ماتت زوجتك فتوهمت أنى أستطيع أن اتخلص منه وأخلو لك .. ولقد طلبت منه الانفصال ، ولكنه كان صلبا عنيدا فسألته أن يطلق سراحى اذ كرهت حياة النفاق والسوء ، ولكنه أنبأنى أنى لن أخرج من داره الاعلى جثته ، لقد كان يظن أنه يعيش ابدا ، ولكن نهايته حلت بسرعه وقال الناس أنت قتلته . فليكن . قتلته قتلته .. ماذا يهمنى من أقوالهم ؟ لقد كنت أتمنى فعلا أن يموت فى كل لحظة ، وكنت أود فى بعض الأحيان وهو يثقل علىّ بثرثرته وسخافاته أن أقتله ، كل انسان على ظهر الأرض يتمنى أن يقتل بعض الناس . كل ما فى الأمر أن القدر كان كريما معى فحقق لى أمنيتى .

- وسرقتك لزوج ابنته ؟

- لا تكن أحمق ! أي سرقة هذه ؟ لقد كان الرجل يرتمى على قدمي . وكان يطاردنى بحبه في كل لحظة ، ولكنى صددته وأعرضت عنه .. لم أكن أراه يستحق أن أحطم من أجله قلب زوجته رغم أنها قد حطمت قلبى فيما مضى . ولكنى كففت عن صده عندما أتت الىَّ ذات يوم واتهمتنى بأنى أحاول اصطياد زوجها وكالت لى أقذع السباب .. وأنبأتنى أن زوجها يحتقرنى ويزدريني وأنه لا فائدة هناك من الجرى وراءه ، ولم أجبها بكلمة ، فقد كانت اجابتى عملية جدا ، فى اليوم التالى تزوجته لأريها كيف يحتقرنى ويزدريني وبعد أيام لفظته لها لأريها أنى لست فى حاجة اليه .

- وتركته ينتحر ؟

- حمار غبى . ان حياة مثله لا تحسب حياة .. ان العالم لم يفقد بموته شيئا .

- اذن فمرجع كل هذه الشرور هو ...

- انى أحبك . وأنك حياتى ، وبغيتى ومنية نفسى التى لم أكف لحظة واحدة عن المطالبة بها والتلهف عليها .

- وحياتى أنت ... وأنشودة قلبى وتغريدة روحى .. كنت دائما أحبك . ولكنى ، كما قلت كنت جبانا رعديدا . كنت أخشاك وأخشى فرط سحرك وفتنتك . كنت دائما بمنأى عنك لأنى كنت أفتقد الثقة فى نفسى .

- تعال ، اقترب ، هات يديك فطوق بهما جسدى .. أجل ضمنى اليك بشدة أكثر . أكثر .. ضع شفتيك على شفتى .. اضغطهما .. دع أسنانك تصطك بأسنانى . أجل .. هكذا .. انى أحبك ... أنى أعبدك ... لقد كان دائما بصيص ضوء ، وكنت أشعر أنى سأنالك بطريقة ما .

حياة راضية

حياتى الآن أفضل .. انى أحس بحرية أكثر ... لا أخشى أن أخدش هذا التمثال أو أن ألوث هذا المفرش ... نحن لم نتمتع قط بما كنا فيه .. لقد كنا نعيش فى متحف للنظارة ولا نتمتع به .

هادئة دافئة .. أسدلت الستائر على نوافذها فحجبت ما بالجو

الحجرة :

من عصف ريح وصبارة قر ، وعلى احدى الارائك المذهبة الوثيرة جلست سيدتان فى مقتبل العمر ما زال بهما الكثير من جمال الصبا وتضارة الشباب ، وكل ما بالحجرة يوحى بجاه عريض وثراء مفرط ، ورائحة الاستقراطية تفوح من جوها العطر وريشها الفخم وطنافسها الثمينة وصورها الزيتية البديعة .

ووضعت ناهد هانم - ربة البيت - فنجانها فوق المنضدة الأنيقة الصغيرة وأتكأت بظهرها على مسند الأريكة وأطلقت من صدرها زفرة خفيفة .. فتساءلت درية هانم ضاحكة :

- خيرا ؟

- أحس بكثير من ضيق .

- لعل ضرسك قد عاد يؤلمك ؟ لا تخشى خلعه .. فهى مسألة بسيطة .

- لم أفكر فيه قط .

- لعلها اذن دعوة لافتتاح أحد فروع المبرة فى قنا أو أسوان ... يجب أن تحتملى .. فهذا هو ثمن الشهرة والبروز فى المجتمع .. لقد أضحيت امرأة هامة .

ومضت فترة صمت قطعتها ناهد بسؤالها فجأة :

- أتريدين أن تسدى الىّ معروفا ؟

- ليس قبل أن أعرف نوعه .

- سترافقيننى هذا المساء .

- أكره دعوات العشاء والسهر والمجتمعات ، لا فائدة .

- لاتكونى حمقاء متسرعة ، انها ليست دعوة عشاء ولا سهرة فى مجتمع .. انها زيارة قصيرة لإحدى الصديقات . هل تعرفين عفت رشدى ابنة رشدى باشا ؟ .

وفكرت درية لحظة ثم هزت رأسها نفيا ، وأردفت ناهد تقول فى دهش :

- لا تعرفينها ؟ ولكنك لا شك قد سمعت عن رشدى باشا .. هل تعرفين مستشفى المبرة الكائن فى المنيل والمطل على النيل ؟

- بالطبع .

- ان ذلك هو القصر الذى ولدت فيه ... أنظرى الى ضخامته وفخامته واتساع حديقته ثم تصوريه بيتا خاصا .. كان قصر أبيها قبل أن يصبح مستشفى ، ولقد سمعت أنها عادت الى سكنى المنيل مرة ثانية بعد طول غيبة .. أذ أنبأنى (عم على الطباخ) أنها تقطن فى نفس الشارع الذى يقطن فيه ، فى حجرة فوق سطح أحد المنازل .

- حجرة فوق السطح ؟ كيف ؟ ولما ؟

- لأنها لا تستطيع أن تعيش فى خير منها .

- وكيف فقدت العائلة ثرائها وجاهها ؟ الخمر أم الميسر أم النساء ؟

- لا شيء من هذا .. كانت العائلة تتمتع بسمعة طيبة وكان كل أفرادها أهل صلاح وتقوى .. ما دب فيهم دبيب فساد ولا خيمت عليهم سحابة سوء .

- اذن فكيف انحدر بهم الحال ؟

- لقد هوى بهم داء الاستقراطية والعظمة !

- داء العظمة ؟

- أجل ! لقد كان ثراؤهم محدودا ، وكانوا أغنياء بالقدر الذى يبديهم كذلك ، ولكنهم لم يكتفوا بذلك ، فقد كان بهم داء التفوق والسباق الى الظهور ... لم يكن يهمهم فقط أن يظهروا أنهم أغنياء ، بل كانوا دائما يودون أن يكونوا الأغنى .. وكان اسمهم دائما فى قمة كل قائمة تبرع خيرى ، مائة هنا ومائتان هناك ... وثروتهم لا تكاد تفى الا بحاجاتهم الضرورية .

- أمر عجيب .

- ليس هذا فقط ... تصورّى أن الأب استمر يدفع أجر خدمة حتى بعد أن أضحى فى غير حاجة اليهم ... لقد ظلت رواتبهم تجرى غير مقطوعة ولا ممنوعة .. وظلت بيوتهم مفتوحة رغم أنهم لا يعملون شيئا .

- لاشك أنه كان مثالا للطيبة والكرم ؟

- ليس كرما ولا طيبة ... فقد كان مخلوقا فظا شرسا متعجرفا .. ان المسألة كلها لا تعدو أن تكون - كما قلت لك - داء السيطرة والرغبة فى السيادة ، وكان للرجل ابنة وحيدة هى عفت .

- أغلب الظن أنها مخلوقة متعجرفة متكبرة كأبيها ؟

- على النقيض ، ما رأيت أعذب منها ولا أجمل خلقا .

- اذا فلم تخشين زيارتها ؟

- لأنى أشعر ...

ثم صمتت فجأة ونهضت من مقعدها وهى تقول :

- ولكن هلمى بنا .. فانى أخشى أن يتأخر الوقت .. ولا أظن مفاجأتها بالزيارة فى وقت العشاء تكون أمرا سارا .

- وبعد لحظة كانت كلتاهما قد وضعت على كتفيهما فراء ثمينا واضطجعت فى العربة البويك التى أخذت تنساب فى شوارع جاردن سيتى .

وقالت درية متسائلة فى غير اكتراث .

- أتخشين زيارة عفت لأن الحال قد انحدر بها ؟

- أجل ... وأكثر من ذلك لأن الحال الذى انحدر بها قد ارتفع بى ... فلم يعد هناك أى شبه بينى وبين الفتاة التى تعوّدت أن تراها منذ سنين خلت .. ألم تقولى أنت نفسك أنى قد أضحيت امرأة هامة ... ان حياة الترف التى أحياها الآن اذا قيست بما كنا عليه فيما مضى تعد احلاما جنونية لقد كان الفرق بيننا وقتذاك كبيرا .. كنت ابنة تاجر أقمشة متوسط الحال من تجار الغورية .. وكان أبوها أحد بضعة رجال يشار اليهم بالبنان فى مصر .. ولم يكن هناك ما يربطنا سوى الجوار ... فقد كانت دارنا المتواضعة تبدو راكعة أمام قصرهم وكأنها كوخ حقير .

- وكيف انقلب الحال ؟

- أخذت تجارة أبى تنموا شيئا فشيئا وأصبحت لديه المقدرة على أن يدخلنى مدرسة الليسيه ... فاذا بى قد أضحيت زميلة لابنة النعمة والثراء .. أجلس معها على مقعد واحد .. وأسير بجوارها جنبا الى جنب .

وكيف كانت تقابلك وقتذاك ؟

- بمنتهى الرقة واللطف والأدب ... لقد قلت لك انها كانت نموذجا للتواضع والعذوبة .. كنت أقف أمام الباب لأرقبها وهى تصعد الى العربة الفخمة المطهمة ذات الخيول العربية الأصيلة .. فكانت تدعونى الى الركوب معها وتلح فى أن أتناول معها ما تحمله من الملبس والشيكولاته ... وهكذا كنت أصحبها فى المدرسة وفى الذهاب والجيئة حتى توثقت بيننا عرى المحبة .

- وهل دعتك الى زيارة قصرهم ؟

- عندما دعتنى أول مرة بعد أن استأذنت أباها ... اعتبرت الدعوة حدثا فى العائلة ، وأخذت أمي تمشطنى وتزيننى كأنى عروس توشك أن تزف ، وأخذت تلقننى ما أقوله وما أفعله .

- لعلك قد تصرفت كما يجب ؟

- ليس بالضبط ، فقد كنت حسنة السلوك والتصرف حتى رأيت تمثالا لنمر محشو بالقش ، وقد جثم على الأرض أمام أحد الأبواب ... وأغرانى منظره بامتطائه ، وقفزت على ظهره .

- وماذا حدث ؟

- لم يتمالك الأب نفسه ... فنهرنى .. ولم آبه كثيرا ... ولكن عفت احمر وجهها وترقرق الدمع فى عينها فقد آلمها أن يعنفنى أبوها .

- وكيف وجدت البيت ؟

- بيت ؟ ! لقد كان متحفا ، كان كل ما فيه تحفة رائعة ، السلم العريض الذى يصعد من الصالة ، ويتفرع ذات اليمين وذات اليسار ، واللوحات الزيتية التى تغطى الجدران والسجاجيد التى تغوص فيها الأقدام .. والتماثيل الرائعة .. لقد كانت تلك هى بضاعتهم الفخامة والأبهة والعظمة وعدت الى بيتنا قريرة راضية من فرط ما أبدت لى عفت من ترحاب وحب ، ومن ذلك اليوم زادت بيننا الصلة وتوثقت عراها ... ولم أعد أهاب القصر ، بل كنت أدخل وقتما أشاء ، وأحل فيه كما أحل بدارنا ، وأخذ أخى يشاركنا اللعب .

- أخوك محسن ؟

- أجل .. لقد كان يكبرنى وقتذاك بعام واحد .

- والآن ؟

- بكثير ... بعشرة أعوام على الأقل .. لقد كنا نلهو سويا نحن الثلاثة ... ولما كانت عفت وحيدة فى القصر فقد وجدت فينا مؤنسا لوحدتها ، لاتكاد تحتمل بعدنا لحظة واحدة ، ونمونا مع الزمن ونمت بيننا أواصر المحبة والود حتى كان ذات يوم أمر أبوها أخى بأن يكف عن الذهاب الى القصر وألا يحاول أن يرى عفت بعد ذلك .

- عجبا ! ولم ؟

- لأننا نمونا وبدأنا نغادر مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب .

- هكذا ؟

- وأكثر من هذا ، لقد حدث ما لم يكن من حدوثه بد .

- ماذا حدث ؟

- الحب !! ماذا يمكن أن يحدث سوى الحب ؟ بين قلبين طاهرين نقيين وزهرتين تتفتحان في أكمامهما ، لست أدرى الى أى حد ذهبا ... هل أفصح أحدهما بحبه للآخر ؟ هل تشابكت الأيدى وتلامست الشفاه ؟ الله وحده أعلم . أما أنا فقد كنت واثقة من أن كلا منهما قد أضحى بالآخر صبا مولعا ، لقد فضحتهما عيونهما ودماء وجناتهما ، والسعادة التى تترقرق فى قسماتهما .

- وكيف انتهى الأمر ؟

- لقد حسمه الأب ، قتل الحب فى مهده ، سحقه كما تسحق البراعم الآفلة .

- وماذا فعل المحبان ؟

- تمزق شملهما ... أحس محسن من طرد العجوز له بحرج فى كبريائه فانطوى على نفسه ولم عواطفه فكبتها فى صدره وانطلق فى الحياة جامد القلب ميت الفؤاد حتى أضحى على ما هو عليه الآن ، أضحى مهندسا كبيرا ورجل أعمال ثريا ، بلا زوج ولا ولد ولا قلب ولا عاطفة .

- وهى ؟

- لم تكن بخير منه ، لقد انقطعتعن الدراسة ولم أعد أراها الا لماما وفى المرات التى رأيتها كانت حزينة شاحبة شاردة صامته ، ولم تحاول أن تسألنى عن محسن وان كنت أبصر فى عينيها السؤال جليا .

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- انقلاب الحال الذى أنبأتك عنه ، أثرى أبى واتسعت تجارته ورحلنا من بيتنا الى بيت أكبر وأفخم ، ورحلت هى أيضا مع أمها ، فقد مات أبوها وبيع القصر وفاء للدين واضطروا الى أن يعيشوا فى أسيوط بعيدا عن ذكريات الأبهة والعز فى البيت الوحيد الباقى لهم والذى لم تنزعه الديون ، وانقطعت الصلة بيننا حتى سمعت أنها عادت الى المنيل مرة ثانية فتنازعتنى اليها عواطف شتى .

- الحنين الى الطفولة والذكريات الراحلة .

- هذه احداها ، وعاطفة أخرى هى الرثاء لها والرغبة فى تأدية الواجب نحوها ،، لقد تملكتنى رغبة شديدة فى زيارتها ، ولكن صدنى عن ذلك الخوف من ايلام نفسها والخشية من أن تظن أن زيارتى لها فيها شيئا من الشماتة بعد أن رفض أبوها نسب أخى .

– وعلام الشماتة ؟ انها لم يكن لها ذنب فى ذلك ؟

– أجل لم يكن لها ذنب ، ولكن المقارنة بين ما كنا عليه فيما مضى وبين ما أصبحنا عليه الآن قد تثير الظنون . ان المسألة كلها لا تخلو من المرارة عندما ترى مما أصبحت هى عليه وما اصبح أخى عليه ... أخى الذى لم يكن وقتذاك فى نظر أبيها ندا لها .

– على أية حال ان الزيارة واجبة .

– طبعا واجبة ، ولكن لا أستطيع أن أبدد عن نفسى ذلك العبء الذى أحمله وتلك الخشية التى تتملكنى عندما أرنى امرأة هامة – كما وصفتيننى – بذلك الفراء على كتفى والعربة البويك تنتظر على الباب وهى فى حجرتها فى أعلى السطح . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ انى أخشى أن تظن زيارتى عطفا عليها أو رحمة بها ، والعطف والرحمة هما أكبر طعنة يمكن أن توجه الى تلك العائلة .

– أظن أن من الخير أن تقف العربة بعيدا وأن تخلعى ذلك الفراء .

– لقد مر بذهنى ذلك ، فكرت فى أن أذهب اليها بشىء غير ذى قيمة ، وأن أبدو مهملة مشعثة ، ولكن خشيت أن تحس بما أقصد .

وكانت العربة قد وصلت الى كوبرى الملك الصالح وعبرته الى المنيل وسارت فى الطريق الرئيسى برهة ثم توقفت أمام شارع فرعى وهبط السائق فقرأ اللافتة وعاد الى مقعده وهو يقول متسائلا :

– شارع حلمى حسنين ؟

فأجابته ناهد :

- أجل .. آخر بيت على يدك اليمنى .

وقفت العربة أمام بيت متواضع فى نهاية الشارع ، وقالت درية :

- سأنتظر فى العربة .. لا داعى لزيادة الإحراج .

وهزت ناهد رأسها موافقة فقد كانت فى حالة من القلق والاضطراب .

لا تساعد على المناقشة .

وكان البيت قديما مكونا من طابق أرضى ، أما الطابق الثانى فقد بدا كأنه نصف طابق .

وصعدت ناهد على الدرج الحجرى الصغير المؤدى الى الباب الخشبى الخارجى ومدت يدها تضغط على الجرس ، ومضت برهة دون أن يجيب أحد ، فأعادت الضغط ثم تبين لها أن الجرس لا يدق فأخذت تضرب الباب بقبضة يدها .

- وبعد فترة سمعت وقع اقدام تقترب ، ثم فتح الباب وبدا من ورائه كهل أشعث يرتدى جلبابا وسألها فى تبرم .

- ماذا تريدين ؟

- السيدة درية .

- أو قد كتب علينا أن نستيقظ من النوم لنسأل عن غيرنا !

- أنا متأسفة ، لقد ظننتها تقطن هنا .

وهمت بالعودة ولكن الرجل استرجعها بلهجته المتبرمة .

- انها تقطن فى الدور الثانى ، يمكنك الصعود اليها وعندما تنصرفين اغلقى الباب ورائك .

وصعدت ناهد وقد زاد اضطرابها ووقفت أمام باب خشبى باهت اللون وطرقته فى حذر وهى تتساءل ماذا تقول وماذا تفعل ، واقترب وقع الأقدام من الداخل ثم سمعت الصوت الرقيق يتساءل :

- من ؟

- أنا .. ناهد .

وفتح الباب . وقفت الصديقتان وجها لوجه ، الأولى بجلباب كستور قديم وقد ربطت رأسها بمنديل رخيص ، والثانية بالمعطف الثمين والفراء الفخم .

ومضت فترة دهشة وذهول ثم اندفعت عفت صائحة بأقصى أيات السرور والترحيب :

- ناهد ... أهلا وسهلا .

- ومدت ذراعيها فعانقتها بحرارة ولهفة .

- وذهب الإرتباك عن ناهد . ووجدت نفسها أمام عفت كما تعوّدت أن تلهو معها فى القصر الواسع والحديقة الفسيحة واتخذت مجلسها على المقعد الوحيد فى الغرفة ، وجلست عفت على حشية فى الأرض ، وبدأت الإثنتان تتبادلان آيات الشوق والذكريات الحلوة ، وتحدثت ناهد كثيرا وهى لا تكاد تلمس فارقا بين عفت القديمة وعفت الجديدة ، لقد بدا عليها أنها هانئة قريرة راضية .

وانتهت ناهد من الحديث عن نفسها ثم سألت عفت بلا تفكير :

- وأنت كيف مرت بك الأيام ؟

وبدا لها قولها غريبا وتمنت لو لم تقله ، وأحست بسابق خشيتها تعود اليها ، ودارت بعينها فى الحجرة تفحص محتوياتها فرأت مبلغ فقرها وحاجتها ، لقد كانت حجرة نوم وأكل وغسيل ومطبخ .

وكانت عفت قد أخذت تصنع القهوة فى كنكة صفيح سوداء وأخذت تصبها فى فناجين من الفخار .

كيف استطاعت المسكينة أن تتعود هذا بعد كل ما رأته من عز وأبهة ؟

وجاهدت ناهد لكى تمنع الدموع التى تكاد تتساقط من عينيها .

وتحدثت عفت وهى تقدم فنجان القهوة :

- الحمد لله ، لقد اضطررت الى العودة بعد أن ماتت أمى وبعت منزل أسيوط وفضلت أن أقطن في المنيل فاني أحس بحنين اليه ... انى أعمل الآن بالخياطة ، وأحصل على دخل كاف للطعام ولأجرة الحجرة ... انى سعيدة جدا بهذه الحجرة ، لست أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم أجدها . أن بها كل ما أرغب ، بها نافذة بحرية وأخرى قبلية وهذه النافذة المواجهة تشرف على منظر من أبدع ما رأيت ، منظر النيل المزارع والأشجار ، الحمد لله . ان صاحب البيت رجل طيب ، وهو يقطن الدور الأول .

- أتقصدين الرجل الذى فتح لى ؟ .. انه فظ غليظ القول .

انه يبدو كذلك . ولكنى لم أر أطيب منه قلبا ، انه يقضى لى كل حوائجى ، أنا لا أشعر أن هناك ما ينقصنى .

وهزت ناهد رأسها فى دهشة وقالت على غير ارادتها .

– عجبا ! .. أنت تقولين هذا ؟ .. أنت ربيبة العز والقصور ؟

– حياتى الآن أفضل .. انى أحس بحرية أكثر ... لا أخشى أن أخدش هذا التمثال أو أن ألوث هذا المفرش . نحن لم نتمتع قط بما كنا فيه .. لقد كنا نعيش فى متحف نعرضه للنظارة ولا نتمتع به .

ومرة ثانية تبدد القلق من نفس ناهد ... وأحست أنها وصاحبتها سواء ، واقتربت منها وضمتها الى صدرها وهمست قائلة :

– لقد كنا كأختين ... ألا تحتاجين لشىء ؟ أليس هناك ما ينقصك ؟

– الحمد لله ، لا شىء ينقصنى بالمرة .

ثم بدت فى عينيها نظرة حائرة ، ورأت فيها ذلك السؤال الصامت الذى كانت عيناها تسأله دائما .. وأحست بالدمع يترقرق فى عينها ، وفى هذه المرة لم تقدر على كبحه فانطلق .

وسمعتها تهمس متسائلة :

– ازاى محسن ؟

– بخير .

– وأحست ناهد أن يدا تعتصر قلبها ، ثم شدت على يد صاحبتها مودعة وهبطت الدرج .

ان عفت قريرة راضية ، لا يشوب سعادتها غير شيء واحد ، هو ذكرى قديمة تطوف برأسها ، وطيف عزيز يحوم حولها .

ان قلبها ما زال عامرا بحبه ... انها نسيت القصر والجاه والعز والأبهة ، ولكنها لم تنس محسن ، ليتها تنساه أيضا حتى ينعم بالها ويتم رضاؤها .. ان من العبث أن تذكره وهى فى حجرتها تلك فوق السطح ، وهو فى ثرائه وجاهه !

وجلست فى العربة بجوار صاحبتها ، وأدار السائق العربة وهمّ بالمسيرة ، ولكنه توقف عندما وجد عربة قادمة تقف امامه فتعترض طريقه .

وعلى ضوء العربة أبصرت ناهد العربة القادمة ورأت أيضا رجلا يهبط منها ويتقدم اليها .

لقد كان أخاها محسن .

وسألته فى دهشة :

- ماذا أتى بك الى هنا ؟ !

- أتى بى ما أتى بك ! أظننت أنك وحدك التى ما زلت تذكرينها وتحبينها ؟

ثم اتجه الى الباب وأخذ يقرعه ، وخرج الرجل العجوز مرة ثانية يضج بالسباب ، وقبل أن يختفى محسن داخل الدار قال لناهد :

اذا نويت أن تزورى عفت مرة ثانية . فاحضرى لزيارتها فى دارى ، أفاهمة أنت ؟

حقا .. ان مع العسر يسرا ... ان مع العسر يسرا ...

حياة مقلوبة

لا تتعب نفسك كثيرا مع هذا العالم . لا تتدقق . ماذا تظنه يحدث لو سبق الليل النهار ؟ ! أو مر العام فى يوم ! أو انقضى اليوم فى عام ؟ ! أو عادت حياتنا القهقرى ؟ ! .

– هاى ، أنت هناك ، كف عن اللعب أيها الأحمق ، ماذا أتى بك الى هنا ؟

– وما شأنك أنت ؟

– أبعد يدك عن الآلة أولا ... والا أتلفتها .. قل ماذا أتى بك ... ؟

– قدماى ..

– كذاب أشر ... هذا مكان لا ترقى اليه الأقدام .

– اذن ... ذهنى !

– وكيف تركته يصعد بك الى هنا ؟

- كيف ؟ ومنذ متى استطعت التحكم فيه ، والسيطرة عليه .. ؟ انه ذهن تائه شارد جواب رحال ...!

- أتعنى أنك لا تستطيع أن توجهه الى حيث تشاء ؟

- بتاتا .... انه حر طليق .. واني منه على صهوة جامح ثائر يندفع الى حيث يهوى . ما استطعت قط أن أخضعه لسلطانى .

- أمركما عجب !

- وأى عجب !! ان بيني وبينه تنافرا شديدا .. فهو يأبى ان يكون حيث أكون ، أخلو به للصلاة والركوع والسجود . فاذابه قد انطلق فى منتصف الصلاة يعبث فسادا وتركنى أتمتم بذكر الله بلا وعى ... وهو شارد فيما لا علاقة له بالصلاة أبو بذكر الله .

- هذه سفالة .

- ليست دائما .. فقد يحدث العكس ... اذ ربما جلست جلسة حمراء بين الحسان وبين الكأس والوتر ، فاذا به - بلا أدنى مناسبة - قد شرد فى ذكر الله والإيمان ، فأفسد على ليلتى ... وجعلنى كالصنم بين الحاضرين ... !

- مسكين .. كان الله فى عونك .. أبعد يدك عن الآلة قلت ألف مرة :

- ماذا تخشى ... ؟ أؤكد لك أنى لن أسرقها .

- لست أخشى السرقة .. فلا أنت ولا مائة مثلك يستطيعون زحزحتها من مكانها ، ولكنى أخاف عليها من يد العابثين ... انك لا تستطيع أن تتصور مدى دقتها وضبطها . ان أية مسة قد تتلفها أو توقفها .. ويعلم الله أية كارثة كبرى يمكن أن تحل لو حدث ذلك ... !

- كارثة كبرى ؟ بمن ... ؟

- بكم ... وبأرضكم ... وحياتكم !

- من هذه الآلة ؟

- أجل من هذه الآلة ... لعلك لا تعرف ماذا تكون ؟

- بل أعرف .

- تعرف ؟ ثم تتكلم عنها بمثل هذا التغابي والاستخفاف ! أتجهل ماذا يمكن أن يحدث لكم لو حدث بها أى خلل أو عطل ؟

- ماذا يمكن أن يحدث ؟

- تصور أن الزمن قد حدث به خلل أو عطل ... ماذا يمكن أن يحدث لكم ؟

- لا شىء !

- اذا توقف الزمن أو تبدل سيره .... لا يحدث شىء ؟ لا داعى للمناقشة معك ... أنت انسان مجنون .

- أنا مجنون ... وأنت مغرور ... ماذا تظن بنفسك ؟

- أنا الزمن !

- أعرف أنك الزمن ... ما قيمتك ؟

- ما قيمتى ! ؟ عالمكم فى يدى .. حياتكم بين أصابعى ملايين الأعوام وأنا أنظم سير كونكم ... ما أخطأت مرة واحدة ... فلا سبق الليل النهار ولا تعجلت بكم أو سرت الهوينا أو عدت القهقرى ... هذه الدقة فى دنياكم من صنع يدى .... ومن عمل آلتى ... كيف كان يمكن أن تصبحوا بدونى ؟ .... أية فوضى كانت تحل بكم .. ؟

- لا أظننا كنا نصبح أسوأ من ذلك ... لأنه ليس هناك أسوأ من ذلك ... ولا أشد فوضى ... لا تتعب نفسك كثيرا مع هذا العالم ... .

لا تدقق ... ماذا تظنه يحدث لو سبق الليل النهار ... أو مر العالم فى يوم .. أو انقضى اليوم فى عام .. أو عادت حياتنا القهقرى ؟

- أنت مجنون مستهتر . ابتعد أرجوك عن الآلة .... واياك أن تقترب من هنا ... هيا ... هيا لا تضيع وقتنا .. قل لذهنك أن يشرد بك فى منطقة أخرى .

- أو عادت حياتنا القهقرى !

- هيا .. أرجوك .. من فضلك .

- أو عادت حياتنا القهقرى ! تصور ! تصور معى ! اية فكرة رائعة ؟

- ما هذه الفكرة الرائعة ؟

- تسير بنا القهقرى ..تعكس دوران آلتك ... تنقلب الآية ... فنبدأ من النهاية .. وتنتهى الى البداية ... فكرة مدهشة .... لم لا تجرب ؟

- أجرب ماذا ؟ أرجوك دعنى وشأنى ... اذهب عنى الله لا يسيئك !

- لا تكن غبيا .. جدد فى عملك ... فكر ابتكر . ألا تعلم أن شر ما فى الحياة هو طريقة سيرنا فيها ؟ ! إن الإنسان يولد طفلا لا يعى ... ثم يأخذ فى النمو ... ويضيع طفولته وصباه مقيدا بأغلال الدراسة والعلم والإستذكار وتزويد نفسه بما يؤهله لأن يصبح رجلا حرا مستقلا . فلا يكاد يتخلص من أغلال الدراسة ويبدأ حياته المستقلة حتى تتوالى الأحمال على كتفيه ، زوجة وأولاد .... وأسرة يعولها ، ومطامح آمال يعدو اليها ويظل فى نضاله وكفاحه يثمر جهاده ويوشك أن يستقر ويستريح ويتمتع بما حصل عليه ، فاذا به يرى شبابه قد ولى .. واذا

به فى نهاية العمر يهز رأسه أسفا . ينظر الى تجاربه وأمواله وثمرة كبده وشقائه . ويستمهل الموت فلا يتمهل ... ويغادر الحياة آسفا ملوما محسورا .

– لست أرى أى خطأ فيما قلت .. ؟ هذه هى طبيعة الحياة .. ماذا تريدنى أن أفعل ؟

– غير .. آتنا بجديد .. اعكس الآية .. ودع الإنسان يبدا حياته من نهايتها .. ! دعه يخرج الى الحياة شيخا ويغادرها وليدا ... !

– أنت مجنون .

– استمع الىّ ... لم لا تجرب ... ؟

أجرب ماذا أيها المعتوه ؟

– تصوّر لو أن الإنسان ولد شيخا حكيما عاقلا محنكا ، وأن الأيام تمر به فاذا به يزداد على مرّها عنفوانا وقوة .. واذا به يتقدم الى شرخ الشباب وميعة الصبا ... ويظل يصغر على كر العشى حتى يجد نفسه صبيا خلى البال قد نسى كل ما حشا به رأسه من سخافات الحياة وغدا طليقا من كل هم متحررا من كل عبء ... !

– أرجوك كفى هراء ... لقد صدعت رأسى .

– وتمر به السنون فاذا به أضحى طفلا مدللا محببا . يعطى كل ما يطلب ويأخذ كل ما يشتهى .. حتى يصبح رضيعا لا يدرى مما حوله شيئا ولا يشعر بهم ولا غم . ويقترب منه الموت دون أن يحس خشية منه ولا رهبة له ... فاذا ما غادر الحياة غادر غير آسف ولا نادم .

- انتهينا ؟ ! ألم يعد فى جعبتك خرافات أخرى ؟ تفضل .. أرنى عرض كتفيك وأرجوك ألا تدع ذهنك يحملك الى هنا مرة ثانية ... السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله .

وهكذا لم أجد من الإنصراف بدا ... وأخذت أبتعد وأنا ألتفت الى الوراء بين آونة وأخرى وأهز رأسى أسفا .

غبى .. أحمق ... .جامد اذهن .. ضيق العقل ! ! ماذا يضيره من أن يجرى فكرتى وانها والله لفكرة رائعة ؟ ! ألم يكفه ضبطا ودقة واعتدالا هذه الملايين من السنين ؟ ماذا جنى العالم من دقته وضبطه ؟ لم لا يجرب الخلل أو التوقف أو السير المعكوس ... ؟ فقد يعتدل العالم بعد طول اعوجاج وينصلح حاله بعد طول فساد وبؤس وشقاء .

- واختفى الزمن وآلته .... وهبط به الذهن الى حيث كنت . وأحسست بثقل فى الأجفان وصداع فى الرأس . وأسندت رأسى بكفى وضغطت جبينى بأصابعى وتثاءبت وتمطيت بقول امرىء القيس :

(ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل) .

متى تنتهى هذه الليلة المتعبة ومتى يهبط الضيف الجديد فيضع حدا لهذا الانتظار الثقيل المر ...؟

كنت أنتظر حادثا سعيدا ، والحوادث السعيدة عندى لا يبدأ حدوثها الا فى أول الليل . ولا يتم الا فى آخره ... أى أن الضيف الجديد يأبى الا أن يستهل قدومه بسهرة (صباحى) أذوق منها الأمرين .

والحوادث السعيدة لا تطربنى كثيرا .. بل أننى لأجد فى نعتها بالسعادة نوعا من تسمية الشئ بضده كما يقال على الزفت (بياض) وعلى الفارغ (المليان) . فهى عندى بمثابة بداية لسهرات غير ممتعة مليئة بالصراخ والبكاء والغيارات المبتلة المنشورة على كل قطعة من أثاثات البيت .. وهى كذلك بداية لسلسلة منغصات لا تنتهى ، من تسنين واسهال ولوز وارتفاع فى الحرارة ... وعلى ذلك فلم تكن جلستى ليلتذاك بالجلسة التى أحسد عليها .

ولست أدرى ما الذى جعل الذهن الطائش يجمح جمحته تلك ويطير شاردا حتى يلتقى بالزمن ويعبث بآلته ويجرى بينهما ذلك الحوار العجيب !

آه لو أنصف الزمن ... ودار دورة عكسية ... لأراحنا راحة كبرى ... وأخذت أرقب ساعة الحائط ببندولها المتأرجح ودقاتها المنتظمة . وأحسست بازديادالتثاقل فى جفنى .. واشتداد الصداع ... وأغمضت عينى فى انتظار الفرج .

مرة أخرى شرد الذهن وطار ... وحلق فى أجواز الفضاء .... ذهب يبحث عن الزمن وآلته .

هذه هى الآلة .. يبدو شبحها فى الفضاء أسود قاتما وقد أخذت تصدر طرقات منتظمة متوالية كأنها وابور طحين .

ولكن أين الزمن ... ؟ انى لا أجد أثرا للحيته البيضاء وقامته الفارعة المهيبة ، لابد أنه قابع هنا أو هناك يتسلى بقزقزة اللب ... أو عد النجوم ... وأى شئ يشغله والآلة دائرة دائرة ، والدنيا سائرة سائرة ... وهو مخلوق رجعى لا يفكر فى ابتكار أو تجديد .

واقتربت من الآلة فى تسلل وخشية وأنا أتوقع من آن لآخر أن يصيح بى بصوته المذعور : (هاى ... أنت هناك ... ابتعد لعنة الله عليك) .

ووصلت الى الآلة دون أن أسمع سوى (تك .... تك ... تك ... تك) التى تتواتر بلا توقف ولا كلل .

وعاد الخاطر الخبيث يلح علىّ : (لو عادت حياتنا القهقرى) .

هذه هى الآلة أمامي ، لا يمنعنى من الوصول اليها والعبث بها انس ولا جان ، فلم أحقق أمنيتى المنشودة لم لا أجرب ؟ ما دام الزمن يأبى التجربة ويأبى الا أن يسير سَيره المنتظم الدقيق المضبوط !

واقتربت خطوة أخرى من الآلة وصحت بأعلى صوتى : (هاى) لأتأكد أنه ليس هنا من يعترض سبيلى .

ولم أسمع سوى صدى صيحتى فارتقيت درجا أوصلنى الى الآلة وأخذت أجوس خلالها وأتفحصها حتى وقفت على صندوق كتب عليه (صندوق الضبط .. خطر ... ممنوع الاقتراب) .

وتريثت برهة .. واحسست بضربات قلبى تتزايد وبأنفاسى تتلاحق .. هنا بيت القصيد ... ليس علىّ الا أن أمد يدى ... وأعبث قليلا .. وأى عبث أفعله سيغير وجه العالم .

ولم أحاول أن أتريث أو أتمهل ، فما أقعدنى عن نيل المطالب سوى التريث والتمهل ، ولم أحاول كذلك أن أفكر ، وما لزوم التفكير اذا كانت أية حركة أفعلها مهما كانت لابد أن تفعل بالعالم شيئا ... فاما أن توقف الزمن أو تسرعه أو تبطئه أو ترجعه القهقرى .

ووجدت بالصندوق بضعة أزرار فمددت يدى ببساطة وضغطت على احداهما واخذت أرقب ما عسى أن يحدث بالآلة فاذا بها تتوقف عن العمل مرة واحدة .

برافو ، هذا لابد أن يكون زر التوقف ، ان الزمن الآن لا شك قد توقف .. وكل شيىء سيبقى على حاله ، أو كما يقولون :(لا بيروح عليه الزمان ولا بييجى) .. وكيف يروح أو يجىء بعد أن أوقفته وقفة شتربة !

عرفنا هذا الزر ، لنجربّ ما بعده ، لنضغط على هذا .

يا نهار أسود ! ما كل هذا العنف ، وهذه الضجة .. ؟ لكأنى بالآلة قد ركبها جن فأخذت تهتز من فرط السرعة حتى تكاد أن تتناثر ؟

هذا لابد أن يكون زر السرعة خير لى أن أوقفه فى الحال ، فانى أحس أن الآلة توشك أن تنفجر .

ومددت أصبعى بسرعة ، فضغطت زر التوقف فوقفت الآلة .

الحمد لله .... لقد كادت الضجة تودى بى .. ولكأنى بالأرض قد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها .

ماذا أفعل الآن ؟ بقى أمامى زران لابد أن يكون أحدهما للابطاء والآخر للسير العكسى .

ولكن ما هذا .. ؟ انى أحس بضعف شديد وأن قدمى لا تكادان تحملاننى ، وما هذه التجعدات التى تبدو فى جلدى كأنما قد هزمت فجأة !

ويحى .. ماذا حدث . ؟ أى مجنون أنا .. وكيف لم أدرك أن هذا كان نتيجة حتمية لما فعلت ؟

هذه الدقائق التى ضغطت خلالها على زر السرعة .. كيف لم اتوقع أن يحدث فيها كل هذا التغيير ؟

ألم يسرع فيها الزمن ... ؟ ألم يقطع الزمن فى هذه الدقائق عدة سنوات ؟

وطاف بذهنى خاطر تملكنى منه رجفة ، ماذا كان يحدث لو أنى لم أتدارك الأمر وأوقف الآلة ؟

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنى تركتها تسير بهذه السرعة بضع دقائق أخرى ؟

لا شىء أكثر من أن تحل نهايتى ، وأسقط ميتا وأضيع فى (شربة ميه) .

والآن ليس أمامى سوى أن أضغط الزر العكسى حتى أعود الى حيث كنت ، والا حدث مالا تحمد عقباه .

ومددت أصبعى الى الزر الأخير ضغطت عليه فاذا بالآلة تعود الى العمل بطريقة عكسية بنفس السرعة الأولى .

هذا حسن ... ولكن بقى شىء واحد ، وهو أن أعود الى حيث كنت بنفس السرعة التى قطعت بها السنوات التى أوصلتنى الى سن الشيخوخة .

وضغطت على زر السرعة فعادت الآلة تضج وتهتز ... وأخذت أنظر الى يد فاذا بالتجاعيد تزول والعروق النافرة تغيض ، واذا بعودى يشتد ويصلب .

وبعد دقائق أوقفت زر السرعة .. أجل هذا يكفى ... فانى لا أريد أن أصبح رضيعا مرة أخرى !

والآن ... لندع الآلة تسير بسرعتها الطبيعية ، ولكن فى اتجاه عكسى .

انى أسمع وقع أقدم .. أغلب ظنى أن الزمن قد أتى .. خير لى أن أنجو بجلدى .

● ● ●

مرة ثانية فى حجرة الولادة ... الحادث السعيد لم يحدث بعد ، ولكنه يوشك أن يحدث ، فصرخات الطلق تتوالى ، والبيت فى هرج ومرج ، وأنا جالس على احدى الأرائك متبلد الذهن متعب الجسد ، ورفعت بصرى الى الساعة فاذا بها الرابعة صباحا .

متى ينزل هذا الضيف الثقيل ؟ ماذا يمنعه من النزول ! لعنة الله عليه .

اننا لم يغمض لنا جفن فى انتظار حلوله .. وهو يتلكا ويتدلل .

وفجأة سمعت صرخة طويلة وساد السكون فترة ... ثم تعالت (زغروطة) طويلة ... وفتح باب الحجرة وأطل منه وجه يقول لى :

- مبروك .

اندفعت فى لهفة أتساءل :

- ماذا وضعت ؟

ولم يجبنى أحد .. فقد ساد الغرفة فجأة صمت عجيب ... ورأيت علامات الدهشة قد بدت فى وجوه القوم وهززت رأسى فى حيرة وعدت اتساءل :

- ماذا .. ؟ بنت ... ؟

- لا .

- ولد ... ؟

- لا .

- عجيبة ! لا بنت ولا ولد ؟ قرد ؟

- من يدرى ؟

واندفعت الى كوم اللفافات التى غطت بها الوليد وأخذت أزيحها عنه ... فرأيت عجبا !

لقد كان الوليد شيخا ضئيل الحجم .. كئيب الشكل .. أصلع الرأس . مجعد الجلد ، تساقطت أسنانه وانحنى ظهره ووهن عظمه .

كيف حدث هذا ؟

وفجأة تذكرت الزمن ، وتذكرت الآلة وما فعلت بها ؟

أى مجنون أنا . ! ماذا يمكن أن أفعل بهذا الشيخ ؟ أنى سأضحى اضحوكة بين الناس . !

ولكن لم . ؟ أنى لن أكون شاذا بينهم ، كلنا فى (الهوا سوا) ان الزمن يسير سيرا معكوسا ، فى كل بقاع الأرض ومع كل الناس .

ونظرت الى القوم المشدوهين حولى وحاولت أن أغتصب ابتسامة وقلت مطمئنا .

- لا بأس .... لا تخافوا . غدا ربنا يأخذ بيده ويصغر .

ومضت بضعة شهور ، والطفل - أعنى الشيخ - راقد لا يتكلم يقلب البصر فيما حوله فى صمت ووهن ، ويتلقى (البزازة) فى فمه فيمتص اللبن منها فى سكون .

ولم أحاول قط تدليله ، رغم أنه كان مخلوقا مريحا من ناحية الصمت والتفكير وقلة النواح والبكاء ، وكنت أنظر اليه فى حذر وخشية ، وانا أسائل نفسى عما يجول برأسه ، وكيف يفكر ... ؟ وكيف سيتطور به الزمن . ؟ هلى سيصبح بعد بضع سنين شيخا وقورا مهيبا ، عالما مثلا أو رئيس وزراء ؟ واذا أصبح كذلك كيف ينوى أن يعاملنى ؟ هل سيحترمنى باعتبارى أباه الذى كان السبب فى وجوده فى هذه الحياة ؟ وهل أستطيع أن أؤدبه ، أو أضربه ؟

لننتظر ، أن غدا لناظره قريب .

الزمن يسير ، عائدا القهقرى ، والناس قد أحسوا بالظاهرة الخطيرة ، والانقلاب الهائل ، وشعروا أن أرواحهم تسير فى أجسادهم سيرا معكوسا ، وان مر السنين يحمل اليهم مزيدا من صغر ومزيدا من صبا .

ان العجائز لا يموتون ، أما الصغار فيتضاءلون ويعودون تدريجيا الى الوراء حتى ينتهى الأمر بهم الى أن يعودوا كما ولدتهم أمهاتهم حتى تنتهى بهم الحياة .

أى مخلوق سعيد أضحيت ! لقد بت كغيرى من المخلوقات لا أخشى كبرا ولا شيخوخة .. ليس هناك ما يزعجنى سوى هذا الشيخ الثرثاء الذى يدعونه ابنى .

لست أدرى ماذا أفعل به انه يدعى العلم ويأبى الذهاب الى المدرسة ... وقد ضبطه هو وغيره من أولاد الجيران وقد جلس يتناول الشيشة على المقهى القائم بباب الشارع .

وثمة مشكلة اخرى بدأت تزعجنى وتسبب لى اقلاقا شديدا وهو هذا الاستملاح والغزل المكشوف الذى يبديه للدادة التى تتولى أمره ، فقد بدأ يعلن عن رغبته فى الرضاعة من ثدييها رغم أنه قد فطم منذ مدة طويلة .... وقد بدأ يمعن فى (التحسيس) على صدرها وأردافها ، فلما أمرته بالكف عن ذلك وأن هذا عيب أنبأنى ببساطة أنه يريد أن يتزوجها .

وذهلت وأجبته بأن الوقت ما زال مبكرا .. وأن (مسيره يصغر) ويتزوج من يشاء .

ولكن الشقى لم يرتدع ، وأصرّ على أنه لابد متزوج ، وأنه يريد أن يرى الدنيا ، وحاولت أن أقنعه باللين تارة ، وبالعنف تارة أخرى ... فلم تجد معه المحاولة .

وذات يوم عدت الى الدار فلم أجده ، ولم أجد الدادة وفى اليوم الثانى عادت به الدادة تحمله على كتفها وانبآنى أنهما تزوجا .

وتملكتنى ثورة من الغضب وصحت :

- يا شائب يا عائب ... عمرك سنتين ونصف وتتجوز امرأة كأمك ؟ وبعد سنة تنجب لى مصيبة أخرى مثلك ؟ ... والله لأريك الويل .

ثم هجمت عليه أوسعه ضربا ولطما وأنا أستمر فى صياحى :

- لا أنت ابني ولا أعرفك .

وسمعت المربية تصيح بى :

- هوا ايه أصله ده يا سيدى فوق لنفسك : قوم ياسيدى اتفرج على الخلقة الحلوه دى ... صلاة النبى أحسن .

ودعكت عينى ونظرت الى ما تحمل الدادة وأنا أصيح :

- أبدا لا يمكن أن يتزوج منك .

- من الذى يتزوج منى ؟

- ابنى .

ابنك ؟ يتزوج منى ؟ أتحلم يا سيدى ؟ ربنا يسمع منك .

وخرجت منها زغرودة طويلة ورمت اللفافة فى حجرى وانطلقت ضاحكة .

ونظرت الى اللفافة فى خوف وحذر .

الحمد لله .. لم يكن شيخا هذه المرة ... لعن الله الزمن والسهر والتعب والحوادث السعيدة ... !

حياة موهوبة

اننى حائرة ضائعة بين ثلاثتنا : نفسى ، وأنت ، وأنا ... أما نفسى فثائرة فائرة منطلقة بعد طول كبت ... مندفعة بعد طول هدوء واستقرار كأنها سيل انهارت أمامه السدود أو وحش فكت عنه القيود .

عرفته : رجلا عفيف النفس ، شديد الإعتزاز بشرفه وكرامته ....

ولذا فقد أذهلنى ما سمعت عنه : ولم أشك فى بادىء الأمر أن الحديث لا يعدو قول مغتاب أو شائعة مرجف ، ولكن تعددت المصادر ، وزاد التأكيد مما جعلنى أوقن أن المسألة بغير شك لها من الواقع أساس متين ... وأن الدخان لم يثر حول الرجل بلا نار .

ولقد حاولت أن ألتمس له الاعذار .. ولكن الواقعة ، بالطريقة التى حدثت بها ، وبالتفاصيل التى سمعتها عنها ، كانت مما تتهاوى أمامه المعاذير ، اللهم إذا كان الرجل قد أصابته لوثة من خبل أو مس من جنون .

اننا قد نسمع عن رجل أصيب بصداع فى حياته الزوجية نتيجة الخيانة الزوجية ، فلا نملك الا أن نرثى له ونلتمس له الأعذار فى الظروف السيئة التى رزأته بامرأة لعوب ورجل نذب مزقا عرضه ودمرا صرح حياته وجعلا من سمعته مضغة للأفواه .

أجل .. أننا قد نرى فيه ضحية القدر والغدر والخيانة ونرمى الخطيئة على كتفى الزوجة الخائنة والرفيق الغادر .

ولكن ماذا يمكن أن نقول فى رجل يقدم زوجته هدية لصاحبه ويتنازل عنها بمحض رغبته . ويكون أول مهنىء لهما فى زواجهما .... ؟ !

لهما فى زواجهما ... ؟ !

وأى رجل .... ؟ !

رجل أبعد ما يكون عن ذلك النوع الذى يسهل عليه أن يقوم بتلك المهمة ، مهمة تقديم الزوجة الى الرفاق والصحاب ، رجل جد وقور ، عف محترم ، يحب زوجه ويقدسها ، والزوجة نفسها امرأة شريفة لم يصب سمعتها خدش ولا شاب تصرفها شائبة !

أقول الحق أنها مسألة أذهلتنى وحيرتنى ، وتمنيت لو أفهم بواعثها وأعرف تفاصيلها ، اذ كنت واثقا أنها تخفى وراءها أشياء . وأن الرجل لا يمكن أن يتحول بين يوم وليلة فيفقد اباءه وكبرياءه ، ويصبح قرير العين باهداء زوجته الى صاحب له .

ولم أحاول زيارته خشية أن أنكأ جرحه أو أسبب له حرجا وضيقا ، ولم أشك أنه من ناحيته أنه سيحاول التباعد عن المجتمع والفرار من الناس ، ولم أعد أتوقع لقاءه ، حتى فوجئت ذات يوم بزيارته لى فى دارى .

واستقبلته مرحبا ترحيبا بالغت فيه ، حتى لا أشعره بتضاؤل مركزه وهبوط منزلته ، وحتى لا أثير احساسه بخطيئته ... فأنا أكره أن أؤلم حتى الآثم والمذنب .

وتبادلنا الحديث ، ولم أحاول بالطبع أن أشير الى حادثته من قريب أو بعيد . وما كنت أظنه بفاعل ، بل كنت أتوقع أن تمر الزيارة بهدوء دون أن يثار بيننا ذكر لها ، حتى وجدته يسألنى فجأة بعد فترة صمت قصيرة :

- ماذا يقول عنى الناس ؟

وفوجئت بقوله ، ولم يكن لدىّ أقل استعداد للرد عليه . فترددت برهة ثم أجبت مراوغا :

- عنك أنت ؟ بخصوص أى شيء .....؟

- بخصوص زوجتى .

والله لا أدرى ، لا أظنهم يقولون شيئا .

- وماذا قلت أنت ؟

- لا شيء .

- قال الحق (اننى لا يهمنى) أقوال الناس . ولكن رأيك فى يهمنى كثيرا ، انك صديق يصعب على الإنسان فقده .

ووجدت موقفى يزداد حرجا ... ماذا أقول للرجل ؟ أأقول له أنه - اذا صح ما سمعت - اما أن يكون مجنونا أو غير رجل .... !

لا لا ... يجب ألا أؤلمه برأيى فيه ... يجب أن أترفق به ، فهو انسان منكوب . ان النفاق فى هذه الأحوال شيء لابد منه .

وهززت رأسى وقلت بلهجة يشوبها الأسف :

- هذه أحوال لا نمنك مقاومتها . كلام الناس دائما مبالغ فيه .

- ماذا سمعت ؟

- دعنا من هذا الآن ؟

- يجب أن أعرف .

ولم أجد أبدا أمام الحاجة من أن أجيبه بصراحة :

- ان الناس يقولون انك قدمت زوجتك هدية لرجل آخر !

هذا صحيح .

- وانك لم تغضب لكرامتك ولم تثر لشرفك !

- أجل .

- وانك ما زلت صديقا لسارق زوجتك . وانك تزورهما فى دارهما الجديدة .. وتطلب بعد هذا رأيى فيك ؟ !

- أجل .

وأخذت أرمقه فى دهش ولكنه أردف قائلا :

- لا تتعجل ، اقرأ هذا أولا .

ثم أخرج من جيبه بضع وريقات ودفع بها الىّ .

وأمسكت بالورقيات فقرأت بها ما يأتى :

زوجي العزيز ...

انى أحبك ، وأجلك ، وأحترمك ... بهذا أبدأ رسالتى اليك ... علك تجد فى تلك الكلمات الثلاث التى أقولها مخلصة ، عزاء لك عما قد أسببه من ألم ، وحتى يكون لى منها أمل فى عفوك ومغفرتك .

كم وددت أن أجنبك كل ما يحزنك ويؤلم نفسك ، أو يعرض اسمك الكريم لأقوال الناس أو يخدش سمعتك .

ولكنى أحس أن الزمام قد أفلت من يدى ، وأنى لم أعد أقوى على كبح جماح نفسى ، وأنه لم يعد هنالك مفر من أن أضع لحياتى حدا يسوى أمرى وينهى مشكلتى .

اننى حائرة ضائعة بين ثلاثتنا : نفسى ، وأنت ، وهو ، أما نفسى فثائرة فائرة منطلقة بعد طول كبت ، مندفعة بعد طول هدوء واستقرار ، كأنها سيل انهارت أمامه السدود أو وحش فكت عنه القيود ، فلم يعد لأحد سيطرة عليه ولا سلطان ، أما أنت فكريم الى أبعد حدود الكرم ، طيب الى أبعد حدود الطيبة ، وأما هو فما زال - كما كان دائما - مخلوقا مثاليا ، وأنا بين مشاعرى المتأججة ، ومعاملتك الكريمة ، ومبادئه السامية ، أوشك أن أجن ، أليس الموت خير منقذ لى ...

دعنى أقص عليك القصة من مبدئها ، حتى لا تظننى طائشة هوجاء خائنة غادرة ، وحتى تعرف أننى لم أكن وحدى المسئولة عن تلك الحالة التي وصلت اليها .

بدأت القصة منذ زمن بعيد ، وأنا ما زلت فتاة أقطن فى بيت والدى في الزمالك ، عندما ذهبت وأبى الى سراى المعرض بالجزيرة لمشاهدة أحد معارض الفنون .

وأخذنا نتجول فى المعرض ونقف أمام الصور والتماثيل حتى لفتت نظرى احدى اللوحات المعروضة ، فوقفت أتأملها مليا ، ثم قلت لأبى وأنا مأخوذة معجبة :

- مدهشة !

وسمعت صوتا - غير صوت ابى - يجيبنى بهدوء :

- أشكرك .

وتلفت حولي فوجدت أبى قد ابتعد الى الصورة المجاورة ، ووجدت صاحب الصورة يحنى رأسه في خجل ويتمتم بكلمات شكر .

وتملكنى شىء من الإرتباك ، ولكنى سرعان ما تغلبت عليه وسألت الشاب فى دهشة :

- أأنت صاحب الصورة ؟

فأطرق برأسه مجيبا .

وألقيت عليه نظرة فاحصة ، فوجدته على شىء من رثاثة المظهر رغم أنه هو نفسه كان مخلوقا وسيما فارع القامة جذاب الملامح .

وأشار الى اللوحة المجاورة قائلا :

- وهذه أيضا من صنعى .

وانتقلنا اليها ، وقلت لأبى مشيرة الى الشاب :

- الأستاذ صاحب الصورة .

- مدهشة . أهنئك يا أستاذ .

وأخذنا ننتقل من صورة الى صورة وهو فى رفقتنا يعلق على الصور وعلى راسميها حتى انتهينا من المطاف فودعناه وانصرفنا .

وعدت الى الدار وأنا أحس أن الشاب قد ترك فى نفسى أثرا غير طبيعى . وأنه استحوذ على قدر من تفكيرى واهتمامى أكثر ما يجب .

كنت معتدة بنفسى . متكبرة متعجرفة . فأرجعت اهتمامى بالفتى الى اعجابى بصوره ... وحاولت أن أصد نفسى عن التفكير فيه ... ولا سيما أنى لم أجده - لفقره البادى ورثاثته الظاهرة - ندا لى .

ومع ذلك فقد وجدتنى ببساطة أعود وحدى فى اليوم التالى لمشاهدة المعرض مرة أخرى ، ولم أستطع أن امنع عينىّ من أن تخفضا البصر عن الصور بين آونة وأخرى لتبحثا عن شخص معين . ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضيق عندما لم أجد له أثر . ولا استطعت كذلك أن أمنع قلبى من أن يهفو ويدق عندما رأيته مقبلا من بعيد .

ولا أطيل عليك ، لقد كان الأمر - رغم محاولتى الإنكار - بداية حب لا شك فيه .

وتحايلت بعد ذلك على لقائه ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد دعوته مرة الى دارنا لمشاهدة بعض الصور ودعانى على أثرها لمشاهدة الإستديو الذى يعمل فيه ... ثم أخذنا ندبر اللقاء المرة بعد المرة .

واندفعت فى حبه بلا تفكير ولا روية ، ولم يكن هو أقل منى اندفاعى . وأخذ يضع الخطط لمستقبلنا ولحياتنا المشتركة . وكان يقيم صرح مستقبلنا على معرضه الذى أخذ فى اعداد لوحاته ... والذى كان يتوقع أن يخلد اسمه ويجعل منه علما فى عالم الفن .

ولم أكن أؤمن كثيرا بأنه فى هذا البلد وفى هذا الزمن يمكن أن يقيم انسان صرح مستقبله على أى نوع من أنواع الفنون وكنت أتمنى لو جعل من رسم اللوحات مجرد هواية أو اعتبره موردا اضافيا ... على أن يفكر فى مورد أساسى يعينه فى الحياة وينقذه من الضيق الذى يعانيه .

كان يستطيع أن يشتغل بالتدريس، أو يرسم للمجلات ولكنه كان مخلوقا مثاليا ... صاحب مذهب ... لا يحيد عن مبادئه .

ولم أحاول أن أجادله كثيرا .

فقد كان الأمر لا يقلقنى ما دمنا نستطيع اللقاء ... وما دمت أستطيع أن أنتظر حتى يحقق أمنيته المنشودة .

ولكن حدث فجأة أن تطورت المسألة تطورا خطيرا . وهبت الريح بما لا تشتهى السفن . فقد تقدمت أنت لخطبتى .

كانت مفاجأة أذهلتنى .. ولاسيما منك أنت ، فقد كنت أعرفك من قبل صديق أبى وكنت أعتبرك عما صغيرا أو أخا كبيرا .

ولم أترك لهم مجالا لمناقشتى فى أمرك .. فقد رفضت خطبتك رفضا باتا . وقلت لأبى انى لا أريد الزواج ولا أفكر فيه الآن .

ولم يغضبك رفضى ولا أثار حفيظتك ، بل أجبت بهدوء بأننى مازلت صغيرة ، وأنك ستنتظر .

وكنت أعرف أن انتظارك سيكون عبثا .. وكان أول ما فعلت هو أن ذهبت اليه وأنبأته بما حدث ، وقلت له أننا يجب أن نعجل بالزواج .

لأننا لا نعرف ما قد يأتى به الغد ... وأصابته دهشة شديدة ، فقد فوجىء بطلبى .. ووجدته يستغرق فى تفكير عميق ... وهز رأسه فى حيرة وقال لى :

– كيف نستطيع الزواج الآن وأنا بحالتى هذه لا أكاد أقيم أودى ؟

– ليس أمامنا الا سبيل واحد هو أن تدع أحلامك جانبا وتكون رجلا عمليا ... وتترك لوحاتك وتقبل على اكتساب الرزق .. أقبل الوظيفة التى أنبأتنى أنهم عرضوها عليك أخيرا .. اعمل فى المجلات أو فى ديكورات السينما أو فى أى عمل مما يعمله غيرك من الرسامين ... كف عن هذه المثالية الحمقا .

ووجدته يطرق برأسه ، وبدا لى كأنه يرزح تحت عبء ثقيل . وفجأة رفع رأسه ونصب هامته كأنما ثد أزاح عنه عبء . وقال لى بلهجة حازمة :

– لا أستطيع ، انى أفضل أن أموت جوعا على أن أفعل ما تشيرين به علىّ .

– ان الأمر لا يعنيك وحدك ، ولكنه يعنينا نحن الاثنين ، وان مستقبلنا فى كفة القدر .

– ألا يمكننا أن ننتظر ؟

– الى متى ؟ هذه المرة استطعت أن أرفض ، ولكن من يدرى ماذا تكون النتيجة فى المرة القادمة ؟ يجب أن تقبل من أجلى .. دعك من هذا العناد .

– قلت لك لا أستطيع .

- من أجلى ؟

- لا أستطيع .

- يجب عليك أن تختار بين أحدنا ، اما أنا أو أوهامك الزائفة الباطلة .

- ليست أوهاما زائفة ، لا أقبل منك أن تتهمى مبادئى ومثلى العليا بالزيف أو البطلان انها أعز ما أملك .

وهكذا فشلت فى اقناعه ، وتركته غاضبة ثائرة .

واندفعت عائدة الى البيت وقد بلغ منى اليأس لأجدك تنتظر فى الدار .

أجل ... كنت ما زلت تنتظر بكرمك ورقتك ولطفك وحنانك وحلو حديثك ، وفى نوبة يأس أقبلت عليك وقلت لك أننى قد عدلت عن رفضى وأنى قبلت الزواج منك .

وربت على كتفى وقبلت حبيبتى وقلت انك لم تيأس منى قط ، وأنك تعرف أنى لا أحبك ولكنك ستعلمنى كيف أحبك وأجلك وأحترمك ، وأستطعت أنا بمرور الزمن أن أبرىء نفسى من الحب الأول وأن أطويه فى الحنايا وأكبته بين الضلوع وأستعين عليه ببلسم النسيان ... وأهيل على جدثه أتربة الزمن فيصبح اثرا بعد عين ، بل يكاد يصبح لا أثر له .

ولا أظنك الا معترفا بأنى قد هيأت لك أقصى السعادة ومنحتك حياة قريرة راضية قد تكون خالية من المشاعر المستعرة والحب الملتهب ، ولكنها مليئة بالحنان الدافىء الهادىء الذى لا أعتقد أن الحياة الزوجية المثالية تحتاج لغيره .

وهكذا استطعت أن أمحوه من ذاكرتي ومن قلبي .. أو بتعبير أدق ... استعطت أن أواريه ، فما أظن حبه كان سوى جرثومة كامنة لا تنتزع .

واطمأنت بنا الحياة ، ولم أكن أتوقع أن يتعثر بنا زورقها أو يضل به السبيل أو تثور به الرياح ، حتى أتيت اليّ ذات يوم فأنبأتني بأن لديك مفاجأة سارة ، وأمرتني بأن أرتدى ملابسي لكي نخرج معا .

وسارت بنا العربة ، وأنا جالسة بجوارك خالية الذهن من نوع المفاجأة حتى وجدتك تأمر السائق بالوقوف .

وتلفت حولي فاصابتني دهشة شديدة اذ رأيت العربة تقف أمام باب الاستديو الذى كان يعد فيه لوحاته وخطر لي انك تقصد الذهاب الى مكان آخر غير الاستديو ، أو أن الاستديو نفسه قد تحول الى شيء آخر ، ولكني وجدتك تقول ضاحكا :

- سأريك مجموعة من اللوحات لفنان مغمور سيقيم معرضه عما قريب ، وأقسم لك أنه سيحدث ضجه كبرى وأنه سيصبح فناناً عالميا يضارع رفائيل وميشيل أنجلو .

ولم أجب فقد كنت فى حالة من الاضطراب لا تساعدني على الإجابة . كان القلب يخفق متواصلا وكنت أحس ان الأتربة التي أهالها الزمن على الراقدين بين الضلوع قد ذرتها ريح عاصفة عاتية ، وان السنين قد عادت بي القهقرى فأثارت فى النفس حبه من جديد ، وكأني سأصعد لألقاه وحيدة كما تعوّدت أن أفعل فيما مضى .

وهبطت أنت من العربة ولكني بقيت مقعدى وقلت لك انى متعبة لا أستطيع الصعود .

كنت خائفة فزعة ، وأثبتت الأيام أنى كنت على حق .

وتجهم وجهك ، الححت علىّ فى الصعود قائلا لى انك قد طلبت منه أن يرسم لى لوحة زيتية ، وأنه ينتظرك الآن .

ولم أجد بدا من الصعود معك .

والتقينا ثانية وقمت أنت بواجب التعريف فتصافحنا ، وكان كلا منا لم ير صاحبه من قبل ، وكان علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد لنتمالك ونبدو طبيعيين .

وأظننا قد نجحنا .

أى قدر ساخر ألقى به اليك وهيأ بينكما اللقاء ، وانتما آخر اثنين كان يجب أن يلتقيا على ظهر الأرض .؟

وأى فكرة طائشة تلك التى جعلتك تطلب منه أن يرسم لى صورة زيتية ..؟

أنك تذكر أنى تمنعت وادعيت المرض ، ولكنك أصررت قائلا :

- انك تريد أن تخلدنى .

وهكذا حدث اللقاء بيننا ، بواسطتك أنت وبالحاحك أنت ورغبتك أنت ، واستدعى الأمر بعد ذلك أن يخلو أحدنا الى الآخر ولكنا لم نحاول قط نشير الى الماضى بكلمة واحدة ، بل تصرفنا تماما كأننا نلتقى لأول مرة .

وهكذ استطعنا المقاومة فى مبدأ الأمر ، وقلت لنفسى الأمر سينتهى بانتهاء الصورة ونفترق مرة ثانية فلا يرى أحدنا الآخر ، وتمر التجربة بسلام .

ولكن الصورة لم تنتهى الا وقد توثقت بينكما عرى الصداقة ، وكنت أجد منه اقبالا عليك ، فتوهمت فى مبدأ الأمر أنه يتخذ تقرّبه منك وسيلة الىّ .. ولكنى - مع الأسف .. أجل مع الأسف - وجدته لا يأبه لى ... بل يقبل على صداقتك اقبالا لا تشوبه شائبة .

وبدأت المشاعر تصطخب فى نفسى ... مشاعر مختلفة متباينة .. كنت أتمنى أن يقطع كل ما بينك حتى تستقر حياتنا وأحس بالأمن والطمأنينة ، ولكن لا تكاد غيبته تطول حتى يعصف بى شوق ماض وحنين قديم .. كنت أرجو أن يستمر فى جموده نحوى خشية أن تلحظ أنت شيئا ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت أتمنى لو عاد الى سابق حبه العنيف الجارف .

وهكذا استمر الصراع فى نفسى ، وأنا حائرة معذبة بين حبى العائد ونفسك الطيبة ومشاعره الجامدة المكبوتة ، حتى أحسست بالانهيار وقررت التسليم .

وذهبت اليه فأنبأته أنى لم أعد أستطيع المقاومة وأنى سأنبئك بالحقيقة وأطلب منك الطلاق وأعود اليه .

ونظر الىّ وهز رأسه بهدوء وقال باختصار :

- لا فائدة .. ان الوقت متأخر .

- كيف ؟ ألم تعد تحبنى ؟

- انى ما كففت عن حبك لحظة واحدة ... لقد كان دائما بارقتى التى أسير على هديها ، وما أحببتك فيما مضى أكثر مما أحبك الآن .

- اذن فلم تقول ان الوقت متأخر ؟

- لأن زوجك صديقى ولا أستطيع أن أضحى بصداقته من أجلك أو من أجل نفسى .

- مرة أخرى .. مبادئك السامية ... ان العمر يوشك ان يذهب سدى .

- ليذهب ... انى لا أستطيع أن أفجعه فى زوجته وصديقه ... لا أستطيع .

ومرة أخرى فشلت فى اقناعه وتركته يائسة بائسة ... سحقا له ... انه ما زال يتحدث عن مثله العليا ومبادئه .

أما أنا فانى لا أستطيع المقاومة لأنى أحبه ... أحبه .

ولو كان الأمر بيدى لسألتك أن تهبنى حريتى ، ولكن ماذا أفعل وهو يأبى الا أن يصدنى من أجلك . هل هناك حل لمشكلتى غير أن أضع حدا لحياتى التعسة ؟

انى أكتب اليك هذا وأمامى زجاجة يكفى ما فيها لأن يردينى لساعتى .

وطويت الأوراق وأعطيتها للرجل وقلت له :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

لقد دخلت حجرتها فوجدتها مستلقية على المنضدة وقد راحت فى سنة من النوم قبل أن تتم رسالتها .

وقرأت الرسالة وهى ما زالت مستغرقة فى نومها ، كان أمامى أن أفعل أحد أمرين : اما أن أحتفظ بكرامتى فأترك الرسالة وأعود لأخذها مرة ثانية بعد أن تكون قد انتحرت ، واما أن أهدر كرامتى فأوقظها ، وأهبها حياتها ، وأطلق سراحها . واسأل الرجل الثانى أن يقبلها هبة منى ، ولقد فعلت الأمر الثانى .... ما رأيك الآن ... ؟

- حسنا فعلت .

الحياة حب
حبيب

انها لا تستقر على حال .. فهى غامضة مبهمة تدنينى مرة وتقصينى مرات . وتعرض تارة ، وتقبل أخرى . تملأ نفسى بالأمل وتحرقها باليأس . ترق بلا سب وتتجهم بلا سبب .

لعن الله الحب ، هذا اللاشىء الذى يجعل منه الإنسان كل شىء .

هذا المرض الوبيل الذى تكمن جراثيمه فى كل قلب فتنهش الصدر وتاكل الضلوع ، وتسلب الإنسان رشده ، وتفقده ارادته وهو مخدوع لا يعرف أنه مريض حتى ليخيل اليه أنه العاشق الأوحد ، وأن قصة حبه لا مثيل لها فى العالم مع أن كل الناس مرضى ، فى حاجة الى علاج ، فأين الطبيب الذى يداوى العاشق ؟ ويأسو جراحاتهم ؟

لقد فكرت مليا ، وتذكرت الخطابات المكدسة التى يحملها الىّ البريد ، من عشاق يطلبون العلاج .. ويسألون النصح والهداية . فما الذى يمنعنى من أن أفتتح عيادة حب ، وأحاول أن أكون طبيب غرام ، اليس هذا أجدى وأنفع من الكتابة ؟!

من الناحية الأدبية ، سأكون صاحب رسالة .... وهى القضاء على الحب وتطهير العالم من جراثيمه . ومن الناحية المادية ، فلا شك أنى سأصيب ثروة وفيرة ... بل سأضحى فى بضعة أشهر صاحب ملايين .

● ● ●

مضى شهر وأنا أحضر لعملى الجديد . ولم تكن المسألة بالسهولة التى تصورتها ، فهى مسألة شاقة عسيرة .

كان يتحتم علىّ أن أدرس طويلا وأن أبحث واقرأ كثيرا ... حتى أبدأ العمل وأنا واثق من نفسى كل الثقة ... وكانت هناك مشكلة ايجاد شقة للعيادة وفرشها وتجهيزها وشراء أدوات التشريح والتحليل وجهاز الأشعة ومستلزمات المعمل .

لقد كنت مقبلا على مشروع ضخم . يحتاج اخراجه الى جهد هائل .

وأخيرا وبعد طول السهر والتعب والبحث والفحص والدرس والتمحيص .. أتممت كل شىء وأصبحت على أتم استعداد لاستقبال مرضاى ، ذوى القلوب الجريحة .

الساعة السابعة مساء ، فى ميدان باب الخلق ، فى احدى الدور الكائنة أمام المحافظة .. فى منطقة تحت الربع يرى الناظر لافتة جديدة معلقة على احدى الشرفات كتب عليها بخط عريض ... (عيادة الحب الوحيدة) لصاحبها (راجى عفو الخلاق الأستاذ .. طبيب العشاق) فاذا صعدت على السلم الحجرى المتآكل ... ذى الجدران الرطبة الندية ، صادفك سهام يشير الى الدور الأول ... ولافتة صغيرة أخرى كتب عليها (الى العيادة) وعلى باب العيادة جلس الشيخ (محمد الطيب) تومرجى الغرام .

وفى احدى الحجرات وقفت أنا أمام منضدة أمعن النظر فى ميكروسكوب وضعت به عينة من قلب مصاب .

ان الميكروب يبدو أمامى جليا واضحا ، وهو ميكروب خبيث شقى كثير التلاعب دائم الحركة ، على شىء من الرشاقة والجمال ... لا يكاد يستقر لحظة لاستطيع فحصه .

وعلى رف أمامى رصت زجاجات صغيرة حوت المصل الواقى ... فى كل منها ما يقرب من ثلثمائة مليون ميكروب من ميكروبات الحب الميتة ... وفى أحد أركان الحجرة وضعت مزرعتان من الميكروب الحى تكفى الواحدة منها لإصابة قطر بأكمله .

ومضى يوم ويومان واسبوع وأسبوعان ، دون أن يحس بى أحد أو يطرق العيادة طارق .. ومحمد الطيب قابع على بابها كالبومة ... وأنا منهمك فى داخلها أفحص العينات وأدونّ النتائج ... حتى زارتنى احدى الصديقات اللاتى كان بينى وبينهن حب سابق ... شفى منه كلانا .. فأصبحنا صديقين .

ونظرت الىّ الصديقة وهزّت رأسها وقالت فى سخرية :

- أيها الأبله .. أتنشىء عياده حب تحت الربع ؟ هنا تفتح محل فباقيب أو بائع جرادل وكيزان .

واقترحت علىّ أن تشاركنى .... على أن أقوم أنا بالعمل الفنى وتتولى هى الإدارة ... واستأجرنا شقة فى شارع سليمان باشا ... وفى اليوم التالى كانت الجماهير متكأكئة امام لافتة بالنيون الأحمر .. وقد رسم عليها قلب فى داخله سهم يقطر دما ... وكتب بالخط العريض (طبيب القلوب الجريحة الدكتور ... دكتوراه فى الحب من جامعة) ... (بضعة حروف افرنجية) .

ارتدت صاحبتى مريلة بيضاء وبدت فى شعرها الحالك وشفتيها القرمزيتين آية فى الجمال ... حتى لقد خشيت على أن أعود الى حبها مرة أخرى .

وغصت الحجرات بالمرضى ، وجلست فى مكتبى أستعد لاستقبال المريض الأول ... وقد تملكنى شىء من الرهبة .

طرق الباب ... فتصاممت ثم طرق مرة ثانية ... فقلت : (أدخل) دون أن أرفع عينى من كتاب أمامى ... مبالغة فى الوقار كما علمتنى حبيبتى الحسناء .. وقف المريض برهة أمامى لاينبس ببنت شفة ... ورفعت المنظار الذى اشتريته خصيصا للعيادة حتى يكسبنى مهابة ووقارا عن عينى ... ثم نظرت الى المريض نظرة فاحصة هادئة وأشرت بيدى الى مقعد أمامى وقلت له فى تؤدة :

- تفضل !

وسادت بيننا فترة قصيرة قطعتها بقولى :

– نعم يا سيدى .. ما قصتك ؟

– أحببتها يا سيدى حبا عنيفا جارفا .. ملك علىّ مشاعرى وسلبنى قواى ... رأيتها أول مرة فوجدت فيها ملاكا طاهرا كريما . ووجدت فى بسمتها بارقة أمل تضىء من حولى ظلمات الحياة ... قلت كفى ... هذه حبيبة العمر وتوأم النفس ... هذه ضالتى المنشودة ... التى أعيانى البحث عنها .

أحبتنى هى الأخرى ، كما أحببتها . وعاهدتنى على الوفاء والإخلاص ووجدت نفسى غارقا فى بحر من السعادة .

عاهدتنى يا سيدى كما قلت لك على الوفاء والإخلاص ولم أكن فى حاجة لهذا العهد فقد رأيت فيها مثال الطهر والوفاء ... كنت أرى فيها نفسا صافية .... و .....

وعلمت أنه ينوى الاسترسال فأسرعت بوقفه قائلا :

– ثم ماذا ؟

– سدد القدر أول طعناته الىّ عندما صادفنى أحد أصدقائى معها ذات مرة وأنبأنى صاحبى بعد ذاك أن له معها مغامرات ، وأنها لا هى بالطاهرة ولا بالملاك الكريم . ولم أصدق صاحبى فقد كنت أكره أن أرى دنياى تظلم وسعادتى تنضب ونعيمى يتبدد ويتطاير ، وبدأ الشك ينهش صدرى حتى قابلتها فأقنعتنى بأنها طاهرة بريئة وملاك كريم . ثم حل اليقين محل الشك عندما رأيتها بعينى معَ صاحب آخر ... وثالث .... ورابع .

- هل تركتها ؟

- كيف أتركها ... انى أحبها كما لم يحب انسان ... لقد رأيتها بعينى رأسى تعبث مع سواى ، ورغم ذلك لم يكن سهل عليها من أن تقنعنى ببراتها ... لأنى أحبها ... هل اتزوجها ؟ . انى أحيانا أؤنب نفسى لأنى ظلمتها ... ما رأيك يا سيدى هل عندك لى دواء . ؟

وأطرقت برأسى برهة ، ثم فكرت فى أن هذا الحيوان الجالس أمامى .... قد أصابه ميكروب الحب ، بعمى القلب ، فهو لا يرى عبث العابثة ، ولا خيانتها ، ويريدها رغم كل ما يعرفه عنها .

ومددت يدى الى أحد أدراج المكتب فأخرجت خيرزانة رفيعة (لهلوبة) ودفعت الى الرجل قائلا فى هدوء :

- هذه خير لحالتك .. انها عصى الحب .

وبهت الرجل وأمسك بالخيرزانة ونظر الىّ وهز رأسه متسائلا :

- أشرب نقيعها ؟

- لا ... انها تستعمل من الظاهر .

- أستعمل نقيعها دهانا ؟

- لا ... استعملها هى .

- كيف ؟

- عشرة قبل اللقاء ... وعشرة بعد اللقاء .

- لا أفهم !

- قبل أن تلقى صاحبتك البريئة ألطاهرة قف أمام المرآة وسل نفسك : (هل مازلت تحبها !؟) فاذا كان الجواب : نعم فألهب جسدك بعشر ضربات شديدة قاسية ، واعلم أن الشدة شرط أساسى فى العلاج ... فكلما اشتد الضرب كلما عجل الشفاء . ثم كرر العملية بعد اللقاء .. واستمر ... حتى يكون الجواب (لا) .

ونظر الرجل فى تردد ودهشة ، وأمسك بالعصى وهزها فى يده برهة ثم حيانى وانصرف .

وبعد لحظة دخل المريض الثانى فاستقبلته بنفس الوقار الذى استقبلت به صاحبنا الأول .

وجلست أنعم فيه البصر فرأيته فتى أنيقا وسيما تبدو عليه دلائل الحزن والحيرة ، واستمعت اليه وهو يحدثنى قائلا :

- أنا حائر يا سيدى ... كنت حرا طليقا . خلى القلب ناعم البال .. حتى ابصرتها فاذا بها قد استقرت فى الضلوع ... وجدت فيها أنشودة عذبة ولحنا جميلا ، ورأيت الحياة بغيرها نشازا لا تطرب ولا تشجى .. والتقينا بضع مرات فاحسست منها اقبالا جعلنى أشعر بأننى أسعد المخلوقات على ظهر الأرض .. قالت لى انها تحبنى . فنفخت فى روحى .. وأنكت فى نفسى بارقة الأمل . وجعلتنى شديد الايمان بها وبنفسى وبالحياة .

ومرت بى الأيام .. فاذا بى أراها مخلوقة محيرة قد استعصى علىّ فهمها .

انها لا تستقر على حال ... فهى غامضة مبهمة ... تدنينى مرة وتقصينى مرات .. وتعرض تارة . وتقبل أخرى . تملأُ نفسى بالأمل وتحرقها باليأس ، ترق بلا سبب وتتجهم بلا سبب .

انى حائر يا سيدى ... انى أريد أن أنفذ الى قلبها لأعرف ما به ... ان اليأس خير من ذلك القلق والشك الذى يحرق نفسى .. انى ...

ولم أر بدا من مقاطعته حتى لا يمعن فى استرساله فيضيع علىّ الليلة . فقلت :

- كم عمرك ؟

- خمسة وعشرون عاما .

- كم عمرها ؟

- سبعة عشرة عاما ... أو ثمانية عشر .

- صفها لى .

ورفع الفتى رأسه واتكا بظهره على المقعد ... وشرد ببصره وبدأ يقول بصوت حالم :

- شعرها فى حلكة الليل ووجهها مشرق ، وفى عينيها سحر نافذ ، وسهام لا تكف عن الانطلاق .. وفى أنفها دقة وفى شفتيها رقة وعذوبة ... أما جسدها ... ففيه اعتدال وليونة .. صدرها يكاد يقفز ليقوم هأنذا . وفى خصرها ضيق واتساق .. وفى ردفيها امتلاء واستواء ... وفى ...

- قف ... هذا يكفى .

ثم مددت يدى إلى درج المكتب وأخرجت منه عصا أخرى وقدمتها اليه فتناولها فى دهشة وهتف بى :

- ما هذه ؟

عصى الحب .. ! ! هذه علاجك الوحيد .. استعملها فى أول لقاء مع صاحبتك ولن تتعدى نتيجة الضرب أحد أمرين : فاما أن تكون الفتاة تحبك حقا فتصلح أحوالها معك فلا تعود الى العبث بك ... واما أن تكون لا تعتبرك أكثر من أداة للتسلية ووسيلة للهو والعبث فاذا كان الأمر الأخير فخير ما تستعمله لها هو هذا .

ومددت يدى الى احدى الأدراج فأخرجت منه (فردة) حذاء قديمة واعطيتها له .. ونظر الىّ الفتى مبهوتا كأنما ينظر الى مجنون وصاح متسائلا :

- ما هذا يا سيدى ؟

(برطوشة الحب) أو صرمة الحب .. أو سمها كما تشاء ... انها خير ما تستعمله لصاحبتك فى الحالة الثانية ... أجل يا سيدى ... أضربها بالصرمة ، ولا تحاول أن تراها بعد ذلك قط .

وأطرق الفتى برأسه وقال فى نبرات حزينة يائسة :

- واذا لم أستطع يا سيدى ؟

لا بأس عليك ... تستطيع أن تستعمل هذه (الصرمة) بطريقة أخرى ... اذا تستطع فاضرب بها نفسك حتى تستطيع وحتى تبرأ من حبها تماما .

وخرج الفتى من الحجرة يحمل العصا فى يد وفردة الحذاء فى اليد الأخرى .

ودخل المريض الثالث وبدا يعرض حالته شارحا لى كيف أحبها وكيف أحبته ، وكيف تبدل كل شيء فى نظره وتغير ، وكيف بدأ يبصر الحياة بمنظار الحب الساحر الملوّن وكيف وكيف . من بقية أعراض الحب المعروفة .

وأخيرا وبعد طول شرح فهمت منه أنه أحب فتاة وأحبته وأنهما اتفقا على الزواج . وأنه تقدم لخطبتها ولكن أهلها رفضوه لأنه ليس بذى مال وفير أو مركز عظيم سيزوجونها من آخر ذى مركز وذى مال وان كان يكبرها بخمسة وعشرون عاما .

ومددت يدى الى احد الادراج فأخرجت منه كرباجا وطلبت منه أن يذهب الى والد الفتاة والى الكهل الآخر ويلهب بالسوط ظهرهما . وينبئهما أنهما أحمقان مأفونان لأن المركز والمال يمكن للشباب أن يجلبهما ، أما الشباب الذى ولى فلا يمكن أن يعيده مال ولا جاه ولا شيء فى الجياة ، والزوجة الفتية لا يغنيها شيئا عن الشباب ، فاذا لم تجده فى زوجها فاما أن تعيش حياتها وحيدة محرومة ، واما أن تجده عند غير زوجها .

وخرج المريض الثالث وانتظرت أن يدخل غيره . واتخذت جلسة الوقار والهيبة ... ولكنى وجدت الباب يفتح بشدة ، وأبصرت بصاحبتى تندفع منه كالعاصفة وتصيح بى ثائرة حانقة .

ماذا فعلت أيها الأحمق ... أأنت طبيب غرام ؟ . أم بائع روبابيكيا وتاجر أسلحة ؟ ! عصا وكرابيج وأحذية قديمة .. ما هذا الذى تفعله ؟

أجننت ؟ لقد انصرف بقية المرضى واتهمونا بالنصب والاحتيال ... اين بنسلين الحب الذى اخترعته ؟ وأين أسبرين الغرام ... وشربة الهوى .. أين كل هذا ؟

ونظرت اليها بهدوء وأجبتها فى بساطة .

- ان العلاج الذى أعطيته لهم أجدى من كل هذا وأنفع .

- لا ... لا ... هذا خبل منك .. لابد من استعمال هذه الأدوية ... لابد من التظاهر بها ... انها هى التى ستجلب لنا الشهرة .

- انى لست واثقا منها بعد .

ولم لا تجربها ؟

- كيف ؟

- فى أنفسنا .

- ولكننا لسنا مصابين بالحب !

- لقد كنا مصابين به .

- وشفينا .

- ولكنى أحس الآن بنكسة .

ونظرت الى عينيها السوداويين وشفتيها القرمزيتين وأجبتها بصوت خفيض : وأنا أيضا .

ومددت يدى الى زجاجة المصل .. وبعد لحظات كان كل منا قد أخذ الحقنة الواقية من الحب ونظرت اليها فوجدتها قد ازدادت فتنة ..

وأحسست برغبة جارفة فى أن أحتويها بين ذراعى ، ولكنى أخذت أقاوم .. لقد كرهت أن أرى المصل يفشل هذا الفشل الذريع وأمسكت بالزجاجة أفحصها .

واحسست غشاوة على بصرى فلقد كانت الزجاجة مزرعة حية ... لقد كان بها ثلثمائة مليون ميكروب حى من ميكروبات الحب . أخذنا منها على الاقل مليونا .

ولم تمض لحظة حتى كان كل منا قد اندفع الى أحضان الآخر . فقد أصبنا بنكسة حادة .. وترديناا مرة أخرى فى هاوية الداء ... فهل من منقذ ؟ هل من طبيب ؟

● ● ●

وأخيرا حدثت المعجزة ... وشفينا تماما .. لقد ذهب عنا الداء بلا رجعة ولا نكسة .

كيف ؟ .. بدواء الحب الأكبر . وعلاجه الناجح ... الزواج !! فقد تزوجنا ... فقتل فينا الزواج ... المليون ميكروب ، وأذهب عنا الحمى ، وذهب الداء الى غير رجعة .

يا للزواج .. وأثره العجيب ، ترى هل لو تزوج قيس بليلى ، ورميو بجوليت ، اكان يظلان على لوثتهما وجنونهما أم كان الزواج يشفيهم من داء الحب ؟

خذوها نصيحة من طبيب غرام ، أيها المصابون بداء الحب ... تزوجوا .

وأنا الكفيل لكم بالشفاء ... الذى لا تشكون بعده من علة ولا داء .

حياة ضائعة

ان البشر كلهم مظلومون .. انهم ضائعون في الأرض بين شرذمة القادة والزعماء ... ان أي فرد من أي أمة لا يريد أكثر من أن يضمن لنفسه حياة متواضعة آمنة .

قصتنا أولا من السماء قبل أن نهبط الى الأرض والضائعين لنبدأ :

في الأرض !

في ركن قصي من السماء أشبه بغار مهجور ، والجو قد انتشر منه ضباب كثيف واختلط فيه الضوء بالظلمة ، وبين الرطوبة والعفونة تفوح رائحة شديدة لا تخطئها أنف خبيرة ، والسكون قد ران الا من صوت (كركعة) خافتة تنبيء عن جوزة أو شيشة يتخلله سعال حاد بين آونة وأخرى .

ومن خلال ذلك الضباب يستبين الداخل شيخين ناحلين معروقين متربعين في تراخ وكسل ، وقد أخذ كل منهما يجذب النفس من غابة طويلة في يده وينفخ الدخان في الهواء بطريقة هانئة حالمة .

وعلى مقربة منهما ، تبدو صخرة أقرب الى المنضدة ، استقر عليها دفتر كبير وريشة طير ومحبرة قد علتها الأتربة .

كان الشيخان هما : القضاء ، وأخاه القدر : أما الدفتر وأوراقه فهو دفتر الغيب .

قال القضاء بعد أن جذب نفسا طوية ، وسعل سعلة أطول ، وألقى على الأرض ببصقة محترمة :

- هيه ... وحدوه .

وأجاب القدر بلهجة طويلة :

- لا اله الا الله .

وقلب القدر شفتيه ورفع كتفيه وعاد يلح فى ملل أشد :

- أيعجبك هذا الحال ؟

- ماله ؟

- لا شىء ... رضا ... ما دام يعجبك فلا داعى للكلام .

- وما الذى لا يعجبك أنت ؟

- هذه الركنة والنومة .. لقد أصبحنا أشبه بتنابلة السلطان .

- وماذا تريدن أن أفعل ؟

- نفعل أى شىء ، سوى هذه الإستكانة والإستسلام .

- لست أدرى ماذا تعنى بأى شىء .. أنسيت أننا غلبنا على أمرنا ، وإننا لم نركن الى الإستكانة ولم نستسلم الى هؤلاء البشر ألا بعد طول يأس . قل لى بالضبط ما هذا الـ (أى شىء) الذى تريد أن نعمله ؟

- نعود الى دفترنا لنسطر به ما استطعنا من غيب ، ولنرسم به ما أمكننا من مصائر .

- دفترنا ؟

وانطلقت من حنجرة القدر قهقه ساخرة ثم أردف قائلا .

- مرة ثانية ! ! نسطر الغيب ونرسم المصائر ... لا يا عم ... يفتح الله ... سطر الغيب وارسم المصائر وحدك .. أما أنا فقد شبعت تسطيرا ورسما .

- لكى يجب ألا نيأس .. ان أى شىء فعله خير من هذا التكاسل والاسترخاء والتنبلة .

- بل التنبلة والبلطجة خير وأفضل . فخير لنا أن يقال عنا أننا تنابلة بلطجية من أن يقال أننا جهلة عاجزون .

- ولكننا . بتكاسلنا هذا سنستمر ممعنين فى الجهل والعجز ، ولكننا لو حاولنا أن نعمل ، فلا شك أننا سنتعلم وسنتقدم .

- نحاول ؟ ! أنسيت أننا حاولنا الكثير ! الظاهر انك قد نسيت .. لا بأس .. انك تحتاج الى تذكرة .

ونحى القدر غابته جانبا ومد يده وجذب الدفتر الكبير واسنده على ركبتيه ثم نفخ الأتربة التى قد علته وأخذ يقلب صفحاته ببطء وتؤدة متمتما فى لهجة ملحنة :

- أيوه يا سيدى .. خذ عندك يا سيدى .. محاولات ، ومحاولات . ومحاولات .

ثم توقف أمام احدى الصفحات وانطلقت منه ضحكة أعقبها نوبة من القهقهة العنيفة .

ونظر اليه القضاء وهز رأسه في دهشة وقال متأسفا .

– حقا ... أصحاب العقول في راحة ... ما الذى يضحكك .

– احدى المحاولات .. محاولة أنكر أننا قضينا فى تدبيرها يوما بأكمله .. وظننا أننا استعدنا بها مصير البشر .

– أتقصد المحاولة الأخيرة ؟

– أجل ! عندما أفلت منا الزمام واختلطت من حولنا الأمور ، ووجدنا المصائر تنتهى قبل أن نحاول البت فيها ، وأصبح الإنسان مصيره بيده ، أو على الأصح بيد حفنة منه .

– كانت حالة عجيبة لا أذكر أننا رأينا مثلها من قبل .. لقد كنا نسيطر من قبل على مثل هذه الحالات ونتحكم خلالها على مصائر البشر .. اذا كانت تقع على نطاق ضيق يمكننا التحكم فيه ، والسيطرة عليه . كانت الحروب تقع بقدر .. وبحكمة .. ولفائدة ... كانت عقابا للمهزوم ، وثوابا للغالب ... أما الآن .. فما عدت أفهمها قط .

– وحتى لو فهمناها فماذا كنا فاعلين ازاءها ! ... ماذا كانت تجدى تلك التفاهات التى كنا نحشو بها دفترنا ، والتى كنا نسطرها فى دفتر الغيب . فنظن أننا بلغنا منتهى الفن فى صنع القضاء والقدر .. ماذا كان يجدينا أن يزل قدم بعضهم فوق السلم فيهوى من عاليه ويدق عنقه . أو أن يسقط سقف البيت على بعضهم فيقضى تحت الأنقاض .. فماذا كان يجدينا هذا والحروب مشتعلة فى كل أرجاء المعمورة ، وفى أرض أبعد ما تكون عن أصحاب الحروب وبين مخلوقات لا تكاد تعرف لما تحارب .

- ومع ذلك فلم نيأس .. بل صممنا على أن نواصل جهودنا ، وألا نجعل البشر يستأثرون وحدهم مصائرهم ، وعزمنا على أن نحاول السيطرة على الموقف من جديد ، وأخذنا تلك البلدة المنعزلة الآمنة .. ودبرنا ذلك الحريق المحكم المتقن ، الذى ينشأ من مجرد عقب سيجارة صغيرة يقذفه عابر سبيل فى صندوق القمامات فى الطريق، فيشتعل به بعض القش والورق فتأتى الريح فتحمل الشرر الى سطح أحد المنازل لتشعل به النار ، ثم تنتقل النار من دار الى أخرى ويمتد اللهب فى أرجاء البلدة ، ويهب السكان من نومهم مذعورين ويأخذون فى مكافحة النيران .. أتقنا اخراجه فجعلناه فى ليلة عاوية الريح . حالكة الدياجير ، ووضعنا مصائر الأفراد وسط النيران الآكلة ، ونوّعنا فى المصائر وصنفنا .. فهذا يختنق بالدخان . وذاك يهوى من نافذة منزله فيدق عنقه وهو يحاول الهرب .. وتلك عائلة تفاجئها النيران وهى نائمة فتتركها هشيما تذروه الرياح .

- ولم تنس حوادث الإنقاذ الرائعة ، والنجاة المفاجئة لقد كان خير ما وضعناه وألفناه وأحكمنا تدبيره فى عالم الغيب لقد كانت قطعة رائعة .

- أى والله لقد كانت قطعة رائعة من صنع القضاء والقدر .

- أو قطعة رائعة من عبث الأطفال . لشد ما هزأ بنا البشر وسخروا بنا .. انى أذكر كيف أغلقنا الدفتر وتنفسنا الصعداء ، وشد كل منا على يد الآخر مهنئا . واحتفلنا وقت ذاك بتدبيرنا .. بعدة أنفاس حمىً متقنة . ثم نمنا قريرى الأعين هادئين ، واستيقظنا ...

- كفى بالله عليك ... لا تذكرنى بخيبتنا الكبرى . انى أذكر تماما كيف استيقظنا ، وكيف ...

واستيقظنا فجأة على صوت ...

- لم يكن استيقاظا ، لقد كان هبوبا .. لقد هببنا من نومنا فزعين مذعورين ، بعد أن قذفتنا من مضاجعنا هزة عنيفة ورجة كبرى ، وبدا لى كأن السماء قد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها ، وأحسست بلهب يلفح وجهى ورائحة دخان تكاد تخنقنى . ولأول مرة يملأ الهلع نفسى ، وساورنى شك فى أننا قد سقطنا من عال ووقعنا من السماء وأن سقطتنا جاءت فى مكان الحريق وأننا سنصلى ناره ، وان المثل (من حفر بئرا لأخيه وقع فيها) قد حق علينا ، وأننا لأول مرة فى التاريخ سنجرب ذلك المصير طالما به لرناه ونحن نجلس فى أبراجنا هانئين .

- لقد ظننت أنا أيضا مثل ما ظننت وخيل الى أن ذلك الانفجار المروع انفجار خزان البنزين الذى سطرنا فى الدفتر أنه سيصاب بشرر ويحترق ، وأحسست بندم على هذا الاندفاع منا والحمق والمبالغة فى سوء المصائر والشر والأذى ، وتمنيت لو أننا ترفقنا بعض الشىء فى فعلنا ، ولكن ندمى لم يطل ... اذ سرعان ما اكتشفت أننا مازلنا فى كهفنا ، واننا لم نقع من السماء ولم نهبط الى الأرض ، وأن الضجة واللهب والدخان الذى أحسسنا به هو الذى صعد الينا من الأرض .. بالغا - كما يقول البشر - عنان السماء .

- لقد كانت مسألة عجيبة ، فما حدث قط أن أحسسنا بما يحدث على الأرض من انفعالات وتقلبات - ونحن قابعون فى كهفنا - من آثار اعمالنا فى الأرض ، ولذا تملكنى احساس بالغرور وقلت لنفسى ان الحريق كان قطعة نموذجية رائعة ... وأطللت برأسى لأشرف على مظاهره .

ولكنى لم أكد أطل برأسى حتى تراجعت مبهورا مشدوها :

- لا تذكرنى بالمنظر المشؤوم بالله عليك .. لم يكن هناك خلق ... لا رائح ولا غاد ... كان كل شيء قد اختفى . حتى لكان البلد العاثرة قد ابتلعتها الأرض فلم يبق منها الا بعض أطلال .

وحاولت أن أعرف كيف يمكن أن يحدث هذا ..... وقلت لنفسى لو لم أكن القدر وأنت القضاء ... لقلت هذا من فعل القضاء والقدر ... ولكننى كنت واثقا أن هذا الحريق لا يمكن أن يحدث مثل هذا الخراب المروع .

- أجل .... أجل ... ان أقصى ما سطرناه فى دفاترنا هو أن ننهى حياة مائة من البشر فى ذلك الحريق ، أما ما حدث فقد كان قضاء على كل أهل البلدة .

- وتولانا اليأس ، وتملكتنا الحيرة ، وظللنا نتساءل . حتى علمنا ان فعل البشر قد غلب أفعالنا ، وأنه قد ألقى قنبلة ذرية واحدة فذهبت بكل ما دبرنا .

- على أية حال .. لقد انتهى من حماقاته ومن حروبه .

- انتهى من حماقاته ومن حروبه ؟ ! .. الم أقل انك ساذج !

- ولكنه لا يحارب الآن .

- سيحارب قريبا جدا .

- يحارب ؟ لماذا ؟ ....

- لقد قسم العالم نفسه شطرين .. ديمقراطى وشيوعى ولن يهدأ حتى يصطدم الشطران فى حرب ضروس .

- ولكن لماذا ؟

- علمنى علمك ؟

- لابد أن يكون هناك سبب .

- السبب الظاهر .. هو أن الشيوعيين يعتقدون أن طريقة تنظيمهم لمجتمعهم ودولتهم ، وهى فناء الفرد فى الدولة ومنع الملكية الخاصة وتوزيع الرزق بالتساوى على جميع الأفراد ، هى خير وسيلة لسعادة الفرد .

- ليعتقدوا ما يشاؤون .. ما دخل هذا فى الحرب الضروس ؟

- اصبر علىّ .. ولا تتسرع .. ان الشيوعيين كما يبدو يريدون أن يعمموا هذا (الخير) ... رأسهم وألف سيف .. يشركوا العالم كله فى هنائهم وسعادتهم .

- حسن ... وما الذى يمنع العالم من مشاركتهم فى هنائهم وسعادتهم ؟

- هذه هى المصيبة . ان الشطر الآخر من العالم فيما يبدو .. مبسوط من طريقته .

- اذن ليدعوه وشأنه .

- هذا هو البلاء .. ان الشيوعيين يأبون الا فرض الخير والسعادة على العالم فرضا . بل ان طريقتهم فى فرض هذه السعادة على أنفسهم طريقة عجيبة تبعث على تشكيك العالم على مدى هذه السعادة وصحتها انهم يفرضونها قسرا ويقفلون على أنفسهم الأبواب والنوافذ كأنما يخشون على أنفسهم من العين .. انهم يرفضون أن يعرضوا سعادتهم على الملأ .. ويأبون الا ننشرها ، بطريق التسلل والتخفى والتسرب ... والفرض بالقوة .

- وماذا يفعل الشطر الآخر ؟

- يقاوم السعادة بالتسليح .

- اذن فان موقف البشر فى العالم هو أن فريقا يريد فرض السعادة على الفريق الآخر .. والفريق الآخر يأبى الا مقاومة انتشار السعادة .

- بالضبط ، ومن أجل هذا يعم الشقاء كلا من الفريقين وتتحول كل الجهود والأفكار الى صنع الأسلحة .

- ياللعجب ! انى ما رأيت أجن من هؤلاء البشر !

- ان البشر كلهم مظلومون ، انهم ضائعون فى الأرض بين شرذمة القادة والزعماء ، ان أى فرد من أى أمة لا يريد أكثر من أن يضمن لنفسه حياة متواضعة آمنة .

ان الفرد العادى المسكين لا يطلب من دنياه كثيرا ولا يطمع فى كثير .. هو لا يرجو أكثر من الكفاف والسلام ، ولكنهم يأبونه عليه ، ويدفعون به الى الحرب ويسلبونه كل أمل فى استقرار أو هدوء ، من أجل حياة أفضل ... وهكذا يقتلونه وهو فى الطريق الى حياة أفضل .. فاذا وصل ، وصل ثاكلا أو يتيما أو منكوبا ، والغريب أن الإنسان قد بات وهو موقن بزعمه ان الحرب شيء لابد منه ... فلقد أقنعته بهذا شرذمة الزعماء .

- ولكن قد تكون الحرب حقا شيئا لابد منه حتى تحتمل الأرض كل هؤلاء البشر .. انها لابد ستضيق بهم .

- هراء ان الارض ونعمها وخيراتها تتسع لأكثر من ذلك ، ولكن اذا كانت حقا ستضيق بهم ، أفليس من الأفضل ان يحددوا النسل فيوقفوا

أولئك الذين ستزدحم بهم الأرض بدلا من أن يتركوهم يهبطون اليها ثم يقتلوهم وهم فى أوج شبابهم ... لا ... لا .... ان من الجنون أن نقول ان الحرب شيء لابد منه وأنها وسيلة لإسعاد العالم .

- ولكنى أكره هذا النوم والخمول .

- وأنت وشأنك .. أمامك الدفتر أكتب ما شئت ... ولكن أؤكد لك أن الأنسان ما عاد يشعر بك .. ماذا تستطيع أفعالنا أن تؤثر فيه .. (ضربوا الأعور على عينه آل خسرانة خسرانة) .

- ألا نستطيع ان نوقف هذه الحروب ؟

- نوقفها ؟ أمجنون أنت ؟ أنى لنا ذلك ؟

- اسمع ، ان لدىّ فكرة هائلة فكرة نستطيع أن نصيب بها عصفورين بحجر وهى من صميم اختصاصنا .

- ما هى ؟

- فكرة نستطيع بها أن نوقف الحرب بطريقة ليس أقدر عليها منا .

- قل ... أفصح عن تحشيشتك .

- ليست تحشيشة ... بل هى فكرة جادة ، ألم تقل أن البشر مظلومون ، وأنهم ضائعون ضحية لشرذمة من الناس تسوقهم الى غمار الحروب !

- أجل ... لقد قلت ذلك .

- اذن فعلينا بهؤلاء ... علينا بتلك الشرذمة من اللئام السفلة الأوغاد ، الذين يدفعون الملايين الى حياة أفضل .

امسك الدفتر واكتب عندك : (ترومان يتسمم فى أكلة مايونيز أنشيسون وايدى يموتون فى حادثة انقلاب عربة اتلى

ينزلق قدمه من فوق رصيف هوايتهول وتصطدم رأسه فى الإفريز فيقضى لساعته ، بيفن يختنق بالغاز وهو يستحم فى البانيو تشرشل تنزل علية نقطة وهو يتكلم عن تبديد الإمبراطورية التى ورثها عن أبيه فى مجلس العموم ، ستالين يسقط من أحد نوافذ الكرملين على دماغ مولوتوف فيموت الإثنان ... اكتب ، اكتب ، اكتب .

اكتب ان القائمة ما زالت طويلة ، خد عندك .

وهكذا أخذ القضاء يملى ، والقدر يكتب ، وقد صمما على أن ينقذا الضائعين فى الأرض من افك تلك الشرذمة الحمقاء المجنونة .

أيها الضائعون فى الأرض ، أيتها الملايين من البشر مختلفة الملل والأجناس التى لا تريد سوى الأمن والكفاف أحقا أنكم راضون عن تلك الحروب ؟ .. أحقا أنتم الذين تسعون اليها ؟

أحقا اذا لقى فردا منكم فردا آخر يشعر له من الكره ما يجعله يقدم على قتله ؟

لا أظن .. كلكم اخوان . كلكم فى الشقاء والتعاسة سواسية ، وكلكم لا تريدون سوى السلام والكفاف .

ترى لم لا نقدم نحن على تنفيذ ما اقترحه القضاء على القدر ؟ .

انى لا اقترح قتلهم ، ولكنى أقترح جمعهم ووضعهم فى منفى ليقتل بعضهم البعض اذا أرادوا .

أيها الضائعون فى الأرض ... الراغبون فى السلام .. امتنعوا عن الحرب ، فحرام أن يضيع جيل عمره فى حربين متتالين .

امتنعوا عن الحرب ، والعنوا الزعماء ... وما يدعونه ويروجونه باسم (الوطنية) .

حياة فاسدة

ما من انسان الا وله زلته ، وما من ضال الا ويمكن اعادته الى الطريق السوى وكل حياة فاسدة لابد منتهية مهما بلغ من سوء المذنب الى الندم والهداية .

صديق طبيب قال :

حدثنى :

(رأيتها فى عيادتى أول مرة منذ بضعة أشهر ، صفراء شاحبة ذابلة ، ليس بوجهها الحزين الساهم أثر لزينة ، ومع ذلك فقد بدت جميلة فاتنة لم يستطع الشحوب أو الذبول أو الصفرة الباهتة أن تمحو من وجهها تأثيره الفاتن الأخاذ ، بل أغلب ظنى أن هذا الذبول وهبها نوعا غريبا من الفتنة وشيئا جديدا من الجمال غير ما تعودت الأعين أن تؤخذ به) .

ولم ترتح عينى الى نظرتها فقد كانت حدقتاها تترجحان فى مقلتيها بغير استقرار ، ولم تستطيع منذ أن دخلت حجرتى أن تثبت عينيها على شىء ، بل كانت قلقة العين ، حائرة النظرات .

ولم أستطع أن أحكم عليها لأول وهلة .

لو كانت قاتمة الثياب ... لقلت ثكلى ولو لم تكن هادئة الحديث منزلة النبرات .. لقلت مجنونة .

أجل ! لولا هذا وذلك ، لقلت مجنونة ثكلى ، انقضت الصدمة ظهرها وسلبتها رشدها ... فقد كان هذا هو ما يوحى به منظرها .

ولكنها كانت تقف أمامى بثوبها الأزرق ، وجسدها الأهيف ، ورأسها المرفوع ، وأنفها الأشم ، لتقول بصوتها الهادىء المتزن .

- صباح الخير يا دكتور .

- صباح الخير يا هانم ... تفضلى ... ماذ بك ؟

ولم تجب ، بل رفعت كفها الى صفحة وجهها اليسرى ، وأخذت تتحسس بحذر شديد خدها وصدغها وأعلى عنقها كأنها تتحسس موضع داء ومكمن علة ، ثم قالت بلهجة مقتضبة :

- هنا يا دكتور ... أنى أصاب بين آونة وأخرى بنوبات تجعلنى أحس هنا بألم مميت .

وسألتها أن تستلقى على منصة الكشف وبدأت فحصى .

ولما انتهيت منه ، زاد دهشى ، اذ كانت السيدة سليمة تماما ليس بها أى أثر لما يمكن أن يسبب تلك النوبة التى تدعيها .

وعدت الى مكتبى ، وبى كثير من الحيرة ، وجلست هى أمامى مطرقة واجمة ... وقلت لها وأنا أمسك القلم وأضع أمامى دفتر الروشتات :

- كل ما بك سليم معافى .. وأستطيع أن أجزم بأنه ليس هناك قط ما يسبب القلق ، ومع ذلك فيبدو لى أن من الخير أن نعمل كشفا بالأشعة وتحليلا كاملا ، وأن تحضرى الى نتيجة الكشف والتحليل .

وبدا عليها يأس ظاهر ، وقالت متوسلة :

- ولكنى لا أستطيع أن أنتظر أكثر ، انى لم أعد أحتمل نوبة أخرى . ولقد زادت النوبات أخيرا ، وقلت الفترة بين النوبة والنوبة ... كانت فى أول الأمر تصيبنى كل أسبوع ، أما الآن فقد كثرت حتى كادت تصبح يوما بعد يوم ، ارجوك اعطنى مسكنا .

ولم أكن أعرف نوع الداء حتى أستطيع أن أحدد نوع المسكن ، ولكن لم يكن هناك بد من أن اعطيها شيئا ، ولو على سبيل الإبهام ... وكتبت فى التذكره الطبية دواء تضع منه مكمدات فاترة لم يكن هناك منها أى ضرر ... أيا كان الداء الذى بها .

وانصرفت السيدة ، وبعد بضعة أيام عادت الى بنتيجة الكشف والتحليل ، وكانت فى هذه المرة أكثر شحوبا ونحولا وذبول .

وكان التحليل سلبيا ، والكشف لا غبار عليه ، وهكذا كان كل ما بها سليما معافى .

قلت لها ذلك ، فعضت على نواجذها وقالت فى صوت مرتجف :

- غير ممكن يا دكتور ! ! لا يمكن أن أكون سليمة . وكيف أكون سليمة وقد أصابنى بالأمس نوبة ... كنت أوشك معها أن أقدم على الانتحار ، أرجوك يا دكتور ! أنقذنى !

ووقفت حائرا ... وأمسكت بالقلم مرة ثانية لأكتب علاجا لايضر ولا ينفع .

ان السيدة موهومة ، ما فى ذلك شك ، فليس هناك من سبيل لمعالجتها الا بالوهم .

ووصفت لها جيدا كيف تستعمل الدهان ... وكيف تمسح وجهها وتدلكه .

وانصرفت ، وبودى لو استطعت أن أفعل لها شيئا ، ... ولكنى كنت عاجزا .

وفى اليوم التالى دق جرس التليفون ، وسمعت صوت خادم عجوز تدعونى للحضور حالا ... لأن سيدتها مصابة الآن بالنوبة .

ثم ذكرت لى اسم الشارع ورقم البيت .

ولم تذكر لى الخادم من تكون سيدتها فانطلقت الى البيت معتذرا لبقية المرضى .

وذهبت الى البيت .. فوجدته فيلا أنيقة فى الدقى ... وارتقيت الدرج بسرعة حاملا حقيبتى ... وكان البواب قد دق الجرس ، فلم أكد أصل الباب حتى وجدت خادما نوبيا قد فتحه وقادنى الى الداخل .

وجلست برهة فى صالون متسع فاخر الأثاث فى الدور السفلى ... وبعد لحظة عاد النوبى ليصعد بى الى الطابق الأعلى حيث التقيت بخادم عجوز قد اتشحت بشال أسود لم أشك فى أنها هى التى استدعتنى لنجدة سيدتها .

وابتسمت العجوز ابتسامة باهتة ... وقالت لى مرحبة معتذرة :

- اتفضل يا دكتور ... لقد أقلقناك .. ولكنك لو رأيتها وقد أصابتها النوبة لرثيت لحالها .. ان النوبة لم تنته الا منذ بضع دقائق ... لقد استمرت هذه النوبة مدة أطول ... انها تتقارب وتزداد ... تفضل .

ووقفت بباب غرفة السيدة ، وقد راعنى منظرها على الفراش ، وقد ازرقت شفتاها وشحب وجهها ، وأغمضت عيناها كأن الروح قد فارقتها ، ورأيت الفراش فى حال من الفوضى ، والوسائد مبعثرة ، والملاءة ممزقة !

ومددت يدى أجس نبضها فوجدته خافتا ، وأحسست بيدها كقطعة من الثلج !

وأجريت لها بضعة اسعافات أولية مما يجرى عقب أى نوبة من نوبات التشنج ، حتى أفاقت ورأيتها تنظر لى نظرات ضعيفة متوسلة وسمعتها تتمتم هامسة :

- أرجوك يا دكتور ! افعل شيئا .. أى شىء !

ومدت يدها فى حذر شديد الى صفحة وجهها ، وقالت فى صوت باك :

- مزقة يا سيدى ... هذا الجزء الملتهب ... افصله عن وجهى ... لا تخشى أن أشوّه ، فما عدت آية لجمال أو لفتنة . فقط أريد أن أستريح ... انزع من وجهى ذلك اللهب .

- مهلاً ... مهلاً ... لا ضرورة لهذا قط .. سنشفيك باذن الله بدون حاجة الى ذلك ... أهدئى ... اهدئى الآن واستريحى .

– لن أهدأ أو أستريح حتى تفعل شيئا .. فى النوبة القادمة سأقتل نفسى .. فاذا أردت أن تبقى على حياتى افعل لى شيئا ، أى شىء !

– سأفعل كل شىء .. وسأبذل كل جهدى ... ولن تكون هناك نوبة قادمة .

وأعطيتها ما استطعت من دواء ، وفعلت كل ما يمكن فعله ، ومع ذلك فقد حلت النوبة الثانية ، وكنت أنا هذه المرة شاهدها .

ولا أظننى مبالغا فى الوصف اذا ما قلت أنى لم أتألم فى حياتى قط لمنظر كهذا الذى شاهدته ، ولولا خشية الله والقانون لأقدمت أنا على قتلها لأخلصها من ذلك العذاب الذى كانت تقاسيه .

لقد استدعتنى العجوز عند بدء النوبة ، كما طلبت منها حتى أشاهدها بنفسى ، وخففت اليها فكنت فى الدار فى بضع دقائق .

ولم أكد أجتاز الحديقة ، حتى سمعت عواء أشبه بعواء كلب جريح وصرخات وأنات يكاد ينشق لها قلب صاحبها ، وصعدت الدرج أربعا فى أربع . وفى لحظة كنت أقف بباب حجرتها .

كانت السيدة تتلوى على الأرض وقد أمسكت الوسادة تمزقها بأسنانها ووضعت كفها على خدها وقد تقلص وجهها وجحظت عيناها ودفنت أظافرها فى لحم وجهها كأنما تحاول أن تنتزعه !

ولم أستطيع أن أفعل شيئا رغم توسلها الى بأن أنتزع ذلك الجزء الملتهب من وجهها ، وجثوت بجوارها أحاول تهدئتها عبثا ، حتى ذهبت النوبة أخيرا ، وأرتمت المرأة أشبه بجثة هامدة .

وعندما أفاقت أمسكت بى متشبثة بجنون ، وقالت فى اصرار ، بأنها لن تتركنى حتى أجرى لها تلك العملية .. عملية ازالة خدها وصدغها !

ورغم أنه كن من الجنون أن أحاول ذلك . الا أن منظر المرأة فى النوبة وطريقة توسلها بعدها كان يدعونى الى أن أفعل كل شيء فى سبيلها .

ولم أر بدأ من أن أعدها بعملية البتر ، وغادرت الحجرة بزعم أنى ذاهب لتحضير الأدوات ، ولكنى لم أكد أهبط الى الدور السفلى حتى وجدت الخادم العجوز تنادينى هامسة : وتسألنى أن أنتظر لحظة .

وهبطت الى الخادم وقادتنى الى حجرة نائية ، وسألتنى الجلوس لكى أستمع الى حديث تريد أن تفضى الىّ به .

وجلست الخادم أمامى ، وبدأت حديثها قائلة :

- لا داعى يا سيدى لإجراء هذه العملية . انها لن تجدى نفعا وستستمر النوبات كما هى ، ولن تفيد منها الا تشويه وجهها الجميل . انى أعلم بمنبع الداء وأدرى بمصدر العلة ، ان الداء فى رأسها ، والعلة فى نفسها !

وهززت رأسى طالبا منها التوضيح فاردفت تقول :

- لن أطيل عليك القول .. بل سأقص لك المسألة باختصار ، ان النوبة لم تصبها الا بعد الصفعة !

- صفعة ؟ أى صفعة !

- الصفعة التى صفعها لها ولدها !

- ولدها ؟ ألها ولد !

أجل لها ولد وزوج ، ولكنها هجرتهما هجران طيش ونزق !

- قصي على القصة من أولها !

لقد نشأت سيدتي ربيبة بيت عز وثراء ، بيت كريم المحتد طيب الأصل ، وكانت وحيدة أبويها ، فنشأت مدللة مرفهة ، ومات أبوها ، سيدى الكبير ، ولما تبلغ الثانية عشرة وترك لها ولأمها ثروة كبيرة ؛ وعندما أضحت فتاة مكتملة ، تهافت عليها الخطاب وتركت لها أمها الإختيار فاختارت شابا طيبا ، كامل الخلق ، كريم الأصل ، ذا مستقبل مرموق ، وتم الزواج في هدوء ، وغادرت الدار كي تعيش مع زوجها !

وسارت بهما الحياة هادئة ناعمة طبيعية ، وأنجبت منه ولدا جميلا ، ولم يكن هناك من يتوقع قط أن يجد الشقاء منفذا الى هذه العائلة الهانئة القريرة ، حتى بدأ الشيطان يتسلل اليها في هيئة صديق للزوج وبدأ ينثر سهامه المسمومة التي يسمونها الحب !

وأنا أعرف سيدتي الصغيرة جيدا ، فقد ربيتها منذ أن كانت رضيعة ، وأعرف طيبة خلقها واستقامة نزعاتها . وأعرف مبلغ رضائها وقناعتها بحياتها مع زوجها ! ... ومع ذلك فقد قلبها الشيطان رأسا على عقب ... فاذا بها تستبدل بهدوئها طيشا وبعقلها نزقا ... وباستقرارها في حياتها ثورة ومللا .

أغراها يا سيدى شيطان الحب ، وكل انسان معرض لتجارب ذلك الشيطان ، ولكن شر التجارب ما ينزلها بنا متأخرا بعد أن تقرر مصيرنا واستقرت حياتنا !

لو أن كارثة الحب اصابتها قبل الزواج لهان الأمر . ولأدت بها التجارب في النهاية الى الزواج ... أما أن تحب وهي متزوجة وأم وتهجر وكرها وتنطلق لا تلوى على شيء فتلك كانت المصيبة التي ما بعدها مصيبة .

وأنا اعرفها .. صريحة مستقيمة فى زللها ... فهى لم تقبل الخيانة والتخفى والتستر ، بل سألت زوجها الإنفصال ، وأنبأته بجلية الأمر .

وصدم زوجها ، ولكنه تلقى الصدمة بثبات وقبل الفراق مرغما ، ولكنه اشترط عليها لكى يطلق سراحها أن تعطيه تنازلا عن حقوقها فى الولد .

ولم يكن هناك أسهل عليها ، وهى فى هوس الحب وحمقه ، على أن تعطى التنازل .

وتمت الفرقة ، وبدأت حياتها الجديدة ، حياة الحب الوله ، حياة قصيرة ، التى الزوال مآلها ومنتهاها .

أجل . لقد تحقق ما تنبأت به وما حذّرتها منه سرعان ما دب اليها الملل وتملكتها السآمة ، وانطفأت تلك الألوان السماوية التى كانت تغريها ... ووجدت نفسها ما زالت على الأرض . سائمة حبها ، محرومة ولدها ، كالمنبت فى أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

ولم يكن فراق الحبيب الطارىء بأصعب من فراق الموج الدائم ، فلفظته فى ساعة ضيق وغضب ، وعادت فى بيتها تجر أذيال الخيبة والفشل والحسرة .

واستقر بها الحال هنا ... بين والدتها وبينى .

ولكن الحياة لم تطل بوالدتها فصعدت روحها الى ربها ... وبقينا نحن الإثنتان فى الدار ننعى من بناها !

ولم تحاول هى أن تشكو أو أن تتبرم ، فهى عنيدة متكبرة لكنى كنت أعلم مبلغ ندمها وحنينها الى زوجها وولدها !

وكان زوجها قد حرم على الولد رؤيتها ، فذهبت اليه خفية تسأله أن يسمح له بزيارتها ولو كل شهر مرة !

ورفض الوالد رفضا باتا ، ولم يحاول أن يستمع لرجائى بل أمرنى بالكف عن المجيء ، اذا كنت أنوى أن أزوره لهذا القصد .

وعدت فاشلة المسعى ، خائبة الرجاء ، ولم أذكر لها شيئا ولا أنبأتها بذهابى ، ورفض رجائى ، خشية أن تسبنى وتنهرنى !

ولكن الأيام زادتها مللا واحساسا بالحرمان ... حتى أذل الحرمان كبريائها ... فجلست الى ذات يوم تكشف لى خبيئة نفسها ... وتسألنى باكية أن أحضر لها ابنها لتلقاه ولو مرة واحدة !

ولم ارد أن أصدمها بقول الحقيقة ، وبرفض أبيه أن يسمح لها برؤيته ، بل صممت على التحايل وعلى أن أتيح لها لقاء لا يدرى به الأب .

وكنت أعرف مدرسة الإبن فعرضت عليها أن تذهب للقائه على باب المدرسة ، بدل أن نرجو أباه ونحمل أنفسنا جمائله .

وفى عصر ذلك اليوم ذهبنا الى المدرسة ووقفنا على مقربة من بابها نرقب الأطفال واحدا واحدا .. حتى وقعت عينى على الإبن فنبهتها اليه .

ووقع عليه بصرها .... فأحسست بها ترتجف ... وأبصرت الدمع مترقرق فى عينها ، وقالت في صوت مرتجف :

- لقد كبر وصار طفلا جميلا .

أخذ الطفل يقترب منا حتى صار بحذائنا ، فناديته ومددت يدى لأجذبه ، فنظر الىّ دهشا متعجبا !

ولم تستطع هى الصبر ، فجذبته اليها واحتضنته فى لهفة وشوق ، وأخذت تقبله فى حنان بالغ .

وحاول الطفل أن يتخلص منها متسائلا :

- من أنت ؟

أنا ماما !

- ماما ؟

قالها الطفل بازدراء واحتقار ورفع كفه وهوى به على صدغ أمه ، وأردف قائلا :

- لست أريد أن أراك . انى أكرهك !

وأفلت الطفل من ذراعيها وعدا بين الأطفال الى حيث وقفت عربة تنتظره لتحمله الى الدار .

وعادت الى الدار مذهولة صامتة . لا تنبس ببنت شفة كأنما قد شيعت الى الأحداث عزيزا لديها .

ومرت الأيام وهى حبيسة غرفتها لا تخرج ولا تتكلم ، ولا تأكل الا لماما .

حتى بدأت النوبة ذات يوم فاذا بها كالمجنونة الصرعى ، ومنذ ذلك اليوم والنوبات تزداد وتطول .

أفتجد بعد ذلك داعيا لإجراء العملية ؟

● ● ●

وهززت رأسي ولم أجب ... وغادرت الدار ورأسي يدور بما فيه من أفكار تصخب .

أن داء المرأة داء نفسي ! ومن العبث أن أحاول علاجها بأي علاج مادي .

بل لابد أن أعالج نفسها وأداويها بالتي كانت هي الداء .

وغادرت عيادتي في ذلك اليوم مبكرا ، واتخذت طريقي الى الزوج ... ولقيته ، فوجدته رجلا متزنا عاقلا .

ولم أجد معنى للف والدوران ، فقلت له بصراحة ما أتيت لأجله ، وقصصت عليه القصة كما رأيتها .

فقال : وماذا تريد مني ؟

- أن تغفر لها ... ما من انسان الا وله زلته ، وما من انسان الا ويمكن اعادته الى الطريق السوي . وكل حياة فاسدة لابد منتهية - مهما بلغ من سوء المذنب - الى الهداية الندم . وزلة زوجتك يا سيدي زلة طارئة ... وقد ردتها الأيام الى صوابها ، فهيىء لها فرصة أخرى لكي تعود الى الوكر الذي أفلتت منه ... أعدها اليك ... من أجلها ومن أجلك ، ومن أجل ابنك .

- ولكن هب انني غفرت لها ... ما جدوى ذلك في برئها مما أصابها ؟

- دع ابراءها لي .. كل ما عليك الا أن تغفر لها وتمنحها فرصة أخرى .

- اني غافر لها منذ زمن ، لأني ما كففت عن حبها ، ولكني ما عرفت كيف أعيدها ؟

- حسن ... هذا كل ما أريد ... دع بقية الأمر لي ، كل ما أرجوه منك هو أن تزيل من ذهن ابنك ما دفعت به من كره لها .

– وسأفعل ذلك أيضا !

وغادرته وانصرفت .

وفى اليوم التالى ، دق جرس فى العيادة ... وسمعت صوت الخادم العجوز تبكى متوسلة وتقول ان النوبة قد أصابت سيدتها وأنها توشك أن تقتل نفسها وتسألنى النجدة !

وقبل أن أذهب الى بيتها مررت فى طريقى ببيت الزوج فطلبت منه أن يأتى معى هو وابنه .

وذهبنا نحن الثلاثة الى الدار . وصعدنا فى عجلة الى الدور العلوى ، وكانت النوبة فى أشدها .

ودخلت الى حجرة السيدة وقد أمسكت بصدغها توشك أن تنتزعه ، وسألت الأب أن يدخل بابنه .

وروع الرجل من منظر زوجته ، وجثا أمامها يضمها اليه ، محاولا تهدئتها ، ولكنها كانت تتلوى من الألم .

ونحته جانبا وسألت الطفل الفزع المرتاع أن يقترب .

ولم تكد المريضة تراه حتى فغرت فاها وبرقت عيناها وكفت عن الصراخ والعواء وهتفت باسمة .

وتقدم الطفل ورفع يده – اليد التى صفعها بها – فربت بها على الخد الملتهب المستعر ، وربت عليه ، ثم قبله .

ووجدت الوجه المتصلب قد انفجر أساريره وكأنما نزلت عليه القبلة بردا وسلاما .

وسالت الدموع من مآقى الأم منهمرة كالسيل وضمت الإبن اليها .

وغادرت الدار فى هدوء ، تاركا العائلة القريرة ، ولم أسمع بعد ذلك أن النوبة قد عاودت المريضة قط .

حياة حمقاء

لا تجعل من أمانيك مبعثا لشقائك وموردا لتعاستك .. بل الفظها اذا ما أحسست منها بوادر حرمان تمن لتنال وتسعد ، ولا تتمن لتحرم وتشقى .

قلت لصاحبى :

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

واذا تاقت نفسك الى أمنية أباها عليك القدر فجاوزها الى سواها مما قد يجود بها عليك .. لا تكن صلبا فى أمانيك وعنيدا فى رغباتك .. فأنت تعاند القدر ... والقدر قاس غشوم ... لا تجعل من أمانيك مبعثا لشقائك وموردا لتعاستك .. بل الفظها اذا ما أحسست منها بوادر حرمان ... تمنّ لتنال وتسعد ولا تتمن لتحرم وتشقى .

كن مرنا فى أمانيك .. ودع للقدر ما يأباه عليك ... وأقبل على ما يمنحك .

واياك أن تفعل كما فعل صاحب الأرض البور بالأميرة والنخلة والسمكة والذئب الأجرب .

قال صاحبى :

- وكيف كان ذلك ؟

قلت :

- زعموا أنه كان فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان فلاح فقير يدعى عبد الله . أورثه أبوه قفرة خلاء واسعة لا ماء فيها ولا كلأ ولا زرع ولا ضرع .. أرضها بور وتربتها ملحة لا تنبت البذر ، ولا تنمى النبت ... ولبث الرجل غير قليل يضرب فى الأرض علّى الله يفجر فيها الماء ويجريه فيها غير مقطوع ولا ممنوع ، فيصلح بورها ويخصب تربتها ، وينضر يابسها ويحيى مواتها .

ومضى الزمن بعبد الله . وهو يضرب بلا يأس ولا ملل لا يوقفه جهد ولا يمنعه تعب ، غير ملتفت الى نصح جيرانه واخوانه بان يترك القفرة الواسعة ، ويقنع بقطعة أرض صغيرة خصبة من الأرض المجاورة يجرب فيها حظه ويحصل منها على قوته .

لقد أبى الرجل أن يحيد عن أمنيته التى ركز فى بلوغها جهده والتى لم يعد يجد السعادة فى الحياة الا فى تحقيقها ... وكان اذا مرّ به جار وحاول نصحه بأن يكفى نفسه مؤونة هذا الجهد الضائع فى أرض بور قاحلة صاح به والعرق يقطر من جسده :

- والله لاصلحنها ولأفجرن فيها الماء وأنبتن بها الزرع غير يسير ... ولأصبحن بها سيدكم وعمدة بلدتكم .

تلك كانت أمنية عبد الله أن يصلح أرضه البور ويصبح سيد قومه وأوفرهم مالا ... فيجعلوه عمدة القرية .

وطال به الضرب والعزق ، حتى وهن منه الجسد ولما تصلح الأرض أو يخرج منها ماء أو ينبت بها زرع .. وبلغ به الجهد مبلغا أقعده عن مواصلة العمل ... ولكنه لم ييأس من بلوغ أمنيته أو يقلع عن طلبها فقنع من الضرب فى الأرض بالجلوس عليها رافعا كفيه الى السماء داعيا الله أن يصلح الأرض ويجعله عمدة القرية .

ومرت به عجوز ذات ليلة وهو جالس أمام كوخه منهمك فى الصلوات والدعوات فصاحت به :

- يا عبد الله أبشر .

- بم ... ؟

- ألم يأتك نبأ ولىّ الله الجالس على قمة الجبل . ؟

- ومالى به ؟

- انه رجل مبارك صاحب معجزات ... ما سأله انسان حاجة الا قضاها له . اذهب اليه علّه يقضى لك حاجتك !

- أواثقة أنت من قولك هذا ؟

- وثوقى من رؤيتك ومن ذهاب عمرك الماضى سدى !

- وكيف أذهب اليه ؟

- سر فى هذا الطريق المار بالقرية واتبعه حتى تبلغ البئر ثم اتجه يمينك وانزل ببطن الوادى ، فاذا ما بلغته اضرب فيها حتى تصل

الصخرة المشيدة التى تشبه رأس الرجل والتى يقوم عليها القصر الخرب واتجه بعد ذلك الى الجبل العالى القائم على يسارها .. فاذا ما تسلقت الجبل وجدت ولىّ الله جالسا فى محرابه فاسأله ما تشاء !

- واذا لم أجده ؟

- يا عبدالله . لقد أضعت أربعين سنة من عمرك فى جهد مرهق ... جريا وراء أمنية فاشلة .. أفلا تزدها يوما ؟ ماذا يضيرك فشل يوم بعد أن فشلت أربعين عاما ... ؟

- صدقت يا عجوز النحس ، لأذهبن اليه وأجربنه .

وقبيل الفجر انتعل الرجل نعله ووضع عليه عباءته ... وزوّد نفسه بما يقيم أوده ، ويقيه مشقة الطريق ووعورة السفر .

وغادر كوخه وألقى نظرة وداع أرضه وتمتم فى نفسه :

- صبرا أيتها القفرة القاحلة ... والله لأعودن اليك بما ينضرك ويزهرك ويملأ رحابك خيرا وفيرا .

فلما بلغ القرية وأشرف على دورها الساكنة وأهلها النيام أردف قائلا :

- وأنتم أيها الجهلة القنع لأعودن اليكم سيدا وأضحى عليكم عمدة . وأمشى بينكم مختالا فخورا .

فلما بلغ حدود القرية ، وجاوزها سمع عواء طويلا وأنينا أليما ... فلما اقترب منه أبصر بذئب أجرب يتمرغ فى الثرى .. وصاح به الذئب وهو يتململ على الأرض تململ السليم :

- الى أين يا عبد الله ؟

- الى ولىّ الله أسأله أن يقضى لى حاجتى .

- وما حاجتك ؟

- يصلح لى أرضى ، ويجعلنى فى قريتى عمدة ، وعلى قومى سيدا مطاعا !

- وهل تراه قاضيها لك ؟

- أجل ، هكذا زعمت العجوز .

- فبالله يا عبدالله ، ألا ما أبلغته حاجتى ، علـه قاضيها لى أيضا ؟

- وما هى ؟

- جرب طال بى حتى فرى جلدى وأقضى مضجعى اسأله يا عبدالله كيف أشفى منه . ؟

- انى لمبلغه حاجتك يا شيخ الذئاب ، عم صباحا .

- عم صباحا ...

وعاود الرجل سيره . وقد صمم فى نفسه على أن يبلغ لولىّ الله حاجة الذئب علـه يشفيه فيرد له الذئب هذا الجميل فى يوم من الأيام .

فلما شارف البئر واقترب منها ليبل ظمأه رأى على حافتها نخلة باسقة طويلة الجذع خضراء الزعف ، ولكنها جرداء من التمر . وارتوى وهمّ بالرحيل فصاحت به النخلة :

- أما من تحية يا عبدالله .

- عم صباحا يا سيدة النخيل .

- عم صباحا . الى أين ؟

- الى ولىّ الله .

- وما تبغى منه ؟

- يصلح لى أرضى ، وينصبنى عمدة على قومى !

- ليتك تصنع فى جميلا تبلغه مصابى ؟

- وما هو ؟

- عقم أصابنى فلم اخرج تمرا ، وبلغت عنان السماء وأنا جرداء قاحلة .. اسأله ألا يرى لى دواء ؟ ألا ينجب لى تمرا ؟

- والله لابلغنه حاجتك يا سيدة النخيل .. ليطمئن بالك وليهدأ قلبك .

- شكرا جزيلا يا عبد الله .

وسار الرجل ، ويمم يمينه هابطا الى بطن الوادى ، فلما بلغه أبصر بحيرة ضحلة ... يكاد ماؤها يغيض ، . ووجد فى قاعها سمكة تتلوى فى الماء الغائض ، وقد تقطعت أنفاسها وأشرفت على الهلاك فلم تكد تبصره حتى صاحت به :

- يا عبدالله .

- ما بك يازينة السمك ؟

- أغثنى ، أدركنى ، لقد بلغت الروح التراق .

- وكيف أغيثك ؟

- ماء ... ماء ... أريد ماء ، ان البحيرة قد غاض ماؤها وجف نبعها .

– اصبرى علىّ ، لقد صادفت حاجتك قاضيها ، ولاقى مطلبك منجزه ، انى ذاهب الى ولىّ الله ليقضى لى حاجتى ، وسأسأله أن يقضى حاجتك أنت أيضا ... ويفجر الماء من حولك ، ويرد لك الروح ، فاطمئنى يا سيدة السمك .. انى عائد لك بما يطيب خاطرك ويزيل مخاوفك .

وانطلق عبد الله يحث الخطى ، حتى بلغ الصخرة والقصر الخرب ، فاستوقفه منه أنين وآهات ، تنساب وسط السكون تستدر الدمع وتندى المآقى ، فلبث فى مكانه منصتا منقبض الصدر كاسف البال ، ورفع بصره الى نافذة القصر فاذا بهيفاء حوراء تطل من النافذة وتئن وتتوجع .

وصاح بها عبد الله :

– وجعلت فداك يا سيدة الحسن وربة الجمال .. علام التأوه وفيم التوجع .

وكيف لا أتوجع يا عبد الله ؟ والعمر ينصرف والشباب يذوى ، والخراب لا يعمر ، والقفر لا ينتهى ، والطلل البالى ما زال باليا ، والدمن العافية ما زالت عافية ؛ اما لكل هذا الخراب من نهاية ؟ انى أميرة حبيسة فى هذا القصر الموحش الخرب ، فمتى يفك عنه السحر وأصبح ملكة ، وتعود الى هذا الوادى خضرته ونضرته ، متى تسرى من حولى الروح وتدب الحياة ؟

– أبشرى . أبشرى . لقد شارف كل هذا نهايته ، لقد أرسلنى الله لكى أزيل أحزانك وأرفع متاعبك ... انتظرى هنيهة حتى أعود اليك بكل ما تشائين ، انى ذاهب لولىّ الله ليقضى لى حاجتى . وسأسأله أن يقضى لك حاجتك ويبلغك أمانيك .

وانطلق الرجل يعدو حتى وصل الى الجبل .. فأخذ يصعده حتى بلغ منتهاه متعبا مكدودا ، وبدا له محراب الولّى فاندفع اليه وطرق الباب فأذن له الشيخ بالدخول .

ووقف عبد الله أمام ولّى الله ذى العمامة الكبيرة والدقن الأبيض والمسبحة المدلاة ... مبهور الأنفاس .. متصببا وجهه عرقا .

وهدأ ولى الله من روعه . وسأله عما يريد .

واجاب عبد الله فى صوت متقطع مرتجف :

- أريد أن تصلح لى أرضى وتنصبنى عمدة على قريتى .

- أهذا كل ما تريد ؟

- أجل ! أجل تلك هى كل حاجتى .

- انى قاضيها لك يا عبد الله ... خذ هذه الفأس واضرب بها أرضك ثلاث ضربات يتفجر منها الماء ... ويخضر يابسها وتصبح أنت عمدة بين قومك .

ومد يده بفأس صغيرة ، فأخذها عبد الله ، ووقف أمامه مترددا ، فقال له الشيخ :

- ما بالك يا عبد الله انطلق الى أرضك ... أتريد شيئا آخر ؟

- أجل ياولّى الله .. لقد صادفنى بعض المحتاجين ... وسألونى أن أطلب منك قضاء حاجتهم .

- فانك لقائلها ، وانى لقاضيها ... قل ما هى ؟

- أميرة القصر الخرب الوادى المقفر تريد أن تكون ملكة القصر العامر والوادى الخصيب ، والسمكة الهالكة فى البحيرة الضحلة تريد

أن ترد لها الروح وتفجر الماء فى بحيرتها والنخلة الجرداء تسألك أن تزيل عقمها ، وتملأها تمرا ... والذئب الأجرب يريد أن يشفى من جربه .

- هذه كلها حاجات سهلة مقضية ، خذ هذه الوريقات الأربع واعط كل صاحب حاجة ورقته ، فانى كاتب له فيها كيف يقضى حاجته .

وتهلل وجه عبد الله وانحنى فقبل يد الشيخ ، ثم انطلق يعدو بالفأس والورقات الأربع .

فلما بلغ الأمير ناداها فى صوت ملهوف ولهجة متعجلة :

يا سيدة الحسن ، أسرعى فان معى ورقة فيها قضاء حاجتك اهبطى لأخذها بسرعة فانى فى عجل . أنى أريد أن أذهب بسرعة الى أرضى لأصلحها وأصبح عمدة .

وهبطت الأميرة مسرعة تتعثر فى أذيالها ومدت يدها فخطفت منه الورقة وأسرعت فى قرائتها .

فلما انتهت من قراءتها صاحت بعبد الله وهو يهم بالمسير :

- انتظر يا عبد الله .. ان ولىّ الله يقول ان حاجتى ستنقضى وسأصبح ملكة القصر العامر والوادى الخصب اذا ما تزوجت الرجل الذى يحمل الورقة . فيجب أن تبقى لتتزوجنى لكى نعيش معا وتصبح ملكا على كل هذه البقاع العامرة .

- لا .. لا .. أنا لا أستطيع أن أنتظر لحظة واحدة. ليس لدىّ وقت لأتزوجك ولأصبح ملكا ، يجب أن أعود لأحقق أمنيتى وأصبح عمدة قريتى .

ثم انطلق يعدو والأميرة تصيح به باكية نائحة .
فلما بلغ السمكة صاح بها :
- اسمعى أيتها السمكة . لقد أجاب الله مطلبك . وأرسل لك هذه الورقة ففيها قضاء حاجتك .
ثم قذف بالورقة الى السمكة .
وأسرعت السمكة بقراءة الورقة فلم تكد تنتهى منها حتى صاحت بالرجل الذى انطلق يعدو فى الطريق :
- يا عبد الله انتظر ... ان ولىّ الله قال لى : ان الماء سيتفجر من حولى اذا ما انتزع أول رجل يمر بى ، الجوهرة التى فى فمى ... فتعالى بك لكى تأخذها وتنقذنى .
وصاح الرجل وهو مستمر فى العدو :
- لا ... لا ... ليس لدىّ وقت . انى أريد أن أكون عمدة القرية .
واستمر الرجل يعدو والسمكة تولول .
فلما بلغ البئر رفع بصره الى النخلة صائحا :
- اسمعى أيتها النخلة ... لقد بلغت سؤالك لولىّ الله فأعطانى هذه الورقة التى بها قضاء حاجتك . خذى هاهى .
ثم قذف بالورقة وانطلق يعدو .
وصاحت النخلة بعد أن قرأت الورقة :
- يا عبد الله ... يا عبد الله .. انتظر ان ولى الله . يقول لى : ان عقمى سينتهي وسأحمل بالتمر عندما يأخذ أول رجل يمر بى الكنزالمدفون أسفلى ... فتعال بالله عليك لتأخذ الكنز وتريحنى .
وأجاب عبد الله صائحا وهو منطلق فى عدوة :
لا أستطيع ... ليس لدىّ دقيقة واحدة أضيعها ... انى أريد أن أصبح عمدة قريتى .

فلما بلغ الذئب الأجرب ... وقف أمامه مبهور الأنفاس يلهث تعبا ومد يده اليه بالورقة قائلا وهو يهم بالعدو :

– خذ هذه فان فيها قضاء حاجتك .

– ألا تنتظر برهة حتى أقرأها ؟

– انتظر ؟ ! أيها الغبى الأحمق ! ليس لدىّ ثانية أضيعها معك ... أنى لم أنتظر أمام الأميرة لكى أتزوجها وأصبح ملكا ، ولم أنتظر أمام السمكة لآخذ الجوهرة من فمها ، ولم أنتظر أمام النخلة لآخذ الكنز من أسفلها وأصبح سيد الأثرياء ... أفتريدنى بعد هذا أن أنتظر أمام ذئب أجرب ؟ انى اريد أن أعود بسرعة لكى أصبح عمدة القرية .

وكان قد أتم قراءة الورقة ، فصاح به متسائلا فى دهش :

– ماذا تقول ؟ انك رفضت ان تصبح ملكا ... ورفضت أن تأخذ الجوهرة والكنز ، لأنك تريد أن تسرع بالعودة لكى تصبح عمدة قريتك ؟

– أجل فعلت هذا .. والآن دعنى أذهب .

– أدعك تذهب ؟ .. والله أكون أشد منك جنونا لو تركتك تذهب .

– ماذا تعنى ؟

– خذ وأقرأ ...

وأمسك عبد الله بالورقة يقرأها فوجد ولىّ الله يقول فيها للذئب الأجرب : انه سيشفى اذا ما أكل أول سخيف أحمق عديم الرأى يمر به .

وتساءل عبد الله فى دهش :

– ومالى أنا بهذه ؟

وهز الذئب رأسه فى أسف :

– وهل هناك أسخف ولا أحمق ولا أضل على ظهر الأرض منك ؟ ثم هجم عليه هجمة كانت القاضية .



أيها القراء :

هذه هى الحياة ! .....

وحياتكم الباقية ، لو صادفتم فيها حسنة ...

أو استقررتم على نعمة ! ....

أول عام ۱۹۳۰ على شاطىء النيل فى منتصف الليل ... ليل فـى : قر قاتم السواد ، كثيف الظلمات ، ثقيل السحب .. وتحت مصباح غاز ، خافت الضياء ... مترنح الذبالة ... بدا شبحان متباعدان ، متكئان على حافة السور الحجرى ، وقد علت وجهيهما علامات يأس بالغ ، وحزن عميق وأخذ يحدقان فى المياه ، وقد شرد بهما الذهن شرودا شديدا وبين آونة وأخرى يرمى كل منهما الآخر بنظرة حذر وقلق وشك وارتياب .

وزفر أحدهما زفرة حارة وأطلق من صدره تنهيدة عميقة وأخذ يحدث نفسه بصوت خافت :

- الى متى سيظل هذا الأحمق رابضا فى مكانه ... ماذا اعجبه فى وقفته تلك ؟ ظلمة الليل أم صبارة القر أم وحشة الشاطىء ؟ ترى متى ينوى الرحيل ؟ لعله ينوى أن يقضى هنا ليلته ، حتى الإنتحار قد عز علينا ، فلشد ما أخشى أن أقذف بنفسى في النهر فلا أكاد أصل الى سطح الماء حتى يكون هذا الغر الأحمق قد ملأ الدنيا ضجيجا وصياحا وايقظ أهل الحى ، فاندفعوا ورائى يحرموننى من الخلاص الأخير والراحة الأبدية ويعيدوننى الى دار الشقاء بزفة كبرى تظهر من شهامتهم على حساب بلائى وشقوتى ولا يصيبنى من فعلتى سوى الفضيحة وتلف الثياب .

ولم يكد يتم حديثه كان الرجل الآخر يرمقه بنظرة غيظ وضيق ويتمتم لنفسه قائلا :

- المصيبة انه يبدو من النوع الشهم مما يجعلنى اتوقع منه شرا ، وأوجس خيفة فهو لا شك ملق بنفسه فى اليم ورائى . باذلا كل جهده لإنقاذ حياتى ... وليس ذلك والله عليه بمستبعد ، فهو ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، مفتول العضل ، وأغلب الظن أنه سباح ماهر . ولا أظن مقاومة مثلى لمثله بالأمر اليسير ، فهو لا شك مكرهنى على الحياة ، معيدنى من جوف الماء الى ظهر الأرض .. يا للمصاب ! حتى الموت قد أضحى مشكلة .. انى لا أجد بقعة أصلح من هذه للانتحار ، لقد قطعت اليها كل هذه المسافة وفى هذه الساعة المتأخرة ووسط هذا الزمهرير القارس ، ولن ابوء بحفى حنين ... لا ...لالقد صممت على الموت فيجب أن أموت ولن يمنعنى مثل هذا الأحمق من الخلاص بنفس ، يجب أن أتفاهم معه وأرجوه أن يصنع فى معروفا ويتفضل بالإنصراف حتى يخلو لى الجو للإنتحار بهدوء .

وبدأ الرجل النحيل يقترب بخطوات بطيئة مترددة ، حتى وقف بجوار الرجل الضخم وأشار اليه بالتحية .

- مساء الخير .

ونظر اليه الآخر نظرة استنكار وأجاب بغيظ .

- مساء الخير .

- لى عندك رجاء بسيط ؟

- عندى أنا ؟

- أجل ! قد أكون سخيفا فى طلبه ... وقد تعتبرنى متطفلا أو متبجحا ... ولكن أقسم لك أنى لست كذلك وأنى ما كنت لاسألك اياه ، لولا حاجتى الشديدة اليه ... وانى ...

- لا داعى لكل تلك المقدمات ... أوجز فى الحديث وأفصح عما تريد .

- أرجو منك رجاء ، لا أظنه يكلفك شيئا ، ولكنى أقسم لك أن عليه يتوقف هنائى وراحتى .

- يا سيدى قل ما تريد .

- ارجوك أن تنصرف من هنا .

- أنا أنصرف !

- أجل ! أنت ... أرجوك الإنصراف.. أرجوك أن تتركنى وحدى .

- ولم لا تنصرف أنت ... تستطيع أن تكون وحدك فى أى مكان آخر غير هذا .

- لا يمكن .. أريد هذا المكان بالذات .

وأنا أيضا أريد هذا المكان بالذات .

- أرجوك .. اذ كان لديك موعد غرام ، فلتضح به من اجلى .

- موعد غرام !! لا شك أنك مجنون ... أم لعلك أنت الذى على موعد غرام .

- أبدا والله ... أموعد غرام فى منتصف الليل ؟ وفى مثل هذا الصقيع الذى ينفذ الى العظام ؟

- قل لنفسك ، لماذا تتهمنى اذن بأننى على موعد غرام ؟

- لا تؤاخذنى ... لم أقصد اتهامك بشىء ... كل ما فى الأمر أننى ظننت ...

- لا تظن شيئا من فضلك . وأرجوك أن تتفضل أنت بالإنصراف .

- أنا ؟ ... لايمكن .

- وأنا أيضا لن أنصرف .

- اذن ... فلنبق نحن الإثنان ولكن لى رجاء جديد لا أظنك ان تبخل به علّى .

- ما هو ؟

- أن تدعنى وشأنى .

يا سيدى ان هذا ما أرجوه منك ... دعنى أنت وشأنى ... أرجوك ... أستحلفك بالله ...

- اتفقنا اذن ... هذا هو ما أطلبه أنا أيضا ... كل منا يدع الآخر وشأنه مهما حدث ... ولكى تطمئن نفسى دعنى أسألك سؤالا واحدا : هل تجيد السباحة !

- لا .

- الحمد لله ... الله يبشرك بالخير ... دعنى اصارحك بالحقيقة اذن ... انى أنوى الإنتحار .

- تنوى ماذا ؟

- الإنتحار .

- هات يدك ، دعنا نتصافح ، نحن زملاء اذن ... كان يجب أن تخبرنى من قبل ، حتى يطمئن قلبى .. فلقد أخشى أن تفسد محاولتى .

- وأنا أيضا كنت أخشى ذلك .

- حمدا لله ، لا مبرر الآن للخوف .

أجل ! يستطيع كل منا أن يقدم على الإنتحار بقلب مطمئن .

- كان يجب أن تنبئنى بمثل هذا حتى لا نضيع كل هذا الوقت .

- لا بأس علينا ... ان الوقت ما زال أمامنا متسعا ، والطريق خاليا ، ولا خوف من أن يقدم على انقاذنا أحد .

- هيا بنا اذن حتى لا يحدث مالا تحمد عقباه .

- أجل ! فقد يطرأ طارىء مفاجىء ... هيا بنا هيا .

ومد كل منهما يده وشد على يد صاحبه :

- ميتة سعيدة .

- ميتة سعيدة .

وقفز الإثنان فوقفا على السور ، وبدآ يستعدان للقفز عندما أخذ ضوء عربة فخمة يقترب بسرعة وأبصر من فيها الرجلين وهما فى ذلك الموقف العجيب ، فأمر السائق بالوقوف وهبط من العربة فى دهشة وعجب وصاح بالرجلين .

- هاى .. ماذا تفعلان عندكما ؟

ونظر كل منهما لصاحبه وقد بدأ على وجهيهما أبلغ آيات الخيبة والفشل ، وقال الرجل النحيل فى ذلة ويأس :

- ألم أقل لك ... لقد كنت أعرف هذا ... انى مخلوق تعس ... حتى الموت قد تعذر علىّ .

- اسمع ... لا تأبه له ... يجب أن نقفز فى التو .

- ما الفائدة ... سيصرخ وسيجمع الناس حولنا ، وينقذنا ... لا ... لا ... لا فائدة هناك ... يجب أن نقنعه بالحسنى ... فمن يدرى .. ربما استطعنا أن نجعله ينتحر معنا .

وهبط الإثنان الى الرجل واتجها اليه ، ورفع الرجل سيجارة من فمه وأخذ يفحصهما بدهشة ، وقال متسائلا :

- ماذا كنتما تفعلان ؟ وفيم وقوفكما هذه الوقفة العجيبة ؟

وهز الشاب النحيل رأسه ورفع كتفيه وأجاب ببساطة :

- لا شىء ، كنا فقط نتمرن على القفز .

- قفز ؟ ! فى هذه الساعة .... وهذا الجو .. وبتلك الملابس ؟

- أجل ! وما المانع ؟

- ما المانع ؟ .. لا شك انكما مجنونان ، ان من الخطر ترككما هكذا طليقين .. يجب ابلاغ مستشفى المجانيب عنكما حالا .

وهنا تدخل الرجل الضخم قائلا لزميله :

- لا فائدة من الكذب ، يجب أن نصارحه بالحقيقة انه يبدو انسانا عاقلا متزنا ، ولا شك أنه سيعذرنا ويقدر ظروفنا ويتركنا وينصرف الى حاله .

ثم وجه القول الى الرجل الوجيه مستعطفا اياه :

- يا سيدى ... سنصدقك القول ، بشرط أن ترحمنا وتنصرف وتعدنا بألا تتدخل فى أمرنا .

وهز الرجل رأسه موافقا . ولكن الرجل النحيل قال فى اصرار :

- عدنا أولا ... عدنا بشرفك .

- شرفى ؟ ! ألم أقل أنك مجنون ، اذا كنت تثق فى وعد بشرف . فانى أقسم لك مئة قسم .. هل أطمأننت ؟ ! قل ماذا كنتما تفعلان ؟

- كنا ننتحر .

- تنتحران ؟ تنتحران جماعة ؟

- جماعة أم فرادى ... هذا لا يهمك فى شىء ... المهم هو أن تدعنا وتنصرف ... اللهم الا اذا كنت تنوى مشاركتنا .

- مشاركتكما فى الإنتحار ؟ أنا ؟ أنا أنتحر !

- يا سيدى لم يطلب منك أحد الإنتحار .. كل ما نرجوه منك هو أن تضع سيجارك فى فمك ، وتعود الى عربتك ، وتنطلق فى سبيلك ... أتظن أن هذا مطلب عسير عليك ؟

- ولكن لم تنتحران ؟ ماذا يدعو شابين مثلكما ، فى ميعة الصبا ومشرق العمر أن يقدما على الإنتحار ، ويطفئا بايديهما شعلة حياتهما ؟

وضاق صدر الرجلين . وأطلق الرجل الضخم زفرة تدل على نفاد الصبر وصاح .

- يا سيدى ليس هذا وقته ، ونحن لسنا مسؤولين أن نقدم لك حسابا .. من فضلك دعنا وشأننا ، كل انسان حر فيما يفعل ... نحن نريد أن ننتحر. وسننتحر ، تفضل ، أرنا عرض كتفيك .

ثم جذب زميله من ذراعه وصاح به .

- هيا ... هيا بنا .... كفى اضاعة للوقت .

وهز الرجل الأنيق رأسه وقال مهددا :

هكذا ... حسنا ، سأريكما .

وصاح مناديا السائق فى رنة غضب :

- محمد .

وبدا الفزع على الرجلين وهوى كل منهما على احدى يدى الرجل يوسعانها تقبيلا ... وقالا فى لهجة توسل واستعطاف :

- نحن فى عرضك ، لا تغضب ، سنخبرك عما تريد .سنذكر لك ما دعانا للانتحار على أن تتركنا بعد ذلك وشأننا .

- حسنا ، أعدكما بذلك ، هيا أنبئانى باختصار عما بكما ، لنبدأ بالاستماع اليك (وأشار الى الشاب الضخم) ماذا بك ؟

- يأس شديد ... وحياة مظلمة كئيبة ... لا أمل فيها ولا بارقة .

- هذه الحياة العريضة الواسعة لا تجد لك فيها أملا واحدا تحيا من أجله ؟

- كان لى أمل واحد ، شيدت عليه صرح حياتى ، فلما انهار أحسست بالحياة كلها تنهار ، كانت لى بارقة واحدة أسير على هديها ، وأهدف اليها ، فلما فقدتها وجدتنى أهوى فى الظلمات واتخبط فى الدياجير .

- لعلها حالة حب فاشل .

- بل حياة فاشلة .

- حمق وغباوة . الحياة لا تفشل من أجل حب فاشل . الحياة فيها أكثر من هدف وأكثر من أمل ، ألم تسمع قول القائل (فى بقية الدهر عزاء عن النرجس) ؟ ما بالك اذن تتعامى الا عن بارقة واحدة اذا انطفأت لم تبصر سواها .... تلفت حولك ان الحياة مليئة بالنعم .

- لا فائدة . انى لا أبصر سواها .

- وكيف فقدتها ؟ هل ماتت ؟

- لا .

- اذن فهى فاجرة خائنة غادرة .. اتراها تستحق أن تنتحر من أجلها .

- لا ... لا ... انها مثال الوفاء والإخلاص والطهر .

- وكيف فقدتها اذن ؟

- فرقت بيننا المادة والأنانية .

- لا أفهم .

- لم ترجح كفتى فى ميزان أبيها . فقد خفت موازينى ، موازين المادة والذهب ، وثقلت كفة غيرى ، ممن هم أوفر منى مالا ، وأعظم قدرا .

- وما لأبيها ومالك ، انك ستتزوجها هى ، وكان عليه أن يتركها تزنك بميزانها . ميزان الحس والمشاعر فهو أصدق وزنا .

- الأنانية والغرور ... انه يرى نفسه كل شىء وغيره لا شىء .

- على أية حال .. لست أرى المسألة تستحق الإنتحار .

- لن تستطيع منعى .

- لن أمنعك ، ولكنى سأفتدى حياتك ... سأبتاعها .

- كيف ؟

- بالمادة ... ان حياتك الآن تقدر بالجنيهات ان بارقتك يمكن اشعالها بأوراق البنكنوت ، ولدىّ منها الشىء الكثير ، الكثير جدا ... أكثر ما تتصور ، فلن يصعب علىّ أن ابتاع حياتك التى كنت توشك أن تطفىء شعلتها فى أغوار النهر .

ودفع الرجل يده فى جيبه وأخرج دفترا للشيكات ... وأخذ يكتب فيه برهة ثم أردف قائلا :

- ماذا يكفيك لترجع كفتك .. ألف . ألفان . ثلاثة آلاف ... أيكفيك هذا ... لكى تعيد اليك أملك ؟ أطلب ما تشاء فلدىّ الكثير ... أنا لست بالمبذر المتلاف ، ولكن هذه أول مرة أبتاع فيها حياة انسان ... ولن أكون بخيلا فى شرائها .

- وطوى الرجل الشيك ، ومد به يده الى الشباب الذاهل المندهش ، ثم تلفت الى الآخر وقال له :

- وأنت .. ما قصتك ؟

- أية قصة ؟

- لماذا تريد الإنتحار ؟

- لأنى لا أستطيع الحياة .

- كيف ؟

- لا أستطيع الحياة . لأنى لا أملك وسائلها ، لا أملك ما يجعلنى أواصل بقائى ككائن حى ، وأحصل على ما لمثلى من حقوق وأمتع بما يجب أن أمتع به من نعم . انى سأنتحر لأنى ان لم أنتحر اليوم فقد أموت الغد جوعا .

- عجبا ... ان مسألتك تبدو معقولة أكثر من مسألة صاحبك ... لم أكن أظن أن هناك انسان يمكن أن يموت جوعا .

- طبعا ... لا يمكن أن يشعر دائم الشبع أن هناك شيئا اسمه الجوع ... ولا يمكن أن يشعر الصحيح أنه صحيح ، ولكنه يشعر أنه كان صحيحا ... عندما يمرض ... ان النعمة لا يعرفها الا المحرومون منها .

- لم لا تحاول أن تعمل ؟

- حاولت .

- أليست عندك، مواهب ؟

- ليس عندى سوى شهادة عليا .. صرف عليها أبى آخر مليم معه ورهن وباع فى سبيلها بضعة الفدادين التى كان يملكها ... راجيا أن أعوضه عنها خيرا بمجرد أن أحرز الشهادة وأصبح صاحب وظيفة .

- ومضى على الزمن وأنا عاطل بلا عمل .. حتى مات هو من الهزال والمرض .

ألا تجد من الخير لى أن أوفر على نفسى مشقة الجهد فى حياة لاخير فيها ؟ أتجد لحياتى قيمة ؟

- ما من حياة الا ولها قيمة .. والا لما أوجدها الله على الأرض ... سأبتاع حياتك أنت الآخر ... أن فديتك بسيطة ... أبسط كثيرا من صاحبك ... خذ هذه البطاقة .

وأخرج من جيبه بطاقة كتب عليها بضعة أسطر ... ثم أعطاها له قائلا :

- اذهب الى وزير الزراعة ... انه صديق حميم ، ولى عليه أفضال جمة ... أعطه البطاقة ، وسيعطيك عملا .

وصمت الرجل ونظر اليه الشابان فى دهشة ورفع هو حاجبيه وتساءل :

- أيكفى ما أخذتماه لإبقاء حياتكما ؟

وأجاب الإثنان :

– يكفى هذا ، ولكن بأى مقابل ، بأى ثمن ... ماذا تريد منا ؟

– لا شيء أريد أن تنطلقا فى الحياة ، وتنهلا من نعائمها وتعرفا أنها مليئة بالآمال ، اذا ضاع أمل تجددت آمال ... لا يحتاج المرء فيها الا لبعض الصلابة لمقاومة المحن الطارئة .. لقد وهبت لكما ما وهبت لتتخطيا به العقبة الأولى .. لأن نفسيكما لم تكونا من القوة بحيث تستطيعان تخطيها ، فانهارتا أمامها . ولكنى أؤكد لكما أنكما ستعرفان فيما بعد قيمة هذه الحياة التى كنتما توشكان أن تخمداها وهى فى أوج شدتها ، أنى لا أريد ثمنا ، ولا عوضا ، كل ما أريده منكما هو أن تذكرا صنيعى وتلقيانى هنا فى نفس المكان ونفس الساعة بعد عشرين عاما ، لأرى كيف أصبحتما ، وكيف أزهر غرس يدى ... لا تشكرانى الآن ، فانى لن أقبل الشكر الا وقتذاك .

● ● ●

مضت عشرون عاما ، ونحن الآن فى نفس المكان ونفس الوقت ونفس الجو العاصف الزمهرير .

والرجلان قد اعتليا السور ووقفا نفس الوقفة السابقة وهما بأن يقذفا بنفسيهما الى الماء .

ومرة أخرى ظهرت العربة مقبلة من نهاية الطريق ثم وقفت بالقرب منها وهبط منها الرجل الغنى ، وقد بدا عليه الهرم وتثاقلت مشيته .

وعدا الرجل تجاه الشبحين الواقفين على السور وهو يصبح :

– هاى ، ماذا تفعلان ، أيها الأحمقان ؟ اهبطا الىّ ألم نتواعد على اللقاء لترفعا الىّ فروض الشكر ؟

- شكر ! ! على ماذا ! ! على ما رزأتنا به من مصاب . انه لم يبقنا على قيد الحياة الا ارتباطنا بموعدك ، أنت السبب فى كل ما قاسينا ، لو تركتنا فى المرة السابقة لوفرت علينا مشقة عشرين عاما ، لقد حضرنا فى الموعد المضروب واتضح لكلينا أن رأيه فيك مشابه لرأى الآخر وأنك قد آذيتنا فى المرة السابقة أيذاء شديدا ، فعزمنا على ان نسرع بالإنتحار قبل أن تحضر مرة أخرى لتعطينا نفس الخازوق .

- ولكن ...

- ليس هناك لكن ... هذه المرة لن تستطيع الضحك علينا ... لقد عزمنا وانتهى الأمر .

- انصتا الىّ برهة ، أقسم لكما أنى لن أحاول منعكما . ولكن أليس لى الحق فى أن أعرف ماذا حدث ؟ ألا تعرفان أن حياتكما ليست ملككما ؟ انسيتما أنى ابتعتها ، وأنه ليس لكما حق التصرف فيها ! ومع ذلك فانى لن أحاول التحكم فيها ، لأنى قد وهبتها لكما ؟ ولكن كل ما فى الأمر أنى أريد أن أعرف نتيجة عملى ، أليس هذا من حقى ؟

- لن نغادر المكان ، لن نهبط اليك انك لن تخدعنا مرة أخرى .

- لا أريد منكما أن تهبطا ، أبقيا كما أنتما ، دعنى أن أصعد اليكما ... هيا ساعدنى .

ومد الاثنان أيديهما ورفعاه الى جوارهما ووقف الثلاثة على السور الحجرى يتممون بقية حديثهم ، قال الرجل موجها الحديث الى الرجل الضخم :

- حسنا .. الآن قل لى ما حدث لك ؟ ألم ترجح كفتك بما أعطيته لك .

- بل رجعت وتزوجتها ؟ .

ماذا يحزنك اذا ؟

- بعد عام فقدتها مرة أخرى ، فقد ماتت فى أثناء الوضع .

- حياتك الباقية ، ولكن هذا لا يعنى أن تقتل نفسك وراءها .

ومتى ؟ بعد تسعة عشرة عاما !

- انتظر ... لقد تركت طفلا .

نعمة من الله ... المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، ويجب عليك أن تحافظ على حياتك وتكرسها فى تربية ابنك .

- هذا ما فعلت بالضبط ، لقد كرست حياتى من أجله ، وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى تلك ، وهو حشاشتى وقرة نفسى ، وحياتى ، مدة تسعة عشر عاما كنت خلالها مرضعة وخادمة ومربية وأما وأبا ، لقد جعلت منه فى هذه المرة بارقتى وأملى ، وأقسم لك أنى صنعت منه شيئا مثاليا ، نموذجا للذكاء ، نموذجا للخلق ، لقد تخرج من كليته وأصبح رجلا وهو فى سن التاسعة عشر ، رجلا بمعنى الكلمة .

- حفظه الله .

- أمنية لا محل لها ، فقد أخذه ، لقد أباه علىّ بعد مجهود تسعة عشرة عاما ، لقد انطفأت البارقة التى كرست لها حياتى أنفخ فيها وأذكى لهيبها ، من العبث أن أشرح لك شعور الثاكل فلا يعرفه الا مجرب وقاك الله شر التجربة . هذه هى حياتك التى وهبتها لى ، انصر بعد ذلك على ابقائها ؟

ولم يجب الرجل فقد أطرق رأسه مخفيا عبارتين تترقرقان فى مقلتيه ثم التفت الى الآخر .

- وأنت ، ما أمرك !

- لا كوارث ولا نكبات ، بل حياة طبيعية جدا ، وهذا هو المصاب ... أجل ... المصاب ... انى مصاب بلا مصاب ... لقد عينوني بواسطتك فى الدرجة السابعة . واخذت أشق طريقى كالسلحفاة حتى أصبحت بعد تسعة عشر عاما فى الدرجة الخامسة .

- الحمد الله . موظف درجة خامسة ... ماذا يدعوك الى الانتحار ؟

- لو اقتصر الأمر على ذلك لهان ولقبلت يدى وجها وظهرا . موظف درجة خامسة مركز لا بأس به ، ومرتب لا بأس به ، وحياة لا بأس بها ... لو كان يعيش وحده ... ولكن المصاب أنه لا يعيش وحده .. لقد سارت بى الحياة طبيعية . طبيعية أكثر مما يجب ... لقد تزوجت كما يتزوج كل انسان ... وانجبت أولادا ... كما تتطلب طبيعة الزواج من كل زوجين سليمين ، ومرت السنون والذرية تنساب الواحد بعد الاخر . حتى أصبح عندى من الأولاد عشرة ومعنى ذلك أنى مكلف بأن أعول بمرتبى اثنى عشر مخلوقا ، وأهيىء لهم حياة تتناسب مع حياة موظف حكومى محترم ، لا حياة كناس أو عامل دريسة ... وأنت تعرف تكاليف الحياة ... وتعرف الجهود الجبارة التى تبذلها الحكومات لخفض الغلاء ... انى أريد أن أربى الأولاد وأسكنهم بيتا وأكسيهم وأعلمهم وأزوجهم .... و.... و ..... كل هذا ببضعة الجنيهات التى اتناولها فى آخر الشهر ... أنا لست ساحرا .. ولا مشعوذا .. قل لى بالله عليك ماذا أفعل ؟ ألست أنت المسئول عن كل هذا ؟ ! هذه هى حياتى ، وهذه هى المضاعفات التى تبحث عنها ... عشرة أرواح تسعة بائسة ما رأيك ؟

وأطرق الرجل رأسه مرة أخرى وقد بدت عليه الحيرة وأخيرا أجاب :

- اذن فأنتما تصران على الفرار من الحياة ؟
- أجل .

– اتسمحان اذن بأخذى معكما ؟

– أنت !

– أجل أنا !

– تريد أن تنتحر ؟

– أجل .

– أنت ؟ أتسخر منا ؟ ! أتضحك علينا ! ماذا يمكن أن يجبرك على الفرار من الحياة . أليس لديك كل ما تشتهى . ؟ أليس لديك المال ؟

– عندى الملايين .

– والجاه والسلطان ؟

– عندى نصف شركات البلد ، واتحكم فى ثلاثة أرباع الحكام ، والربع الباقى موظفون عندى .

– والأعمال والآمال ؟

– لا حد لها .. عندى مشروع شركة الكهرباء ، وشركة المعادن .

– والبنون ؟

– عندى من الأولاد والأحفاد مالا رغبة بعده لمزيد ... لقد وهبتنى الحياة كل شىء ... لم تترك شيئا بخلت به علىّ ... ولقد أضافت أخيرا ... من فرط كرمها هبة جديدة ، الى هباتها السابقة .

– ما هى ؟

– سرطان ... اجل هذا هو ما ختمت به نعماءها .. لقد وهبتنى سرطانا ، جعل كل أملى فى الحياة هو أن أخرج منها بأقصى سرعة هيا بنا ولا تضيعا الوقت .

– وقفز الثلاثة وغابوا فى قرار اليم .

أيها القراء : هذه هى الحياة :

وحياتكم الباقية ، لو صادفتم فيها حسنة ، أو استقررتم على نعمة .

للمؤلف

اطياف	قصص قصيرة	١٩٤٧
نائب عزرائيل	رواية	١٩٤٧
اثنتا عشرة امراة	قصص قصيرة	١٩٤٨
خبايا الصدور	قصص قصيرة	١٩٤٨
يا امة ضحكت	قصص قصيرة	١٩٤٨
اثنا عشر رجلا	قصص قصيرة	١٩٤٩
ارض النفاق	رواية	١٩٤٩
فى موكب الهوى	قصص قصيرة	١٩٤٩
من العالم المجهول	قصص قصيرة	١٩٤٩
هذه النفوس	قصص قصيرة	١٩٥٠
انى راحلة	رواية	١٩٥٠
مبكى العشاق	قصص قصيرة	١٩٥٠
بين ابو الريش وجنينة ناميش	قصص قصيرة	١٩٥٠
اغنيات	قصص قصيرة	١٩٥١
ام رتيبة	مسرحية	١٩٥١
هذا هو الحب	قصص قصيرة	١٩٥١
صور طبق الأصل	قصص قصيرة	١٩٥١
بين الأطلال	رواية	١٩٥٢
السقا مات	رواية	١٩٥٢
سمار الليالى	قصص قصيرة	١٩٥٢
الشيخ زعرب	قصص قصيرة	١٩٥٢
نفحة من الايمان	قصص قصيرة	١٩٥٢
وراء الستار	مسرحية	١٩٥٢
ست نساء وستة رجال	قصص قصيرة	١٩٥٣
هذه الحياة	قصص قصيرة	١٩٥٣

البحث عن جسد .	(رواية	١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية	١٩٥٣)
فديتك يا ليلى . .	(رواية	١٩٥٣)
ليلة خمر . .	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
همسة عابرة . .	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
رد قلبى . . .	(رواية فى جزاين	١٩٥٤)
ليال ودموع . .	(قصص قصيرة	١٩٥٥)
طريق العودة . .	(رواية	١٩٥٦)
ايام تمر . .	(مقالات	١٩٥٧)
من حياتى	(مقالات	١٩٥٨)
لطمات ولثمات .	(مقالات	١٩٥٩)
نادية . . .	(رواية فى جزاين	١٩٦٠)
جفت الدموع . .	(رواية فى جزاين	١٩٦١)
ايام مشرقة . .	(مقالات	١٩٦١)
ايام وذكريات . .	(مقالات	١٩٦١)
ايام من عمرى .	(مقالات	١٩٦٢)
ليل له آخر . .	(رواية فى جزاين	١٩٦٤)
أقوى من الزمن . .	(مسرحية	١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزاين	١٩٦٩)
لست وحدك . .	(رواية	١٩٧٠)
من وراء الغيم . .	(مقالات	١٩٧٠)
ايام عبد الناصر .	(مقالات	١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية	١٩٧١)
طائر بين المحيطين .	(رحلات	١٩٧١)
العمر لحظة . .	(قصة	١٩٧٣)

رقم الايداع ١٧١٨ / ٨٧